وكان يقطفهنّ، الواحدة تلو الأخرى...

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

رواية

قاطف الفراولة

مونيكا فيث

المركز الثقافي العربي

مونيكا فيث

قاطف الفراولة

رواية

ترجمة: أمال نعيم الحلبي

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

twitter @baghdad_library

العنوان الأصلي للكتاب:

Der Erdbeerpflücker
by Monika Feth

© 2003 by cbt/cbj Verlag, München, a division of Verlagsgruppe Random House GmbH, München, Germany.

الكتاب

قاطف الفراولة

تأليف

مونيكا فيث

ترجمة

أمال نعيم الحلبي

الطبعة

الأولى، 2013

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-652-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

كانت ممدّدة هناك مثل الفتيات الأخريات، وجسدها مثلهن، مطعوناً سبع طعنات. شعرها قصير، ويبدو أنّه كان قصيراً من قبل، ولا وجود لخصلاتٍ منه منثورة هنا وهناك. وعيناها الواسعتان موجّهتان إلى السماء. نظرة تنمّ عن الشعور بالمفاجأة. هذه النظرة التي رآها بيرت ملزيغ في الجرائم الأربع، وكانت الأشدّ إيلاماً بالنسبة إليه.

«الضحايا!» كلمة طالما تردّدت على الألسن وردّدها بيرت نفسه آلاف المرّات بطريقة طبيعيّة، ولكن هل بتنا نقدّم ضحايا آدميين إلى الآلهة في هذه الأيّام!؟

«نحن بحاجة لاختيار تعبير آخر، تعبير دقيق لا يحتمل الخطأ»؛ فكّر بيرت قبل أن يتوجّه عائداً إلى سيّارته. عليهم الآن انتظار نتائج التشريح الشرعي. وفي هذه الأثناء، هناك أمور كثيرة يجب القيام بها، وأجهزة الأمن الجنائي بدأت في عمليّات البحث من جديد.

twitter @baghdad_library

(1)

في هذا اليوم المشمس والحار حيث تكاد تشمّ رائحة الحرارة في الهواء، وتخال جلدك يحترق، كان قاطف الفراولة الشابّ يشعر بالعرق يقطر من جسمه مع كلّ حركة يقوم بها، الأمر الذي زاد الطين بلّة على مزاجه المتوتّر، والمتحضّر للانفجار.

تعوّد الجميع عدم الاقتراب منه في مثل هذا الجوّ. حتى أنّهم تعلّموا خفض أصواتهم خلال تبادل الأحاديث لكي لا تصل كلماتهم إلى أذنيه وتزعجه.

من جهته، كان يتساءل عن السبب الذي يدفع بعض الناس إلى الثرثرة العقيمة، فلا يميّزون بين ما هو ضروري من الكلام والتافه والمزعج منه، ويقذفون بما تلوك به ألسنتهم كيفما اتفق ومن غير قياسٍ. لقد نجح منذ طفولته في معرفة الطريق إلى إقفال أذنيه عن كلّ ما يُقال حوله. وكان يتسلّى برؤية شفاه الناس تتحرّك من غير أن يصل إلى ذهنه من انبعاثاتها شيء. أسلوبٌ في الدفاع عن النفس تمرّس عليه وامتلكه.

لم ينجُ من الضرب خلال طفولته كلّما لجأ إلى هذا الأسلوب؛ ولكنّ ذكاء المحيطين به في هذه الأيّام لا يتعدّى مستوى بلاهة ما يتفوّهون به، فتراهم لا يتنبّهون إلى ما يجري.

twitter @baghdad_library

بعد ساعة من الآن، يحين وقت فرصة الغداء التي تمرّ بسرعة، قبل أن يعود مجدّداً إلى العمل.

يُدرك قاطف الفراولة خطورة ما يحدث عندما يشعر بارتجاف أصابعه وينتابه التوتّر، كما في هذه الساعة. ولذلك، عليه أن يشغَل نفسه بالعمل باستمرار.

عندما تأوّه فجأةً بصوتٍ عالٍ، التفتت نحوه امرأتان لا يعرفهما من العاملات في الحقل، فصوّب نحوهما نظرةً داكنة جعلتهما تتحوّلان عن النظر إليه في الحال.

ثمّ رفع رأسه نحو الشمس الساطعة راجياً: أرجوك أن تحرقي أفكاري. أرجوكِ أن تحرقي مشاعري.

لكنّ الشمس، ليست سوى الشمس ولا يمكنها تحقيق مطلبه.

الجنّيات يمكنهنّ ذلك.

ولكن ليس كلّهنّ، إنّما الجميلات والشابّات والبريئات بينهنّ.

والبراءة هي الشرط الأهمّ.

جنيّة خاصّة به ولا تخصّ سواه في هذا العالم.

* * *

كنت أقود سيارتي على طريق القرية والنسائم الحارّة تحمل إليّ عطر الفراولة الطازجة من خلال النوافذ المفتوحة. فكّرت في الطقس الحارّ الذي وصلنا باكراً هذه السنة، فيما كنت أشعر بالتصاق تنورتي على أعلى ساقيّ، وبقطرات العرق فوق شفتي العليا، فالحر شديدٌ وقد وصلنا باكراً هذه السنة. سيارتي قديمة ومن نوع رينو، ولعلّني، وعلى الرّغم من تعلّقي الكبير بها، كنت سأرحّب بركوب سيارة جديدة مجهّزة بمكيّف في هذا اليوم الحارّ.

عندما مررت فوق المنعطف، امتدّ مشهد حقول الفراولة أمام ناظريّ. ورأيت قاطفي الفراولة هنا وهناك، فمنهم من انحنى ليقطف الثمار الجميلة، ومنهم من كان يمشي بتؤدة بين الأتلام الخضراء متأبطاً صندوقاً مليئاً بسلال الفراولة. كان اللون الأحمر يغلب على سمرة أجسادهم التي لوّحتها الشمس، فبدت الحقول المنبسطة الخضراء زاهية بالأحمر، والمشهد بديعاً.

معظم هؤلاء العمّال هم من الغرباء الذين أتوا من بولندا، أو من مناطق بعيدة في ألمانيا للعمل في حقول الفراولة. إنّهم عمّال موسميّون يأتون كلّ سنة ثم يرحلون؛ لكنّ سكّان البلدة لا يتعاملون معهم بلطف، بل يقفلون الأبواب والنوافذ في وجوههم.

في الأمسيات، يلتقي هؤلاء الغرباء معاً حول البئر في وسط القرية، فيمرحون ويهزجون ويشربون الكحول ويدخنون. يقضون أوقات فراغهم معاً ولا يختلطون البتّة مع الأهالي؛ حتّى إنّهم يرفضون إلقاء السلام عليهم أو الابتسام لهم، مؤكّدين صحّة المثل المعروف: **لا يحصد القوم سوى ما زرعوا.**

تابعت قيادة السيارة فوق الطريق الطويلة والمتعرّجة الصاعدة نحو البيت، كنت أستمتع بقرقعة الحصى الأبيض تحت الدواليب، وكما في كلّ مرّة أزور بيت والدتي، أخال نفسي أمثّل في فيلمٍ سينمائي ولا أعيش في الحقيقة. إذ إنّ كلّ ما في هذا المكان رائع إلى درجة خياليّة.

لا بدّ لمن يأتي لزيارة هذا المنزل لأوّل مرّة من اشتمام رائحة الثراء فيه. فقد قام المهندس المعماري المعروف جدّاً بتكليفٍ من أمّي بإصلاح طاحونة البلدة القديمة وتجديدها مضفياً عليها منظراً فريداً؛

twitter @baghdad_library

كما حوّل جدولاً رفيعاً من الساقية القريبة إلى داخل المنزل بطريقة هندسية فريدة ورائعة.

وكانت أشعة الشمس تشعّ فوق جدار البيت الذي بُنِي منذ مئتي عام من الحجر الرملي القرميدي الجميل، وتنعكس فوق زجاج المدخل الكبير فتنتشر في كلّ اتجاه، ثمّ تتكسّر فوق الحصى الأبيض المتلألئ، فكأنّ المشهد من ابتكار أحد كتّاب قصص الخيال العلمي الرائدة.

إنّه منزل أمّي. منزلٌ كلّما زرته أُسحر بجماله.

وما إن فتحت الباب ودخلت، حتى أسرع لملاقاتي إدغار، الهرّ الذي يدين باسمه إلى الكاتب إدغار آلان بو (Edgar Allan Poe) الذي تهوى أمّي قراءة قصصه. وسرعان ما شعرت بجوّ البيت المنعش يلامسني ويرحّب بقدومي.

التقطت إدغار وداعبته، فرأيت حفنةً من وبره الطويل تتساقط على الأرض. أفلتّه من يدي فقفز أمامي إلى الدرج، ثمّ توقّف فجأةً ملتفتاً إليّ لكي أتبعه.

كلّ ما في البيت جميلٌ وثمين ومصمّمٌ بطريقة مدروسة. أمّا أشعّة الشمس اللّطيفة في عصر ذلك النهار، فكانت تدخل من النوافذ الكبيرة وتنفلش فوق خشب الدرج الأنيق فيبدو لامعاً ومتوهّجاً كالمرايا. أما المقاعد المصنوعة من القصب والمنثورة فوق بلاط الفناء الرّخامي الخارجي فتجعلك تشتهي زيارة إيطاليا، كما الجدران البيضاء الصافية، وأطر النوافذ المستديرة التي تذكّر بنوافذ بعض الكنائس القديمة.

أما الدرج فكأنّه معلّقٌ في الهواء بفضل تصميمه الفنّي والمواد المتطوّرة التي استخدمت في بنائه. عملٌ ناجح ينمّ عن عناية كبيرة

تتجدّد في كلّ غرفة، وفي كلّ قطعة من مفروشات وتجهيزات المنزل. في الواقع، أصرّت أمّي على اختيار الأفضل والأثمن الذي سمحت به قدراتها المالية الواسعة.

وصل إدغار إلى الطابق العلوي وراح يتمرّغ على الأرض أمام باب غرفة أمّي مخرخراً بسرور.

الباب مغلقٌ والسكون مخيّمٌ. اعتقدت أنّها نائمة، ودخلت بهدوء.

ها هي تجلس إلى مكتبها، وأمامها كومة من الأوراق. التفتت إليّ بابتسامٍ قائلة: «جنّا! كم قدومك جميل!»

أمّي كاتبة معروفة اكتسبت شهرتها الواسعة من خلال كتابتها لعدد من القصص البوليسية الناجحة. أمّا انطلاقتها فبدأت عندما قرّرت التوقّف عن الاستماع إلى نصائح جدّتي وصديقاتها بالتزام نمط الأدب التقليدي و'الحقيقي' بحسبهنّ. ومنذ ذلك الوقت، يتهافت الناس على قراءة كتبها التي تترجم إلى أكثر من عشرين لغة، ويتسابق المنتجون السينمائيّون إلى اكتساب حقّ تحويل قصصها إلى أفلام سينمائيّة.

«اجلسي، سأكون معك خلال دقائق».

يمكنكَ أن تقطع على أمّي عملها لأيّ سبب وفي أيّ وقت، سوى عندما تكون في معرض بناء فكرة معيّنة أو التفكير في تعبير ما. لقد تعوّدت على ذلك منذ طفولتي، ونَمَت لديّ قناعةٌ بأنّ الكلمات تهمّها أكثر مني.

كان إدغار قد سبقني إلى المقعد الوثير وراح يخرخر لكي أجلس بقربه. فجلست وما لبث حتّى تكوّم في حضني وأغمض عينيه مسترخياً.

twitter @baghdad_library

ما زلت أذكر حياة عائلتنا قبل أن تحقّق أمّي شهرتها. آنذاك، كنّا نعيش في أحد بيوت بلدة برول (Bröhl) المرصوفة جنباً إلى جنب. كانت حديقة البيت الأمامية تشبه حدائق المقابر بشجيراتها المقلّمة وزهورها القليلة، وبعض الصخور النظيفة البيضاء المنثورة بين عددٍ من برك الماء الصغيرة حيث تنمو بعض أنواع النباتات المائية، وتعيش حفنة من أسماك المياه العذبة الصغيرة.

وعلى نافذة مكتب أبي في الطابق السفلي، تعرّشت نبتة لبلاب خضراء دقيقة الأوراق. وأمام الباب الخارجي، وُضعت لوحة معدنيّة دائريّة حُفر عليها: ثيو واين غارتنر - خبير مالي. كانت اللّوحة مصقولة إلى درجة كانت تدعو السيّدات من الزبائن استخدامها كمرآة لإصلاح مظهرهن، قبل قرع الجرس والدخول لمقابلة أبي.

تعوّدت أمّي قضاء معظم أوقاتها في الكتابة، تاركةً أمر الاعتناء بنظافة المنزل إلى امرأةٍ تزورنا مرّتين في الأسبوع؛ إضافةً إلى منظّف زجاج النوافذ الذي يأتي مرّة في الشهر.

أمّا مكان أمّي المفضّل بعد مكتبها في الطابق الأوّل، فكان حديقة البيت الخلفية المزروعة بطريقة تقليدية جدّاً، على نمط ما نشاهده في المجلّات التي تهتمّ بترتيب البيوت والحدائق.

أمّا العمل في الحديقة فكان متنفسها الذي تلجأ إليه عندما تُصاب بجفاف الخيال، أو بصعوبة التعبير الذي لا يعاني منه المؤلّفون في بعض الأحيان. لعلّها كانت تتمنّى الاستعانة باهتمام أبي وبآرائه لحلّ بعض العقبات التي كانت تواجهها على الورق، عوضاً عن محاولة تفتيتها مع كتل التراب في الحديقة، ولكنّه لم يأخذ عملها في الكتابة على محمل الجدّ. وكان يصرّ على تسميته ضرباً من **الخربشة**، ويطلق

عليها صفة **المخربشة**. ومهما كان يحاول أن يُلبس كلامه الجارح ثوب المزاح، إلا أنّ استخفافه بعملها كان فاضحاً.

واستمرّ والدي بهذا السلوك حتى بعد أن نالت أمّي قسطاً وافراً من الشهرة، وأصبح الصحافيون يتسابقون إلى منزلنا لإجراء أحاديث صحفيّة أو لتسجيل مقابلة تلفزيونيّة معها.

ولكنّ ما لبث نجاحها ونصيبها من بيع الكتب أن أثمر مالاً إضافيّاً لعائلتنا. فقام أبي بتجديد ديكور مكتبه وابتياع سيّارة ب. م. دبليو (BMW) فخمة. أمّا هي، فاشترت لنفسها حاسوباً جديداً، وحقّقت ما كانت تشتهيه منذ زمن، وهو إقامة غرفة زجاجيّة خاصّة بها في الحديقة، حيث تجلس للكتابة، ولاستقبال الناشرين والصحافيّين وغيرهم من الضيوف المهتمّين بمثل هذه الأمور.

إلا أنّ عمل أمّي الأدبي بقي على هامش حياتنا العائلية؛ فنادراً ما كانت تتكلّم عنه خلال جلساتنا؛ ولكنّها كانت تخبرنا في بعض الأحيان بأنّها انتهت للتوّ من مخطوطة معيّنة. ويتبع ذلك عادةً، أن يأتي الناشر إلى منزلنا فيجلس معها في الغرفة الخاصّة لمناقشة بعض التفاصيل، وتتناثر الأوراق في كلّ أرجاء الغرفة حتّى يغدو من الصعب الدخول إليها، أو التحرّك فيها من دون التسبب بإرباك كبير.

كما إنّنا كنّا نتوقّع، بعد ذلك بأسابيع قليلة، أن يقرع ساعي البريد الجرس مصطحباً النسخة التجريبية لإطلاع أمي عليها، وأخذ موافقتها حول شكل الغلاف. وبعد أيامٍ قليلة، يعود هذا الأخير حاملاً النسخة النهائيّة.

حتى اليوم، ما زالت أمّي تؤكّد أنّ الكتابة تساعدها في التغلّب

twitter @baghdad_library

على الملل وتحمّل روتين الحياة اليومية. أمّا في ذلك الزمن، فلا بدّ أنّها كانت عوناً كبيراً لها على تحمّل فظاظة أبي.

اتّبع أبي في حياته اليوميّة وفي عمله أسلوباً نظاميّاً يميل إلى التجمّد.

أما أمّي فمن حيث طبيعتها كانت تميل إلى الفوضى، وكنت أتصوّر أنّها عندما كانت طفلة مثلي، كانت غرفة ألعابها في حالة من الفوضى الدائمة، ولذلك فهي تحتاج إلى من يساعدها في تنظيف المنزل وإعادة النظام إليه.

ولذلك أيضاً، كانت تفضّل تمضية أوقاتها في الحديقة، فهناك تتحرّك بحريّة وتعيش في عالمها الخاصّ كيفما تريد. بالنسبة إليها، لا خوف على النجاح فهو قادمٌ لا محالة، أمّا الأخطاء فقابلة للتصحيح بسهولة.

في الكتابة، كانت أمّي تخترع عوالم معقّدة حيث تتمتّع وحدها بالسلطة على الشخصيّات التي تبتكرها، فتجعلهم يولدون ويموتون ساعة تشاء؛ وكلّ ذلك يجري بصمت داخل جدران مكتبها.

لقد وصفت إحدى المجلّات والدتي مرّةً بأنّها مدمنة على الكتابة وأنّ عالم الواقع ليس كافياً بالنسبة إليها؛ ولذلك فهي تخترع عوالم جديدة تعيش فيها من خلال القصص.

وربّما كان بوسع والدي مرافقتها إلى تلك العوالم الجديدة لو اختار ذلك، ولكنّه لم يفعل.

أمّا أنا فلم يكن لي دور في كلّ ما يجري، ولم يسألني أحدٌ مرّةً عن رأيي.

ثمّ وجدت أمّي في رحلات القراءة متنفّساً مناسباً أيضاً. فكانت

تتنقّل خلال أسابيع طويلة بين ميونخ وهامبورغ وزوريخ وأمستردام لقراءة أجزاء من رواياتها، وتتصل بي هاتفيّاً من جميع تلك المدن. ثمّ درجنا، أبي وأنا، على تدوين أرقام هواتف الأماكن التي تنتقل إليها على قائمة تتجدّد دوماً، وتبقى على المنضدة.

كانت عاملة التنظيف تتحوّل إلى مدبّرة منزل في غياب أمّي، فتقضي النهار في منزلنا وتحضّر لنا الطعام.

وفي المدرسة، كنت أشعر أنّ الأساتذة يخصّونني بنظرات تنمّ عن الإعجاب لكوني ابنة والدتي، الكاتبة المشهورة. ومن ناحية علاقتي برفاقي، فكنت أجني بعض المال منهم لقاء إقناع أمّي بأن توقّع لهم على دفاترهم الخاصّة من أجل الذكرى.

كنت أشتاق إلى أمّي في الأمسيات؛ أشتاق إلى صوت خطواتها صعوداً ونزولاً على الدرج، وإلى رائحة عطرها التي تبقى وراءها كيفما مشت؛ وإلى صوتها وهي تتكلّم في الهاتف، أو تقرأ لنفسها بعض ما كتبته بصوتٍ مسموع. لم أكن أتمنى أن تلازم أمّي البيت دائماً، ولكنّي غالباً ما اعتصرت شوقاً إليها خلال غيابها.

مع مرور الزمن، أصبحنا أغنياء. فاشترى والديّ طاحونة المياه التاريخيّة والبناء الكبير الملحق بها، وما حولهما من مروجٍ خضراء تبلغ مساحتها عشرين ألف مترٍ مربّع، وهي بمثابة محميّة طبيعيّة فائقة الجمال. وقامت أمّي بعد ذلك بتكليف مهندس بارع ليقوم بترميم الطاحونة، وتحويل البناء إلى منزلٍ واسع وجميل وإضفاء أحدث التجهيزات إليه. ولكنّ أبي كان يفضّل شراء فيلّا في ضواحي مدينة برول، إلا أنّه لم يحصل على ما يريد. ولكنّه قام في وقتٍ لاحق بتوظيف سكرتيرة خاصّة لديه لتساعده في تنظيم أمور مكتبه.

twitter @baghdad_library

كانت جميلة ونحيلة واسمها آنجي. تعقص شعرها الأشقر على شكل ذيل حصان، وترتدي ثياباً قصيرة وضيّقة. وفيما انشغلت أمّي بمتابعة أعمال الترميم والبناء من كثب؛ إذ كانت تهرع إلى الورشة كلّما سنحت لها الفرصة، غرق أبي وآنجي في العمل حتّى أذنيهما.

أمّا أنا، فلم يكن لي موقعاً معيّناً ولا دوراً خاصّاً في كلّ ذلك. لم أكن أهتمّ بدراستي اهتماماً كافياً، وغالباً ما عانيت من الضجر. ولكنّي سرعان ما كبرت وبلغت الخامسة عشرة.

بعد مرور سنتين على شراء البيت، وضع والديّ نهاية لزواجهما واتفقا على الطلاق. وهكذا، لم ينتقل أبي إلى البيت الجديد معنا، بل بقي في البيت الأوّل مع آنجي التي كانت حامل بمولودٍ منه.

«لقد أتيتِ في الوقت المناسب. ما رأيك بفنجان قهوة؟ هل لديك الوقت لذلك؟»

«لست مستعجلة. سأبقى بقدر ما تريدين. لا أريد إزعاجك».

وضعت قلمها على الطاولة وقالت: «لا إزعاج. في الحقيقة، أتيتِ في الوقت المناسب. لم أستطع كتابة حرف واحد منذ حوالي ساعة، والحاسوب كما ترينه مقفل».

لم أقل شيئاً. كنت متعوّدة على مثل هذه الجمل التقليدية التّي لا تنتظر أمّي أيّ تعليق عليها. وبعد ثوانٍ، تركت كرسيّها واقتربت لتطبع قبلةً على خدّي.

عطرها مألوفٌ لديّ، مثل رنّة صوتها ودفء بشرتها. كاليبسو، هو الاسم الذي اختارته للعطر الخاصّ الذي لا تستعمل غيره منذ سنوات، والذي يذكّر بأجواء الصيف العطرة والمنعشة. يحضّر المصنع عطر كاليبسو لها وحدها، وبناءً على مزيجٍ تقرّره بنفسها.

العطر الخاصّ هو أحد مظاهر الترف القليلة التي خصّت بها نفسها، إلى جانب مجموعة الخواتم والعقود والأساور الثمينة والرائعة؛ إلا أنّها تفضّل عدم وضعها تفادياً لجذب الأنظار.

رفعت يدها ولمست شعرها قائلةً: «لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة؟ هل تلاحظين تغيّراً في مظهري؟»

«كلا. تبدين رائعة كالعادة».

أمسكت بيدي، وسارت معي إلى خارج الغرفة، وهي تقول: «وأنتِ أيضاً».

تلك كذبة فاضحة! ربّما لم تتنبّه إلى أنّها تخدعني، وتخدع ذاتها أيضاً لأنّها تودّ الاقتناع بأنّي جميلة مثلها.

ولكنّي لست كذلك، ولا أريد أن أكون غير ما أنا عليه. أحبّ شكلي وجمالي على تواضعه، ولا أطمح إلى تغييره مقابل أعلى مستويات الجمال في العالم. أنا من أنا، وقلّةٌ من الناس ينعمون بهذه القناعة.

نزلنا معاً إلى الطابق الأرضي ودخلنا إلى المطبخ. كانت أشعّة الشمس تضيء زواياه، وعلى أرضه الدافئة تمدّدت هرّتنا الثانية موللي ذات الوبر الأبيض والأسود على شكل مربّعات الشطرنج. موللي اسمٌ عاديٌّ ومملٌّ ولا يذكّر بشيء، ولا يعود إلى أحد؛ وكان من اختياري. اقتربت موللي لتحيّيني، وراحت تتمرّغ حول ساقي وهي تموء بسرور. ولكنّها سرعان ما اختفت وراء إدغار من باب الفناء المفتوح.

راقبت أمّي وهي تحضّر القهوة، فلاحظت أنّها باتت تشبه جدّتي قليلاً. ولكنّها سترفض بالطبع هذا الواقع لو صارحتها به، إذ تصرّ

twitter @baghdad_library

على أنّها وجدّتي متباعدتان في أوجه الشبه مثل تباعد النار والماء، ولا شيء يغيّر ذلك.

قلت لها بعد أن جلست فوق حافّة الطاولة: «ما وتيرة نشاطك في القصّة الجديدة؟»

«أظنّ أنّها ستكلّفني عدّة سنوات من حياتي». قالت، وهي تسكب القهوة، وتحضّر السكّر وطبق البسكويت وتحمل كلّ ذلك إلى الفناء الخارجي. كنت أُعجب بقدرة أمّي على التكلّم عن أمور مهمّة وغاية بالجدّيّة، وهي مستمرّة في عمل شيءٍ عاديّ وغاية في البساطة. ثمّ تابعت: «كنت أكتب بطريقة أفضل قبل أن تتركي البيت. أشتاق إلى روتين حياتنا في تلك الأيّام».

«إذاً لا تشتاقين إليّ أنا بالذات؟»

وشعرتُ بالندم حالما خرجت تلك الكلمات من فمي. وتساءلت في سرّي: «هل ما زلت حقّاً غاضبة لأنّي لا أشكّل جزءاً مهمّاً من حياة أمّي الكاتبة الشهيرة؟ هل ما زال يؤلمني أنّها لا تحتاجني في حياتها بشكلٍ أساسي؟ ألست بالنسبة إليها مجرّد ابنة ولا شيء أكثر من ذلك؟»

وسرعان ما استدركتُ: «لا أعني ما قلت، لا تأبهي لكلامي».

نظرت مليّاً إلى وجهي، وبدت متألّمة. ثمّ قالت: «ليتك تتخلّين عن هذه الحساسية المفرطة يا جِنّا».

لا تقذف أمّي بعباراتها جزافاً. إنّها تفكّر بكلّ حرفٍ تتلفّظ به عشرات المرّات. وكانت تعني ما تقول.

تركت نفسي أسترخي في الكرسي قبالة منظر المرج الفسيح وتنشّقت نفساً عميقاً. قد أشعر بالندم على تركي البيت لسبب وحيد،

وهو حرماني من رؤية هذا المنظر البديع. كنت أنظر إلى ذلك المرج المتموّج أمامي، وإلى الخراف التي ترعى العشب وإلى أشجار الفاكهة القديمة والمتلوّية التي ما زالت تقف هنا وهناك فوق العشب الأخضر المتجدّد دائماً، كأنّها منسيّة.

لم تفكّر أمّي بإجراء أيّ تغيير على هذا المرج، ولم تكلّف مهندساً زراعياً تحويله إلى حديقة منمّقة، فهي مثلي تقدّر جماله الطبيعي الساحر.

أغمضت عينيّ وأنصتُّ إلى خرير مياه الساقية، فازداد ارتياحي وشعرتُ بما يشبه النشوة.

ثمّ سألتها: «إلى أين ستذهبين في رحلة القراءة التالية؟»

«لم أرتبط سوى بموعدين للقراءة. لن أذهب في أيّ رحلة في المستقبل القريب. تعلمين أنّي أفضّل استغلال فصل الصيف في الكتابة».

كلّ شيء في حياة أمّي يدور حول الكتابة، حتى الفصول. ربّما أصبحت البقعة التي تحتلّها الكتابة في حياتها أكبر بعد انفصالها عن أبي. إنّها تسلّيها في وحدتها وتحميها من مشاعرها الصعبة.

نظرتُ إلى أمّي وفكّرت عن احتمال أن يكون مظهرها الهادئ مجرّد قناع تخفي وراءه معاناة صعبة؛ وحاولت تحسّس طاقتها النفسية في تلك اللحظة، فشعرت بالذبذبات الحيويّة التي تلفّ نفسها بها كالعادة، كلّما باشرت في تأليف قصّة جديدة، من أجل التقاط مجمل ما يدور حولها من أفكار ومشاعر وأحاسيس وأصوات وروائح. إلخ لذلك، فقد تكون حاضرة بجسدها، ولكنّها منشغلة بفكرها وهائمة في عوالم أخرى.

twitter @baghdad_library

وقالت: «غريبٌ أمري في هذه القصّة الجديدة. لقد انتهيت من كتابة الفصل الأوّل وما زلت أجهل مَن ستكون الشخصيّات الرئيسة!».

لم أنبس بكلمة بالطبع. أعرف أنّ أمّي لا تتوقّع سماع أي تعليق عندما تتكلّم على عملها؛ بل تكون كمن يفكّر بصوتٍ عالٍ، أو مثل من يتكلّم أمام المرآة.

وشربنا القهوة بصمت.

وسألتني: «ما سبب قدومك؟»

سؤالٌ مهمّ، ولكنّه لن يلقى جواباً؛ لأنّي ربّما كنت أعلم السبب عندما وصلت. أمّا في تلك اللحظة، فكنت قد نسيت.

* * *

وجدت الفتاة المقتولة في لجّة العشب الكثيف ممدّدة على ظهرها وعارية. ساقها اليمنى مطوية قليلاً، فيما اليسرى مفتوحة بشكلٍ مستقيم. ومن الواضح أنّ المجرم كان قد قصّ شعرها الذي بقيت منه خصلة منسية فوق كتفها. أمّا الخصلات الأخرى فكانت قد تطايرت مع الهواء في كلّ مكان. فالتفّ بعضها حول العشب، والتصق بعضها الآخر بجذوع الأشجار.

وعيناها مفتوحتان نحو السماء؛ فكأنّ آخر ما شعرت به تلك المسكينة قبل الموت هو المفاجأة.

أوّل مَن وجدها كان صبيٌّ في العاشرة من العمر وأخته. وكانا قد عصيا أمر والديهما بعدم اللعب في الغابة، فكان القصاص مرعباً بمشهدٍ لن ينسياه ما عاشوا.

راحا يركضان ويصرخان. واستمرّا بالصراخ وهما يقطعان المروج والحقول ويتسلّقان الأسوار ويتعثران، وما زالا يصرخان إلى

أن مرّا بمعمل حجارة حيث رآهما أحد العمّال فاستوقفهما واستمع إلى بعض ما استطاعا قوله بين الدموع والعبرات، فاتصل بالشرطة. في المخفر، قامت المساعدة بتحضير فنجانين من الحليب الدافئ والكاكاو للطفلين واتصلت بوالدتهما.

عُرف أنّ الجثّة تعود إلى فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. اغتُصبَت أوّلاً، ثمّ قتلت بطعنةٍ مباشرة في القلب، تبعتها ستّ طعناتٍ في أماكن مختلفة من جسدها.

كانت الضحيّة من بلدة هوهنكرشن (Hohenkirchen) قرب بلدة إيكرشايم (Eckersheim)، ولا تزال طالبة في المدرسة وتعيش مع والديها. وقد تعرّف أحد رجال الشرطة الذي زار مكان الجريمة إلى جثّتها. كان يعرف والديها، وأعلن استعداده لنقل الخبر المفجع.

انهارت الأم فوق مصطبة الباب بإزاء الخبر، فحملها زوجها إلى غرفة الجلوس، ووضعها فوق المقعد وجاء بغطاءٍ وضعه فوق ساقيها. ثمّ أمسك بكتف رجل الشرطة ودعاه إلى الداخل وقدّم له شراباً.

بعض الناس يتصرّف بمثل هذا الأسلوب الغريب بإزاء الصدمة. أخبرني أحد رجال الشرطة عن امرأةٍ كانت ردّة فعلها الأولى بإزاء علمها بموت زوجها جرّاء حادث سير، أن توجّهت إلى المطبخ وملأت صحناً من حساء الدجاج وأكلته، وكأنّها شعرت فجأةً بجوعٍ مزمن.

اسم الفتاة سيمونا ريدلف. ذهب معظم أهالي هوهنكرشن إلى دفنها؛ وقيل إنّ البلدة لم تشهد دفناً حاشداً كدفنها منذ سنوات.

شارك في الدفن جميع رفاق الفتاة المسكينة. وسالت الدموع بغزارة. لم تَرفع الفتيات المحارم البيضاء عن أفواههن طوال الوقت،

twitter @baghdad_library

ولم يتوقّف الشبّان عن مسح دموعهم بأطراف أكمامهم. كان قتلها فاجعة أليمة زادها العنف المرعب الذي رافقها قسوةً على قسوة.

غالباً ما تصل إلى مسامع الناس مثل هذه الأمور المخيفة آتيةً من بعيد. أمّا وقد حدثت في محيط البلدة نفسها، فمن أين يأتي الشعور بالأمان بعد هذه الساعة؟

نُشرت الأزهار الحزينة والشموع في أرجاء الكنيسة خلال القدّاس الجنائزي، وسُمعت أنغام بعض المقطوعات الموسيقية الشبابية التي كانت تحبّها سيمونا؛ وكلّ ذلك زاد الحزن مرارةً والحيرة لوعةً.

أمّا في الخارج فلا تزال أشعّة الشمس تلمع وكأنّ شيئاً لم يكن.

ولكن لا شيء كان سيبقى على ما هو عليه بعد تلك الحادثة.

قال المفتّش العامّ بيرت ملزيغ في قسم التفتيش المركزي في شرطة مدينة برول (سي. آي. دي.) عن حادثة مقتل الفتاة سيمونا ريدلف ذات الثامنة عشرة ربيعاً، على أنّها تشبه إلى حدٍّ كبير الجريمتين اللّتين حصلتا منذ عام مضى في بلدتي جيفر وأوريش في شمال البلاد، ولم تصل الشرطة إلى حلّ بشأنهما بعد. رفض ملزيغ الإدلاء بمزيد من التفاصيل فيما التحقيقات لا تزال ناشطة.

* * *

كان منهكاً من شدّة التعب، إلا أنّه لم ينم بعد؛ ومع أنّه كان يهوى أحياناً نصف الأحلام التي يراها بين اليقظة والنوم، كان يمقتها ويخافها في معظم الأحيان كما في تلك الساعة.

حاول جاهداً التفكير بأمرٍ آخر، إلا أنّه لم ينجح.

وكانت الصور تعود إليه كالكيد الذي ينقلب على فاعله.

ما زال طعم الإثارة تحت أسنانه. لم يعرف في حياته شعوراً يضاهيه لذّةً.

وتململ قائلاً في نفسه: «أوه! لماذا خذلتِني يا فتاة؟»

لأنّها من قرب لا تبدو مثل جنيّةٍ جميلة أبداً. كان صوتها رفيعاً وينمّ عن الخوف، مثل صوت العصفور المرتعد. هذه الأصوات الثاقبة تغضبه، فكأنّك تسمع الخوف صارخاً منها.

كان يكره التعرّق الناجم عن الخوف أيضاً.

ويداها كانتا تنزلقان من شدّة التعرّق.

لم يكن يؤمن بوجود الجنيّات بالطبع، خصوصاً أنّه لم يعد طفلاً. والجنيّات يتمتّعن بمستويات من القوّة غير مطلوبة بالنسبة إليه.

جنيّته يجب أن تشبه تلك التي كان ينظر إلى صورها في كتب الأطفال. جميلة، وشعرها ناعم ولامع.

ذات عينين واسعتين، ورموش طويلة.

لا تُرى التفاصيل من بعيد، بل من قرب. وعند ذلك يكون قد فات الأوان. كان يفتّش عن شيءٍ فيها لم يره من قبل، شيءٌ يفاجئه. فحتّى وجود شامة في موضعٍ غير مناسب يفسد الصورة.

رائحة الفتاة في جيفر كانت تدلّ على أنّها مدخنة. حتى أنّها قدّمت له سيجارة ذات مرّة؛ ابتسمت بإغراء ورفعت رأسها عالياً ونفخت الدخان في الهواء. لم تدرك أنّها وقّعت، في تلك اللحظة، على قرار موتها.

استدار في السرير مهمهماً وشعر بالاطمئنان لوجوده في هذه الغرفة عوضاً عن السكن في نزل المزرعة مع الآخرين. كانت الغرفة في هذا الخان الشعبي صغيرة وبشعة، إلا أنّ إيجارها رخيص وتؤمّن

twitter @baghdad_library

له فسحة من الحرية، على الرغم من حمامها الضيّق ووجودها تحت السطح مباشرةً، الأمر الذي يجعلها تخزّن حرارة الشمس حتى المساء.

الأهمّ من كلّ شيء هنا، هي قدرته على أن يحلم بأمان.

ليست أحلامه من النوع الذي يمكن إخفاؤه في غرفةٍ تضمّ عدداً من النزلاء. فهو غالباً لا يتحمّل بشاعة أحلامه فيصحو من النوم فجأةً مغمّساً بالعرق. كما لا يمكنه المغامرة بإعطاء الآخر الفرصة لسماع الكلمات التي تخرج من فمه وهو نائم.

كلا. هنا أفضل بكلّ تأكيد.

ولكن، ليته يستطيع النوم الآن!

إنّه بحاجة إلى النوم ليسترجع قواه؛ وليتمكّن في الغد من الاحتفاظ بالقناع الذي يلبسه أمام الناس. لا شكّ أنّ رجال الشرطة قدموا إلى المزرعة وطرحوا بعض الأسئلة على العمّال، ولا شكّ أنّهم سيعودوا إذا ما وضعوا أيديهم على بيّنة مقنعة.

استدار متمدّداً على ظهره، ويداه خلف رأسه.

لن يجدوا شيئاً.

لم يتمكّنوا من إيجاد أيّ شيء حتى الآن.

ابتسم في الظلمة؛

وبعد دقائق، غرق في النوم.

(2)

لن أتناول القهوة في الكافيتريا مع تلامذة صفّ الفيزياء بعد انتهاء الحصّة. «هل بتّ أفتّش عن متعة الحياة في غير الأمكنة الصحيحة؟»

لقد سئمت المدرسة. كنت سأنتهي من المرحلة الثانوية هذه السنة لو أنّ نتائجي كانت أفضل في السنة الماضية، ولم يترتّب عليّ إعادة بعض مواد السنة الحادية عشرة من جديد. سئمت رؤية اللّوح ورائحة الطباشير، والمفكّرة المدرسية وبرنامج الحصص وأوراق الامتحانات؛ والوجوه التي لا تتغيّر.

الحصص الصباحيّة مملّة وتمرّ ببطءٍ شديد. أكاد في بعض الأحيان أن أغطّ في النوم وأقع عن الكرسي.

معادلات، أرقام، أشعار، حقائق بديهيّة لا فائدة من التأكيد عليها.

ضجّة، تجمّعات في الملعب، هواء غير نقي.

لا أدري مَن هو ذلك المهندس المعماري الفاشل الذي صمّم بناء مدرستنا، فهو يبدو كأنّه لم يكن تلميذاً في حياته. مجمّع مرعب من زجاج وإسمنت، أقرب إلى مواصفات الفرن في الصيف؛ والثلاجة في الشتاء.

بعد أن أسرعت إلى الخروج، أضعت حوالي نصف ساعة من

twitter @baghdad_library

الوقت وسط الزحام الذي لم أجد له مبرّراً. وعندما أدرتُ مقود سيارتي الرينو أخيراً لأدخل في شارع لَسِّنغ، لم تسهّل لي البطاقة الخاصّة بسكان الحيّ عمليّة ركن السيّارة؛ فكان عليّ أن أدور حول الشارع مرّتين وأنا أستشيط غضباً، حتى حالفني الحظّ، وأخرج أحدهم سيارته من الموقف، فأدخلت سيارتي الصغيرة مكانها.

كان هناك مزيج غريب ومزعج من روائح الملفوف والقهوة والبايكون يملأ الدرج.

فخاطبت نفسي متمتمةً: «أنتِ اخترتِ هذه الحياة لنفسك».

في بيت الطاحونة، حرارة الغرف معتدلة دائماً. مبرّدة إلى درجة منعشة في الصيف ودافئة إلى درجة مريحة في الشتاء. لا وجود لدرجٍ خشبي قديم ومتآكل ولا لجدرانٍ تعرّت من طلائها، لا لدرّاجات في المدخل أو لعربات الأطفال أمام الأبواب، ولا لخربشات بشعة على الحيطان. لاحظت واحدةً جديدة منذ أيّام وضحكت لطرافتها، وهي تقول: «أيتها العذراء مريم المقدّسة؛ لقد حملت بطفلك من غير خطيئة، علمينا كيف نخطئ من غير أن نحمل».

كان أحدهم قد حاول مسحها ولكنّه لم ينجح. بالطبع سوف يُعاد طلي الجدران بعد مدّة معيّنة. وتعود الخربشات من جديد وهكذا دواليك.

«هل من أحد في البيت؟»

لم أسمع جواباً ولم أتوقّع أن أسمع أيّ شيء على كلّ حال. وضعت حقيبة كتبي في غرفتي ودخلت إلى الحمام. لاحظت أنّ غطاء المرحاض كان مرفوعاً قبل أن أجلس بلحظة.

كانت ميرلي تصطحب إلى الشقّة أشخاصاً يجدون أنّه من المذلّ

لهم إعادة غطاء كرسي الحمام إلى وضعه بعد الاستعمال. وبالنسبة إلى ذوقها في الرجال، فهو بلا شكّ رجعي؛ وعلى الرغم من كونها أكثر الفتيات اللواتي عرفتهن استقلاليّةً، فهي تفضّل الرجال الميالين إلى السيطرة. تقول إنّها ليست راضية عن ذوقها في ذلك، ولكنّها لا تملك القدرة على تغييره؛ ولكنّي متأكّدة أنّها لم تحاول بالقدر الكافي.

مؤخراً اتّضح لي أنّ ميرلي باتت تعرف السبيل إلى الاكتفاء برجلٍ واحد؛ ولكنّها ما تلبث أن تلتفّ عائدةً إلى خصالها القديمة في بعض المرّات.

كما في كلّ صباح، تختفي معالم مطبخنا وراء مظاهر الفوضى المستفحلة. من الصعب أن تنجح إحدانا في أيّ يوم من الاستيقاظ باكراً لكي تتمكّن بعد تناول وجبة الصباح من إعادة الأمور في المطبخ إلى نصابها. ولكن ما يغيظني هو أنّ رفيقتيّ في الشقّة تنتظران منّي تنظيف المطبخ وترتيبه لأنّي أوّل من يصل إلى البيت بعد انتهاء الدوام المدرسي.

بعد دوام المدرسة، تعمل ميرلي في مطعم بيتزا كلوديو وتقوم بتوصيل البيتزا إلى الزبائن، أو بالعمل في المطبخ بحسب ما تستدعي الحاجة. أمّا كارو، فإنّها تعاني مجدّداً من بعض المشكلات مع صديقها الذي يُدعى جيل، الأمر الذي جعلها شديدة الانشغال عنّا في هذه الأيّام.

كنت جائعة ومتعبة، ولكن ما أكرهه حقّاً هو تناول الطعام على طاولة ملأى بالصحون القذرة. ولذلك باشرت فوراً بالتنظيف.

تعدّ ميرلي لنفسها كلّ صباح طَبقاً من مزيج الفاكهة والحبوب،

twitter @baghdad_library

فتقوم بهرس موزة في الصحن، وبرش تفاحة وعصر نصف ليمونة. قمت بنزع بقايا التفاح الجافّة من المبرشة ورمي قشور الفاكهة، ثمّ نقعت المبرشة والمعصرة في الماء الساخن ليسهل تنظيفهما.

تناولت كارو هذا الصباح كوباً من الكاكاو الساخن مع قطعة من الخبز المحمّص وقطعة من اللحم المبرّد وبيضة مسلوقة. لا تزال بعض قشور البيض على الطاولة، وكميّة من فتات الخبز منثورةً على الأرض. لم تنتهِ كارو من شرب كلّ كميّة الكاكاو، فبرد ما بقي منه وتجعّد سطحه وبات شبيهاً بعنق جدّتي. ها إنّي أشعر فجأةً بالذنب لأنّي لم أزر جدّتي، ولم أتّصل بها هاتفيّاً منذ زمن طويل.

من جهتي، أفضّل تناول كوب من الشاي في الصباح مع قطعة من الخبز الفنلندي والجبن. ولكنّي أضعت خمس دقائق هذا الصباح في التفتيش عن كتابٍ كنت قد تركته في غير مكانه، فلم يبقَ لديّ الوقت الكافي لكي أعيد شرحات الجبن إلى البرّاد. وها هي قد جفّت أطرافها وتغيّر لونها ولم تعد صالحة حتّى للطبخ، فوضعتها في كيس النفايات.

ربّما كانت تلك المرّة المئة التي أشكر فيها ربّي على أنّنا توافقنا على شراء جلاية الصحون المستعملة التي ما لبثت أن ابتلعت جميع الصحون القذرة بعدما مسحتها قليلاً باسفنجة رطبة. لم يبقَ عليّ سوى مسح الطاولة، والأسطح المحيطة بحوض الجلي، فيصبح المكان مقبولاً للاستعمال البشري.

وما أن انتهيت من تحضير عجّة البيض بالفطر والبندورة، وكوباً من البابونج، وبدأت بالأكل، حتّى دخلت كارو إلى المطبخ.

«آها! ها قد بدأت الفئران تخرج من الثقوب؟»

نظرت إليّ كارو وكأنّها لم تفهم ما قصدت. فأضفت:

«يا للصدفة، لو أتيتِ قبل نصف دقيقة، لكان بوسعك مساعدتي في التنظيف».

تثاءبت وأدخلت أصابعها بين خصلات شعرها المتشابكة، ثمّ توجّهت نحو الثلاجة بخطوات متثاقلة، وأخرجت كوباً صغيراً من اللبن الرائب المحلّى والتقطت ملعقة ثمّ جلست إلى الطاولة.

كانت ترتدي تنورة سوداء قصيرة جدّاً وقميصاً قطنيّاً أسود من دون أكمام، وفوقه قميصها الفضفاض الرماديّ ذو الأكمام الطويلة الذي كنت أحبّ استعارته منها في بعض الأحيان.

«كان عندي زائر». قالت كارو.

«هذا يعني أنّك لم تذهبي اليوم إلى المدرسة».

غالباً ما تخلّفت كارو عن الذهاب إلى المدرسة في الآونة الأخيرة. فهي لا تستيقظ باكراً حيناً، أو تترك البيت ثمّ تقفل راجعة أحياناً. لا أصدّق كيف لم تصدر الإدارة قراراً بطردها حتّى الآن.

نظرت إليّ وتعابير وجهها تقول: «لا أحبّك عندما تتصرّفين وكأنّك أمّي». ثمّ عادت إلى تناول ما تبقّى من اللبن.

ثمّ عدت إلى قصّة الزائر. فقلت: «هل تتكلّمين عن أحدٍ أعرفه؟»

«كلا».

«هل أنتِ جديّة؟»

هزّت رأسها بالإيجاب.

«إذاً، هل انفصلت عن جيل مرّة أخرى؟»

twitter @baghdad_library

وفتحت الكتاب الذي كنت قد وضعته إلى جانب صحني. وفكّرت أنّها لو أرادت أن تتكلّم عمّا حدث بينهما، فسأسمعها، ولكنّي لن أصرّ عليها لكي تفعل. في الحقيقة، لست بحاجة إلى مزيد من الانزعاج اليوم. ستّ ساعات من عمري خسرتها في الحصص المدرسيّة المملّة اليوم. من يعوّض خسارتها عليّ؟

انشغلت كارو بتحضير القهوة في ماكينة الأكسبرسّو التي قدّمتها أمّي لنا عندما انتقلنا إلى هذه الشقّة، ثمّ سألتني إن كنت أريد شرب القهوة، فهززتُ رأسي نفياً، وأشرت إلى فنجان البابونج الذي أمامي.

عادت كارو وجلست. وفيما كانت تمدّ يدها اليسرى نحو وعاء السكّر، انحسر كمّ القميص بعض الشيء كاشفاً عن بقعة شديدة الاحمرار فوق ساعدها.

قلت: «كارو؟»

ولكنّها أسرعت وأنزلت كمّ القميص.

كانت كارو قد توقّفت عن إيذاء نفسها منذ فترة. متى عادت إلى هذه العادة السيئة، ولماذا؟

«هل تودّين التحدّث عن الموضوع؟»

«كلا».

«إلا أنّك لو أحببت. . »

«. سأتكلّم إليك وإلى ميرلي. أعدكِ».

غالباً ما وعدتنا كارو بذلك، لكنّها لا تفي بوعدها. لذلك اكتشفنا أنّ لا سبيل لدفعها إلى الكلام إلا بأسلوب المفاجأة، فتتكلّم قبل أن تفكّر وتعود إلى المقاومة والغموض. لم نصب الهدف كلّما اعتمدنا هذه الطريقة مع كارو، ولكنّنا فعلنا في معظم الأحيان. وهكذا كنّا،

ميرلي وأنا، نحصل على معلومات قليلة ومتفرّقة عن كارو في كلّ مرّة ونجمعها معاً لكي يصبح لدينا صورة شبه متكاملة عنها.

ما زال والدا كارو يعيشان تحت سقفٍ واحد، إلا أنهما لا يعيشان كزوجين ولا كصديقين، بل كعدوّين. تركت كارو وأخوتها البيت ولم يبقَ فيه من الأولاد سوى الأخ الأصغر «كال».

تعوّد والدها ضرب أمّها؛ وأمّها ضرب الأولاد؛ والأولاد ضرب رفاقهم. وهكذا عاشت العائلة في هذه الحلقة المفرغة من العنف على الدوام. أمّا كارو فلم تتعوّد إيذاء الغير، بل إيذاء نفسها.

«أتمنّى أن أقع في الحبّ». قالت كارو وكأنّها تحلم.

«إنّك دائماً تقعين في الحبّ». أجبتها.

إنّها دائماً تتيّم بكلّ صديقٍ جديد تتعرّف إليه، ولكنّها لا تستمرّ في علاقتها به فترةً طويلة؛ إذ سرعان ما تتعرّف إلى غيره وتتركه.

«أعني حالة حبّ حقيقيّة». ثمّ التقطت قطعة من السكر ووضعتها في فمها وتابعت بابتسام: «حبّ حقيقي يجمعني بحبيبي إلى الأبد، ولا ينتهي سوى بالموت. أتفهمين ما أعني؟» وضحكت، ثمّ أخذت حبّة سكّر أخرى وقضمتها بأسنانها. كارو نحيلة جدّاً ويمكنها أن تأكل ما يحلو لها من السكّر فلا خوف عليها من السّمنة. ولكنّها لا تأكل وجبات كاملة، بل تنقر غذاءها كما ينقر العصفور الحَبّ.

«تبحثين عن الاستقرار؟» تابعت شرب الشاي الذي لا سكّر فيه، فكأنّه ماء ساخن فوق أعشابٍ يابسة.

«الاستقرار؟ ربّما يبدو ذلك غريباً. ولكن نعم، أبحث عن الاستقرار. هل لديك اعتراض؟» ونظرت إليّ بتحدٍّ.

«إن قال لي أحدهم إنّك أصبحت لاعبة جمباز شهيرة وتقفزين

twitter @baghdad_library

على الحبال العالية في سيرك 'كرونا'، فسأصدّقه قبل أن أصدّق أنّك جديّة في حكاية الاستقرار هذه».

«بالطبع لن أتعاون في حياتي مع سيرك رأسمالي مثل الذي ذكرت. وحتى لو فعلت، فلن أكون لاعبة جمباز أو أيّ شيء آخر، بل بهلوان».

نظرت إلى كارو وإلى عينيها الواسعتين وشعرها القصير؛ لن تضطر إلى تغيير مظهرها كثيراً إذا أرادت لعب دور البهلوان.

وتساءلت في نفسي عن السبب الذي يدفعها مجدّداً إلى إيذاء جسدها.

فقلت: «لنعد إلى الموضوع الأساسي. ماذا عن جيل؟»

وضعت كارو علبة اللبن الفارغة على الطاولة، ثمّ أزاحتها بإصبعها فانقلبت، وتدحرجت الملعقة على الأرض بطقطقة كبيرة. «ماذا عنه؟»

«هل تريدين الاستقرار معه؟»

هزّت برأسها. «انفصلنا في الأسبوع الماضي».

«وفي الحال، وجدتِ الذي حلّ مكانه».

فقالت بغضب: «وما الخطأ في ذلك؟ هل كان عليّ أن ألبس ثوب الحداد، وأطلي نفسي بالرماد إلى الأبد؟»

لا أحبّ أن أجد نفسي مضطرّة إلى لعب دور الواعظ في قواعد الأخلاق.

فقلت: «أنا لا ألومك على شيء».

«أنت اللوم ذاته. أنظري إلى نفسك». وقذفت علبة اللبن الفارغة

بيدها فتدحرجت طويلاً على الأرض ولم تتوقّف سوى بعد اصطدامها بكتلة كبيرة من الغبار الهائمة بين زوايا المطبخ.

«يستحقّ جيل أن تعطيه فرصة إضافيّة».

«أعطيته أكثر من فرصة». ووقفت كارو لتحضّر فنجاناً آخر من القهوة.

أزحتُ طبق البيض من أمامي، لأنّه بات بارداً ومقزّزاً، وكذلك فعلت بالنسبة إلى فنجان البابونج الذي انعدم طعمه كليّاً بعد أن انخفضت حرارته. ثمّ داعبت رائحة القهوة أنفي، فقلت: «هل تعدّين فنجان قهوة لي أيضاً. . ؟ رجاءً!»

وضعت كارو فنجان القهوة أمامي بنزق. ثمّ قالت: «لماذا تفكّرين بأنّي ظلمت جيل؟»

«لأنّك تعيشين في هاجس الحبّ الكبير المثالي الذي لا وجود له، إلى درجة جعلتك لا ترين الحبّ الذي كان واقفاً أمامك في الحقيقة».

«وكأنّ الحبّ يستطيع الوقوف أمام أحد. .». قالت بابتسامة ساخرة.

لم أجب. ورحت أشرب قهوتي. تتقن كارو السخرية الباردة في كثير من الأحيان. أمّا الملامح الإيجابية لشخصيّتها، كالدفء، والحنان والعطف، فكانت غائبة في تلك اللحظة.

تعوّدنا، ميرلي وأنا، الصبر في انتظار أن تتبلور الصفات الحسنة المدفونة في أعماق شخصيّة كارو، وتتغلّب على غيرها مع الوقت.

وسألت كارو عن رأيها بمرافقتي إلى وكالة السفر كالعادة لنتسلّى بالنظر إلى الإعلانات والصور التي تنشرها وكالات السفر عن رحلات

twitter @baghdad_library

إلى كافّة أصقاع الأرض. وكنّا نمنّي النفس بالذهاب إلى تلك الأماكن عندما يصبح لدينا المال الكافي لذلك.

استغربت ميرلي وكارو في البداية أنّي لست عائمة في المال كما كانتا تعتقدان، لأنّي ابنة الكاتبة الشهيرة إيمكي ثالهيم (كانت أمّي توقّع كتبها بلقب عائلتها قبل الزواج ولا تضيف إليه اسم أبي وخصوصاً بعد طلاقهما.) أمّا رفيقتاي فاكتشفتا لاحقاً الحقيقة وهي أنّ كبريائي لا يسمح لي بأن أطلب من والديّ مالاً أكثر من الحدّ الضروري الكافي لمصاريفي البسيطة.

في الطريق نحو وكالة السفر، شبكت كارو ذراعها بذراعي. كنّا نشارف على العطلة الصيفية، آخر عطلة صيف قبل تخرّجنا من المدرسة في السنة القادمة.

«لنفترض أنّك تطرحين على والدتك هذا الأمر، مثلاً؟» نظرت كارو إليّ ورأت تعبير وجهي، فتذكّرت موقفي من الموضوع وسارعت إلى سحب السؤال. ولكنّها عادت وأكملت بدعابة: «يمكنك المحاولة بطرح السؤال عليها، لا أكثر. المرأة المسكينة لا تعلم ماذا تفعل بالمال الذي يتدفّق عليها. أليس كذلك؟»

فقلت بعد أن توقّفت عن المشي: «كارو، اعذريني، لقد نسيت كم أنتِ عطوفة وتفكرين بالغير. إنّك تخافين على أمّي ولا تريدين سوى مساعدتها على التخلّص من مالها، أليس كذلك؟»

هزّت كارو رأسها إيجاباً، وقالت: «لا أطيق أن أرى أحداً يتعذب».

نظرنا نحن الاثنتين إلى بعضنا، وكرّت منّا ضحكات عالية.

* * *

الأيّام تمرّ على قاطف الفراولة برتابة؛ كلّها متشابهة. ولكن الرتابة تؤمّن له شعوراً بالاستقرار يساعده على تهدئة فورانه ولو إلى حين.

تلك الرغبة التي تقضّ مضجعه كانت أشبه بالوحش الذي لا يشبع.

ولكنّه، يجد عوالم تتوازى مع عالمه عندما يستعرض في فكره بعض الأفلام السينمائية التي كان قد شاهدها، مثل **الدكتور جيكل والسيد هايد**؛ **نوسفراتو**؛ **فرينزي**؛ أحد أفلام **دراكولا صمت الخراف**؛ **ليل الرجل الذئب**. إلخ.

بعد مشاهدة كلّ من تلك الأفلام، كان يشعر بأنّ هناك من يفهمه، ويفهم رغباته وأفعاله. وظلّ لفترةٍ طويلة يشعر برغبة قويّة في التعرّف إلى منتجي هؤلاء الأفلام ومخرجيها، أو إلى أحد الممثلين على الأقلّ؛ إلى أن شاهد مرّة فيلماً وثائقيّاً عن ألفرد هيتشكوك، وسمع ذلك الرجل السمين المخبول يقول أشياء خيّبت آماله.

وماذا كان سيقول للمخرج كلوس كنسكي لو أتيحت له فرصة مقابلته؟ هذا الرجل المصاب بجنون العظمة والذي تحوّل لاحقاً إلى إنتاج أفلام تافهة ليرضي رغبات الناس.

ولكنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء المخرجين كان يعرفه شخصيّاً. فعلى الرغم من أنّهم لم يقابلوه وجهاً لوجه، فقد دخلوا في أفلامهم إلى عمق أعماقه، وعرفوا أظلم أسراره، ونبشوا مخاوفه وآماله المدفونة، وعرضوها على الشاشات.

السينما الحديثة لا تستهويه، بل يميل إلى القديم منها. ولكنّه شديد التحفّظ حول الأفلام التي يختارها؛ وهو فخور بالمجموعة التي

twitter @baghdad_library

يملكها على الأقراص المدمجة. كما إنّه ضنين بمجموعة الكتب التي استحوذ عليها، والتي تضم كتاب دوستويفسكي (Dostoevsky) **الجريمة والعقاب**، وكتاب ماري شيللي (Mary Shelley) **فرانكنشتاين**، وكتاب باتريك سوسكند (Patrick Süskind) **العطر**، وكتاب عاكف بيرينسشي (Akif Pirinçci) **فاليدي**.

لا يملك الجهاز الخاصّ بتشغيل الأقراص المدمجة ورؤية الأفلام المسجّلة عليها. ولكنّه، وعلى الرّغم من ذلك، اشترى الأقراص واحتفظ بها. إنّها تعطيه شعوراً بالثقة، ويشعر بأنّها تخصّه.

وهو يكره المادّة الإباحية إن في الكتب، أو في أفلام الفحش التي تُدعى **بورنو**، لِما تترك لديه من إحساس مقيت بالفراغ النفسي.

كُتبٌ حسنة مقابل كتب سيئة؛ أناس أخلاقيّون مقابل أناس منحطّين. أمّا الفضل في قدرته على التمييز بين الجنّة والنار، وبين الله والشيطان فيعود إلى أمّه. أمّه وسنوات غيابها عنه، وطفولته الصعبة التي تكفّلت بتعليمه كلّ شيء. إلى أن أصبح قادراً على التعرّف إلى الوجوه الشيطانية ولو من خلال مئة قناع.

لا يشبهه من الناس سوى قلّة. وهؤلاء هم في معظم الأحيان فنانون. يؤلّفون الكتب ويرسمون لوحات ويصنعون أفلاماً سينمائيّة.

وكان معجباً بهم من بُعد.

من مسافة لا تتخطّى الحذر.

إنّهم يشبهونه رغم الاختلاف بينه وبينهم؛ فهم من دائرة أرقى من دائرته. لم يتخيّل يوماً أنّ لديه الشجاعة الكافية للاقتراب منهم.

وحسناً فعل تحسّباً لخيبات الأمل المحتملة؛ خيبات مثل التي شعر بها تجاه هيتشكوك وكلوس كِنسكي.

عدم الاقتراب منهم يعني بالنسبة إليه، وقد يدعو ذلك إلى التعجّب، قدرته على استبقائهم إلى جانبه. لا يريد أن يسمح بإفساد صورة هؤلاء الناس في مخيّلته.

هم مثله، يتحكّم بهم هوسٌ أعمى.

لا شكّ أنّ جميعهم اختبر تلك الأحلام الحمراء التي يصعب الاستيقاظ منها. ويعرفون الأفكار المشتعلة التي تحرق الدماغ.

يظهر ذلك واضحاً في لوحاتهم وكتبهم وأفلامهم. فكلّها مخيفة.

إنّه يرى نفسه في كلّ ذلك، كمن يرى نفسه في المرآة مئات المرّات. كأنّك في قاعة المرايا، عندما ترى الصورة المخيفة، التي تعرفها عن نفسك، منعكسة أمامك مئات المرّات إلى ما لا نهاية.

وشعر بالجوع. كان ينسى أمر الطعام، إلى أن تتلوّى معدته فيتذكّر. ونظر إلى ساعته فوجد أنّ الوقت يقارب التاسعة. عندئذٍ، فكّر بالذهاب إلى القهوة الصغيرة في القرية، لأنّه لا يشعر برغبة القيام بتحضير أيّ شيء بنفسه.

كان يحبّ الطبخ وهو ماهر في فنّ الطهي إلى حدٍّ ما (بقدر ما كانت تسمح به الأدوات البدائيّة الموجودة لديه في تلك الغرفة.) لو كانت لديه القدرة على الاستقرار في مكانٍ واحد، لتعلّم فن الطبخ ومارس المهنة على متن السفن في البحار.

لو استطاع فعل ذلك لتغيّر مجرى حياته كليّاً. ربّما مساحة الماء الشاسعة كانت ستنفّس عنه الشعور الدائم بالتوتّر. ربّما كانت ستلطّف مزاجه، وكان سيتحوّل إلى إنسان صالح.

ولكنّه مدركٌ في أعماقه أنّ كلّ تلك الافتراضات ليست صادقة، بل أساليب يخترعها ليبرّر نفسه أمام نفسه. هو من هو بالضبط. لن

twitter @baghdad_library

ينجح بالهروب من واقعه مهما حاول ذلك. لقد خاض معارك عديدة ضدّ ذاته، وخسرها جميعاً.

خرج من الباب، وهبط الدرج من دون أن يلتقي بأحدٍ من النزلاء. لكنّه سمع بعض الأصوات الاعتيادية تخرج من الأبواب. معظم نزلاء هذا المكان هم من العمّال الموسميّين، أو من مندوبي الشركات الذين يقضون أمسياتهم أمام أجهزة التلفاز. يعيشون حياتهم بعيداً عن عائلاتهم، ويقضون أيامهم في التنقّل الدائم، وتنتهي حياتهم فجأةً في غفلة الترحال. مثل هؤلاء لا يتمتّعون بحياة زوجية طويلة الأمد؛ وحتى لو استطاعوا المحافظة على زواجهم، يكبر أولادهم وهم في غيابٍ دائم أو متكرّر عنهم.

ورقة مغلّفة بغشاء بلاستيكي شفاف معلّقة على الحائط بقرب الباب الخارجي تحمل عرضاً لقوانين المبنى. اللهجة التي كُتبت بها كانت دوماً تثير غضبه.

يجب التقيّد بإغلاق هذا الباب بعد الثامنة مساءً.

ممنوع التدخين خارج الغرف منعاً باتّاً.

يجب عدم رفع صوت التلفاز أو صوت الراديو إلى أعلى من الحدّ المعقول.

وغير ذلك، وغيره.

كلام يعكس بأسلوبه شخصية مالكة المبنى. امرأة في منتصف الأربعينيات صوتها عالٍ، حادّة النبرة، خطّت الحياة القاسية التي تعيشها مع زوجها المدمن على الكحول تجاعيد مبكرة على وجهها؛ كأنّها تشعر أنّ مجمل المسؤوليات تقع على عاتقها فلا تتوانى عن

التدخّل في كلّ صغيرة وكبيرة. شفتاها الرقيقتان تنعقفان إلى أسفل عند الأطراف ولا يجد الابتسام طريقه إلى محيّاها سوى نادراً؛ وإذا ما ضحكت، فرنّات ضحكتها الغريبة مقتضبة وجافّة. اخترقت نتانة العرق المتكدّس نسيج ثيابها واختلطت برائحة عطرها الرخيص.

فكّر في نزع تلك الورقة عن الحائط، ولكنّه يخاف من أن تتلوّث يداه بهذا الخطّ المقيت.

الحرارة في الخارج مرتفعة كما كانت في الغرفة. سوف يضطرّ إلى تشغيل المروحة طوال الليل، حتى لو أزعجه صوت دورانها ومنعه من الاستغراق في النوم.

لعلّه من الأفضل أن يذهب إلى مكانٍ ما عوضاً عن الجلوس في القهوة أو العودة إلى غرفته. ربّما من الأفضل له الذهاب إلى بلدة كالم المجاورة، أو إلى برول.

ثمّ قرّر الذهاب إلى برول. هناك سيتناول العشاء ويتسلّى برؤية المارّة والمتنزّهين. وقد يتمشى هو أيضاً في الحدائق حول القصر القديم، أو على شاطئ إحدى البحيرات.

دخلِ إلى سيّارته وأدار المحرّك. وفكّر في المصاعب المالية التي يمرّ بها. ولكنّه لن يتخلّى مطلقاً عن سيّارته لأنّها تسمح له بحريّة التنقّل أينما يريد. فتح النافذة، على الرغم من تعارض ذلك مع عمليّة تشغيل المكيّف، وتنشّق بعمق رائحة الفراولة العطرة الآتية مع الهواء.

قد لا يكون الفرح صعب المنال دائماً!

ثمّ أدار زرّ الراديو، وسمع المطربة المبدعة تينا تورنر (Tina Turner) تغنّي، فراح يغنّي معها ويدقّ بأصابعه على المقود.

وحتى النسيان فقد يكون ممكناً أحياناً.

twitter @baghdad_library

(3)

تتابع الشرطة تحقيقاتها مستندة إلى عدد كبير من الدلائل التي قد تؤدّي إلى الكشف عن هويّة قاتل سيمونا ريدلف.

ليس هناك من خيوط قويّة حتى الآن؛ ولكنّ الشرطة أعلنت عن جائزة قدرها خمسة آلاف يورو إلى من يعطي معلومات تفيد إلى معرفة الجاني.

تحدث المفتّش العام في الشرطة بيرت ملزيغ قائلاً إنّه متفائل بشأن إمكانيّة التوصّل إلى معرفة الجاني؛ وأكّد أنّه لا بدّ من هفوةٍ ارتكبها المجرم، إذ لا سبيل إلى إخفاء الجريمة كليّاً.

ويبدو أنّه يوجد سمات مشتركة بين هذه الجريمة وجريمتي القتل اللّتين حدثتا في شمال البلاد في العام المنصرم (انظر التقرير). ففي الحالات الثلاث، عمد القاتل إلى قصّ شعر الضحيّة وإلى نزع العقد عن عنقها. قال ملزيغ إنّ المجرمين قد يحتفظون بمثل هذه الأشياء لتلبية ميول جنسية انحرافية.

* * *

أزاح ملزيغ الجريدة من أمامه متمتماً: «أكاذيب مقرفة!»

وسكب لنفسه فنجاناً آخر من القهوة وتوجّه إلى الحديقة. ولكنّه، وبعد أن استرخى جلس ووضع فنجانه على الطاولة، شعر أنّه بحاجة

إلى النهوض مجدّداً، لكنّه عاد وتراجع عن ذلك بعدما تذكّر ما قاله طبيبه وصديقه المفضّل، وشريكه في لعب التنس إلياس: «إنّه معرّض لذبحةٍ صدرية وعليه الاعتناء بصحّته».

كان إلياس يذكّر صاحبه بوجوب الاعتناء بنفسه كلّما سنحت الفرصة لذلك وفي معرض الأحاديث العاديّة؛ ويبدو أنّ أسلوبه هذا قد نجح في إقناع ملزيغ بضرورة الحذر.

غالباً ما كان ملزيغ يجيب: «لكلّ ميتةٍ سبب وكلّنا محكومون بالموت في يومٍ من الأيّام».

فيجيبه إلياس وهكذا هي الحال دوماً مع إلياس، فالكلمة الأخيرة في كلّ نقاش يجب أن تخرج من فمه.

«أنت على حقّ. ولكن بعض الناس يعيش طويلاً وبعضهم لا».

رشف بيرت قهوته. لقد ذهبت زوجته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع الأولاد إلى بيت والديها مؤكّدةً أنّها بحاجة للابتعاد قليلاً عن رتابة الحياة اليومية وجوّ البيت. من جهته، كان بحاجة إلى الهدوء من أجل الانصراف إلى التفكير، لذلك قرّر الاثنان قضاء عطلة نهاية الأسبوع منفصلين.

«التفكير!» قالها بيرت وتلوّت شفتاه امتعاضاً. كان ينوي إنجاز الكثير. ولكنّه، ومباشرةً بعد ذهاب مارغو والأولاد البارحة، فتح لنفسه زجاجة من النبيذ الأحمر وشربها، ثمّ ألحقها بزجاجة ثانية، وهكذا انتهى الأمر بالنسبة إلى أي إمكانيّة على التركيز أو التفكير.

والآن ما قرأه في هذه الجريدة العتيدة زاد على الصداع الذي يشعر به منذ الصباح صداعاً من نوعٍ آخر.

وتمتم بغضب: «هذه الصحافة السخيفة، إنها لعنة هذا العصر!»

twitter @baghdad_library

منذ طفولته، تعوّد أن يفكّر بصوتٍ عالٍ، ويشعر أنّ الأفكار تصبح أكثر وضوحاً عندما يعبّر عنها بالكلمات.

«أهكذا يكافئني هؤلاء الصحفيّون على الرغم من اهتمامي بالإجابة عن أسئلتهم؟ أقلّ ما أنتظره منهم أن ينقلوا كلامي بدقّة، ومن دون تغيير. هل ما أنتظره منهم كثيراً؟»

من المستحيل أن أكون قد قلت لهؤلاء أنّ لا وجود للجريمة التي لا تُكشف. فكم من جرائم القتل والخطف والاغتصاب لم تجد حلولاً على الرغم من مرور الزمن.

كما إنّي لم أقل لهم أنّه ليس لدينا فرضيّة قويّة حتّى الآن، مع أنّ ذلك صحيحٌ مع الأسف.

ينسبون إليّ أقوالاً لم أقلها. أعلم أنّ الصحافة الحكيمة، والتي تهتمّ حقّاً بدقّة المعلومات التي تنشرها، باتت نادرة هذه الأيام ولكن كيف أتعاطى مع هذا الواقع؟

وتابع مفكراً: القول إنّه لا وجود حتى الآن لدلائل قويّة، سيساهم في تشجيع الناس على الالتزام بالفكرة المسبقة التي لديهم عن رجال الشرطة؛ ألا وهي أنّ هؤلاء هم جماعة من البلهاء العاجزين عن كشف خيوط أي جريمة.

ولكن إذا أردنا النظر إلى الناحية الإيجابية الوحيدة في هذا التقرير فهي تكمن في التالي: عندما يقرأ المجرم أنّ الشرطة لم تكتشف أيّ دلائل بعد، فقد يخفّف من حذره ويقترف بعض الأخطاء.

أمّا الكلام عن موضوع قصّ الشعر وسرقة العقد فإنّه مصيبة. إذ من شأنه تنبيه المجرم إلى تضليل التحقيق في الجرائم المقبلة التي قد يرتكبها.

وفجأةً رنّ جرس الهاتف المحمول الذي يبقى مفتوحاً وعلى استعداد لتلقّي المخابرات الطارئة في أيّ وقت، حتى في عطلة نهاية الأسبوع.

وبنظرةٍ إلى الشاشة، قرأ رقم رئيسه. «أوه! الآن أيضاً».

«ملزيغ يتكلّم».

«ما هذا الذي كتبته الصحف هذا الصباح يا ملزيغ؟»

يكره بيرت أن يشرع طالب المكالمة في الحديث قبل التعريف عن نفسه، متوقّعاً من الطرف الآخر التعرّف إليه من صوته. وكان على وشك التظاهر بأنّه لم يتعرّف إلى المتحدّث، لكنه لم يفعل. كما أنّه أمسك نفسه عن الكلمات التي كادت أن تخرج من فمه: «إن كنتَ أنتَ لا تعرف معنى الذي قرأته، من يعرف إذاً؟»

وعوضاً عن ذلك أجاب بالقول: «لا فكرة لديّ من أين أتوا بكلّ ذلك».

«ولكن، لا بدّ أنّ أحداً قد..»

«أؤكّد لك أنّ لا أحد من مجموعتي قد أفصح بشيء».

«لا أشكّ في ذلك؛ ولكنّي أريد منك أن تعرف من أين استقوا هذه المعلومات».

قال جملته الأخيرة بنبرة هادئة. إنّها العادة المشهورة عنه؛ يفور ويغضب بسرعة، وجرّاء أمورٍ تافهة أحياناً، ثمّ يستعيد هدوءه بعد ثوانٍ.

«أقدّر أنّ من سرّب هذه المعلومات هم زملاؤنا في الشمال. أو ربّما أقرباء الضحية وأفراد عائلتها. ولكنّك تعلم أنّنا فرضنا على أفراد العائلة رقابة مشدّدة».

twitter @baghdad_library

كان يتخيّل رئيسه وهو يهزّ برأسه على الطرف الآخر من الخطّ. ويتخيّل تجعّدات رقبته تدخل تحت قبّة قميصه وتخرج مع كلّ حركة. هذا إذا كان الرئيس يرتدي قميصاً رسميّاً صباح يوم السبت أيضاً.

كان كافياً ما يعرفانه عن بعضهما في نطاق العمل، أمّا في ما يتعلّق بالحياة الشخصيّة لكلّ منهما، فلا داعٍ لتخطّي تلك العتبة.

«عموماً، كيف حالك يا ملزيغ؟»

«بخير، سيّدي، الحمدلله».

وفكّر ملزيغ: غريب كيف نتواصل مع بعضنا ونتبادل العبارات نفسها وكأنّها ثابتة لا يمكن تغييرها. هل كنت سأقول له إنّي لست بخير لو كان الأمر كذلك؟

«سأراك يوم الاثنين يا ملزيغ، وهيّا، نريد تقدّماً في هذه القضيّة».

وتكلّم ملزيغ إلى نفسه بعد انتهاء المخابرة «كم يبدو الكلام سهلاً وكأنّ القضيّة في غاية البساطة!»

بكلّ تأكيد، سوف يسأل عائلة الفقيدة عن الأقوال التي صرّحوا بها للصحافة. ثمّ عليه التحرّي لمعرفة كيف علم الصحفيّون أنّه في الجرائم التي وقعت في الشمال، قام المجرم أيضاً بنزع العقد عن رقبة الضحيّة.

لا يعتقد بيرت أنّ الشرطة في الشمال تدلي بالتصريحات كيفما اتّفق ولكن، لا بدّ من وجود بعض مسرّبي المعلومات في كلّ مكان.

كان الهواء بارداً صباح الاثنين. اندفع بيرت إلى خارج البيت مقوّساً كتفيه، ومغطّياً صدره بذراعيه ونصب عينيه فكرةٌ واحدة: هناك، في مكانٍ ما، مجرمٌ طليق يجب إلقاء القبض عليه.

ولكنّه عوضاً عن الشعور بالحماسة بإزاء الفكرة، أحسّ بالإحباط.

* * *

استيقظت كارو من نومها ولم تجده إلى جانبها. لا بدّ أنّه غادر الشقّة في منتصف اللّيل بصمت، كأنّه شبح.

يصرّ على عدم التعرّف إلى جنّا أو ميرلي؛ لم يحن الوقت، بحسب قوله. كما يصرّ على الشيء نفسه بالنسبة إلى عائلة كارو، مع أنّ هذه الأخيرة لم ولن يخطر ببالها مطلقاً تقديمه إلى عائلتها.

ولكنّ صديقتيها ميرلي وجنّا فأمرهما مختلف. فعلى الرغم من إعراضها عن الوثوق بأيّ كان منذ زمنٍ طويل، إلا أنّها كانت تسير نحو الوثوق بهما ولو بخطوات متردّدة.

لا يريد مقابلة الفتاتين الآن. ربّما سيفعل ذلك لاحقاً بحسب قوله. على العموم، لقد أكّد لكارو بالكلام الواضح إنّه لا يريد التعرّف إلى أيّ إنسان يخصّها في الوقت الحاضر.

وتقبّلت شرطه هذا رغماً عنها. فكلّ شيء كان أسهل عليها من خسارته.

حتى عندما دخل من باب الشقّة لأوّل مرّة، كان ينظر حوله بحذرٍ شديد على الرغم من تأكيدات كارو له بعدم وجود أحد.

ذكّرتها تحرّكاته الغريبة بحيوانٍ على وشك الوثوب. كأنّه فهدٌ أو أسد. جميل، قوي، ومتوحّش.

لم يتقابلا منذ زمنٍ طويل. وقليلاً ما التقيا منذ تعارفهما؛ فوَقْته ضيّقٌ في معظم الأحيان.

twitter @baghdad_library

لم تقع كارو في عشق رجلٍ من أوّل نظرة كما فعلت هذه المرّة. كانت تظنّ أنّ مثل هذا الأمر يحدث في القصص فحسب. ففي النظر إلى عينيه تقرأ عن جوعٍ إلى الحياة. ما زال وحشيّاً، كأنّ الأيّام لم تنجح في ترويضه بعد.

شعرت كارو أنّ استهتاره بالقيود الاجتماعية كان معدياً، فهي تقتبس منه شيئاً جديداً كلّما التقته. أليس الدليل القاطع على الحبّ الحقيقي هو أن يغيّر الحبّ صاحبه ويفتح أمام عينيه آفاقاً أوسع؟

أدارت كارو عينيها حول الغرفة، فأحسّت بها أكثر اتساعاً. ربّما السبب هو شعورها بالفراغ بعد ذهابه. كان بإمكانه أن ينذرها بعزمه على الذهاب بأيّ طريقة؛ بلمسة أو قبلة؛ لم تكن بحاجة إلى أكثر من ذلك.

ولكنّ ذلك هو أسلوبه في الرحيل. كان يختفي فجأةً «آبرا كادابرا!» كأنّه ساحر. على كلّ حال، إنّه يشبه إلى حدٍّ ما الساحر المعروف دايفيد كوبرفيلد.

كان يمكن، لمن يراه، الظنّ أنّه الأخ التوأم لكوبرفيلد؛ لكنّ بنية صديق كارو أقوى، وتدلّ على أنّ عمله اليومي عضلّي وشاقّ.

لا يستحوذ على قلب كارو مَن كان لطيفاً ودمث الأخلاق من الرجال. قد يسعدها لقاءهما حول فنجان قهوة، أو الذهاب إلى السينما معاً، أو تناول قطعة من البيتزا في مكانٍ ما. أمّا قلبها فكان موصداً دونهم برغم محاولاتها العديدة إقناع نفسها بأنّ الشابّ الهادئ والمهذب هو من يؤمّن لها الحياة المستقرّة والكريمة التي تحتاجها.

ولكنّه سيُشعرها بالملل.

أسوأ من أيّ شيء: الملل.

لقد اختبرت ذلك خلال علاقتها بمارفن. الشاب الذي جاء السنة الماضية من أميركا مع البعثة الطلابية. كانت نظراته رقيقة، ولكنّك تخاله دائماً في حالة تعجّب. استمرّت العلاقة فترةً من الزمن، ولكن ما لبثت كارو أن تنبّهت إلى أنّها باتت تفكّر بشبّان آخرين خلال تبادلهما القبلات.

لا يمكنها أن تنسى كم بدا ذلك الشاب حزيناً عندما تخلّت عنه. انقطع عن الطعام وقلّ نومه وأصابه الهزال فباتت ثيابه أكبر مقاساً من جسمه. ثمّ عاد إلى الولايات المتحّدة، وبعد ذلك اختفت علاقتهما في طيّ النسيان، وكأنّها لم تكن واقعاً، بل خيالاً

قامت كارو من السرير وأدارت زرّ الراديو، لكنّها لم تتحمّل صوت المذيع الذي يتحدّث بفرحٍ ومرح، فمزاجها لا يتحمّل البهجة والصخب في مثل هذه الساعة الصباحيّة. أطفأت الراديو وتوجّهت نحو المطبخ، حيث وجدت ما خلّفته صديقتاها كالعادة من فوضى وصحون قذرة بعد وجبة الفطور السريعة. تنهّدت، ثمّ التقطت الصحون القذرة عن الطاولة وأزاحت عنها بقايا الطعام ووضعتها في الجلاية. لا شكّ أنّ جنّا وميرلي ستقدّران هذا العمل.

شعرت بألمٍ في رأسها. ما الذي حدا بها إلى تناول تلك الكميّة من النبيذ الرخيص. كان ذلك النوع من النبيذ هو المشروب الوحيد الذي وجدته في البيت.

في البداية اعتذر عن مشاركتها، لكنّه عاد عن اعتذاره. لم يتأثر بالنبيذ كما تأثّرت. فقد ثرثرت كثيراً، وضحكت عالياً إلى أن وضع كفّه على فمها لتتوقّف.

كان كفّه عريضاً، وشعرت أنّه يغطّي وجهها.

twitter @baghdad_library

وفجأةً شعرت بالبرودة تسري في جسدها، فأزاحت تلك الكفّ بصعوبة عنها.

فضحك مقهقهاً.

عندئذٍ وضعت ذراعيها حول عنقه والتصقت به لكي تشعر بالراحة والحبّ.

إنّه قادرٌ على تغيير مزاج مَن حوله بسرعة قياسيّة. يا له من ساحر! آبرا كادابرا!

وابتسمت كارو وهي تُكمِل ترتيب المطبخ. ربّما وجدت أخيراً الذي كانت تفتّش عنه. والآن، عليها التمسّك به.

نظرت إلى ساعة يدها وفكّرت أنّها لو أسرعت في التحرّك فسوف تتمكّن من حضور الحصّة الثالثة. راحت تصفر بعد أن أعجبتها الفكرة. لقد ازدادت كثيراً ساعات غيابها عن المدرسة في الآونة الأخيرة، وتكاد تستنفد صبر المدرّسين.

في الحمام، وضعت وجهها تحت المرشّة وتمغّطت. قد يكون من المبكر التأكّد من ذلك، ولكنّها تشعر كأنّها وقعت في الحبّ.

الحبّ أوّلاً، وبعد ذلك تأتي الخطوبة، ثمّ الزواج.

* * *

أقفل الخطّ، ودفع باب غرفة الهاتف الصغيرة بقدمه، وانطلق مسرعاً إلى الخارج وهو يمسح العرق عن جبينه. كان الجوّ ساكناً، والساحة الإسمنتية الكبيرة بيضاء وخالية، وكأنّها تجمّدت من شدّة الحرّ.

أحسّ، وهو يقوم بتلك المخابرة الهاتفيّة، أن غرفة الهاتف الضيقة قد اختزنت كل حرّ الصيف وجميع أصناف الروائح البشريّة

النتنة. وكان قد أبقى الباب مفتوحاً بواسطة قدمه الممدودة، ولكن لم يُجدِهِ ذلك الأمر نفعاً لانعدام حركة الريح كلياً في تلك الساعة.

«نثانيال! أين أنت؟ أرجوك أن تقول لي كيف أصل إلى مكانك». كانت تلك كلمات أمّه الأخيرة عبر الهاتف.

عندما سمع الارتجاف في صوتها، الذي ينذر عادةً بنوبةٍ من البكاء؛ أقفل خطّ الهاتف بسرعة لأنّ أعصابه عاجزة عن تحمّل ذلك. إضافةً إلى أنّها تسأله عن عنوانه، الأمر الذي يكتمه بشدّة عن أيّ كان وخصوصاً عنها.

«ناثانيال!» أمّه هي الوحيدة التي ما زالت تناديه بهذا الاسم. حتى هو نفسه، فقد نسي اسمه. اسمه الذي يذكّره بطفولته. تلك الطفولة التي دفنها في أكفان الماضي؛ ولكنّها تعود لتمتثل أمامه على حين غرّة. الماضي هو أحد الأمور الذي لم يحسن محوها جيّداً من ذاكرته حتى الآن.

عليه التوقّف عن الاتصال بها. إنّه يتساءل لماذا يفعل ذلك؟ هل شعوراً بالذنب، أم بحكم العادة؟

الهروب بالنسبة إليه الآن بات سهلاً. يكفي أن لا يبقى في مكانٍ واحد وقتاً طويلاً، وأن لا يترك وراءه أيّ أثرٍ يدلّ عليه.

كان عليه أن يمتنع عن الاتصال بها. فهي لا تتأخر عن قلب الدنيا رأساً على عقب لكي تجده. كان من الممكن أن يقترف زلّة لسان تجعل أمّه تصل إلى أمامه بعد أقلّ من ثلاث ساعات.

«هل أشعر بالذنب؟» «كلا، ما هذه التفاهة؟» لقد تعوّد التكلّم إلى نفسه بصوتٍ مرتفع. فهو يطرح الأسئلة ويجيب عنها. ولكنّ عدد أسئلته بات قليلاً في هذا المكان حيث الحياة في منتهى البساطة.

twitter @baghdad_library

إنّه يستيقظ في الصباح ويذهب إلى عمله، ثمّ يعود في المساء وينام. هذا هو برنامج يومه الذي لا يتغيّر.

وهو يستمتع بقضاء نهاره في الحقول، ويفرح بأشعّة الشمس وبالمطر والرّيح. يحبّ العمل فهو مفيدٌ لجسمه. لقد نمت عضلاته بشكلٍ ملحوظ، ورأى ذلك من خلال نظرات الفتيات اللواتي يحاولن التحرّش به في بعض الأحيان. عدا عن أنّ جوعه إليهنّ يلاحقه ويتضاعف.

«نات!»

التفت عند سماعه المناداة. ها أنّ مالي قد أتى وهو يجرّ ساقه التي تحطّمت منذ سنين في حادث سير مروّع. لا أحد سواه يناديه «نات»، أيّ بتصغير اسمه الحقيقي. كالمعتاد، يبدو مالي قذر المظهر فالأوساخ استقرّت إلى الأبد في نسيج بنطلونه الجينز القديم، وشعره الأشعث المثقل بالدهون تدلّى فوق وجهه.

«ما هذه الحرارة؟» قال مالي، وأمسك بأصابعه الغليظة بعض خصلات شعره ورتّبها خلف أذنيه.

لا أحد يعلم اسمه الحقيقي، وربّما لم يعرفه هو نفسه. اسم عائلته «كليستوف»، ويتكلّم الألمانيّة مع لكنةٍ معيّنة، إنّما لا يخبر أحداً عن بلده الأصلي. ذهب الاثنان إلى مطعم العمّال لتناول وجبة الغداء. كان المكان مكتظّاً والأصوات عالية. وراح مالي يلقي السلام على بعض الناس يميناً ويساراً. فهو شخصيّة محبوبة على وجه الإجمال ويرغب في معاشرة الناس. يحبّ المزاح والمرح ومساعدة الغير. ولكنّ مزاجه يتغيّر كليّاً تحت تأثير الكحول فيصبح عدائيّاً وعنيفاً. الأمر الذي يخيف الناس منه ويبعدهم عنه.

الطبق اليومي في ذلك النهار تألّف من قطعة من لحم الحبش مع البطاطا والبازيلا والجزر. أخذ الاثنان طعامهما وتوجّها يفتشان عن طاولة شاغرة. لا أحد يرغب بالجلوس معهما، وناثانيال يعلم ذلك ولا يوليه أهميّة.

كان اللّحم قاسياً وجافّاً ومن الصعب ابتلاعه من غير ماء. أمّا الخضار فمن الواضح أنّها مثلجة، والبطاطا مسلوقة جدّاً إلى درجة الذوبان. وصحن الحلوى مؤلّف من عصيدة الأرز بالحليب مع صلصة الفراولة. وعوضاً عن الأبيض النقي، كانت العصيدة صفراء باهتة.

تقتصّ إدارة المزرعة ثمن وجبات الطعام بشكلٍ مباشر من أجر العمّال الأسبوعي. فالعمّال الموسميّون غير مستقرّين ويمكنهم المغادرة فجأةً في منتصف الليل من غير إنذار. يعرف ناثانيال بعض الذين غادروا المكان قبل قبض أجورهم.

«طعام لا يليق إلا بالخنازير». قال مالي. ثمّ أزاح صحن الطعام معْرِضاً عن أكل ما فيه، وجرّ نحوه صحن الحلوى وهو يتمتم غير راضٍ.

شعر ناثانيال بالارتياح لأنّه عوّد نفسه تقبّل أنواع الطعام مهما كانت. إنّه بحاجة للغذاء لكي يتمكّن من ممارسة عمله العضلي الشاقّ.

قد يكون الطعام في المقهى ألذّ وثمنه أقل، ولكنّه يفضّل تناول الطعام هنا لقرب هذا المكان من المزرعة؛ إذ يتمكّن بعد انقضاء ساعة الغداء، من الانصراف مباشرةً إلى متابعة العمل. استراحة لمدّة ساعة واحدة في منتصف النهار تكفيه لاستعادة نشاطه.

يتذمّر معظم العمّال من ظروف العمل المجحفة بحقّهم. المال الذي يتقاضونه قليلٌ، والمبلغ الذي يُقتطع منه لقاء الطعام والإقامة

twitter @baghdad_library

مرتفع. فلا عجب إذاً أن المزارع الذي يملك جميع حقول الفراولة في هذه القرية قد بات من الأغنياء جدّاً.

كانت زوجة صاحب مزارع الفراولة من نوع النساء الذي يتحاشاه ناثانيال. فهي لا تبادر العمّال والعاملات بكلمة لطيفة أبداً، ولا تبتسم إلاّ نادراً، إضافةً إلى أنّها تبالغ في وضع المساحيق وترتدي ثياباً ملفتة للأنظار.

لقد انتبه مرّةً إلى أسلوبها المغري في النظر إليه، وحوّل نظره عنها في الحال. إنّه أبعد ما يكون عن التجاوب معها إذ لا تنقصه مثل هذه التعقيدات!

فرغ مالي من تناول الحلوى وهمّ إلى تنظيف صحنه؛ فدفع ناثانيال بحصّته إليه قائلاً: «هل ترغب في المزيد؟»

لم يكمل ناثانيال سؤاله حتى سارع رفيقه إلى التهام الحصّة الثانية، وهو يقول: «لا ترغب بالحلوى؟ هل أنت جادّ في ما تقوله؟»

«نعم. لا أشعر بجوعٍ شديد اليوم».

فكّر ناثانيال بأهميّة أن يبقي مالي مقرّباً إليه. فربّما يحتاجه في يومٍ من الأيّام. حصّة من الحلوى هنا وصحن من الطعام هناك، سيشعر بعدها مالي بأنّه مدينٌ له، ويترتّب عليه المبادلة بخدمة معيّنة في يومٍ من الأيام.

لقد نجحت معه مثل هذه التكتيكات مرّات عديدة، وساعدته على النجاة.

أنّب نفسه في سرّه عندما فكّر بحقارته: «إنّك زائف وخسيس يا ناثانيال. نعم هذا صحيح، فأنت كذلك».

(4)

بعد أن ذهبنا إلى السوق معاً واشترينا ما نحتاجه لوجبةِ طعام أرَدْنا ميرلي وأنا تحضيرها معاً بالاشتراك مع كارو. اتصلت كارو وأعلنت عدم قدومها.

«لم تعطِ سبباً واضحاً لغيابها. أليس كذلك؟» قالت ميرلي.

«لا، لم تتكلّم عن السبب».

وتابعت ميرلي، وهي تنزع بمهارة الأجزاء الدقيقة الخضراء من حبّات البندورة الكرزيّة. «لا أدري لما تُبقي أمر صديقها الجديد طيّ الكتمان إلى هذه الدرجة. لا تفعل ذلك عادةً؛ يمكنها أن تعطينا فرصة أن نلمحه على الأقلّ».

«لا، ليس ذلك ضرورياً. تعلم كارو أنّه يمكنها الاعتماد علينا ساعة تريد، ولكنّ ذوقها في اختيار الشبّان مختلفٌ عن ذوقنا».

«ليس هذا صحيح بالضرورة». قالت ميرلي، بعد أن وضعت نصف حبّة من البندورة في فمها. وتابعت: «كان يمكن لصديقها جيل أن ينال إعجابي أيضاً».

نظرتُ إليها وضحكت.

فضحكت هي أيضاً، وقالت: «هل كنت ستعتبرين ذلك تقدّماً بالنسبة إلى ذوقي في اختيار الشبّان أم لا؟»

twitter @baghdad_library

«نعم بالطبع!» أخلاق جيل دمثة أكثر من المطلوب بالنسبة إلى ذوق كارو، وإلى ذوق ميرلي أيضاً. من جهتي كنت أميل إليه جدّاً، وأجد فيه الأخ الذي أحتاجه. ولذلك شعرت بالحزن لابتعاده عنّا.

وصلت قدر الماء على النار إلى درجة الغليان، فأسرعت إلى فتح علبة المعكرونة، ولكن معظم محتواها وقع على الطاولة لفرط السرعة؛ وانفرشت كومة من عيدان المعكرونة في كلّ اتجاه ورحت ألمّها. فتذكّرت لعبة لمّ العيدان التي يعشقها الصغار والكبار على السواء.

قلت: «في جميع الأحوال، كان جيل متميّزاً عن معظم الشبّان الذين أتوا إلى هنا».

شرعت ميرلي في إعداد الصلصة المرافقة لطبق السلطة، ولكنّها بدت مستغرقة في تفكيرٍ عميق؛ ثمّ استدارت قليلاً نحوي وقالت: «الجريمة التي حدثت منذ أسبوعين لا تفارق ذهني. أعني. كنت أعرف تلك الفتاة. تعلمين ماذا. لم أكن أعرفها حقّاً، ولكنّي التقيت بها أكثر من مرّة في النادي الليلي وفي مطعم البيتزا. كانت لطيفة والابتسامة لا تفارق وجهها. لا لا أستطيع أن أتخيّلها ميتة».

لم تتوقّف ميرلي عن الإشارة إلى ذلك الموضوع، وبدا لي أنّه يضايقها كثيراً. وفي اللّحظة التي حان فيها الوقت لكي أرفع المعكرونة عن النار وأصفيها من الماء، شعرت كأنّي إنسانة قاسية جدّاً. فكيف أستمع إلى الحديث عن مقتل فتاة بريئة، وأنهمك بتحضير الطعام في الوقت عينه؟

«هل السلطة جاهزة؟»

إنّها الحياة. فتاةٌ تموت، وأخرى تمني النفس بوجبةٍ لذيذة. جميعنا يسعى لفهم وقبول هذه التناقضات.

وبعدما جلسنا إلى الطاولة، تابعت ميرلي: «تخيّلي أنّك تتعرّفين إلى شاب، وتثقين به. ثمّ يقوم بقتلك».

كانت الشرطة قد توصّلت في ذلك الوقت إلى الاستنتاج بأنّ الفتاة سيمونا ذهبت إلى النادي الليلي. وكانت تقود سيّارة والدها، وربّما دعت بنفسها القاتل إلى ركوب السيّارة معها. لم يزل من غير الواضح إن كانت قد تعرّفت إليه في النادي الليلي، أو إن كانت تعرفه من قبل. وهناك احتمال أنّه أوقفها في الطريق وطلب منها أن توصله إلى مكان معيّن.

«هذا مرعب!» أحسست فجأةً بفقدان شهيّتي للطعام وتوقّفت عن الأكل.

راحت ميرلي ترسم أشكالاً على قعر الصحن بالشوكة وصلصة البندورة. ثمّ قالت: «تخيّلي ما هي آخر الأفكار التي قد تمرّ في ذهنك عندما تعلمين أنّك ستموتين بعد لحظات».

«يُقال إنّه في الحوادث، يستعرض الإنسان شريط حياته كلّها خلال لحظات، وكأنّها فيلم سينمائي سريع. وقد يكون الأمر مشابهاً في حالة القتل».

هزّت ميرلي رأسها نفياً وهي تقول: «كلا. أظنّ أنّكِ ستشعرين بالرّعب الذي لا مثيل له. ستحاولين الدفاع عن نفسك بجميع الوسائل، ترفسين بقدميك، تضربين بيديك. وفجأةً ستجدين نفسك غير قادرة على فعل أي شيء، فتبدئين بالصلاة».

«الصلاة؟»

twitter @baghdad_library

«عندما تكتشفين أنّك عاجزة عن فعل أي شيء».

«توقّفي يا ميرلي. لا أريد أن أفكّر في الأمر بكلّ هذه التفاصيل».

«أنتِ تفضّلين عدم التفكير بالأمر، وكأنّك تدفنين رأسك في التراب مثل النعامة».

«كلا، ولكنّي لا أريد تصوّر جثث فتيات أمامي في كلّ صبحٍ ومساء».

«حسناً». قالت ميرلي، واستغرقت في الصمت إلى أن انتهينا من تناول الطعام.

عندما جلسنا لتناول القهوة، قلت: «هل لاحظتِ مثلي أنّ كارو عادت إلى إيذاء نفسها؟»

هزّت برأسها إيجاباً، وقالت: «أظنّ أنّ لذلك علاقة بصديقها الجديد».

فقلت: «ربّما نتمكّن من رؤيته خفيةً، إن استمرّت بإصرارها على عدم تقديمه إلينا».

ضحكت ميرلي، وأضافت: «نقف في الليل في زاوية مظلمة ونترقب مروره إذا خرج من الغرفة وذهب إلى الحمّام. شكراً جزيلاً يا جنّا على هذه الفكرة. ولكنّي، في الواقع، أفضّل الانتظار إلى أن تقرّر كارو تقديمه إلينا».

وفيما كنّا نتحدّث وفي تلك اللحظة بالذات، سمعنا صرير المفتاح في الباب. ها هي كارو وكأنّنا قمنا بمناداتها عندما ذكرنا اسمها.

دخلت كارو إلى المطبخ بسرعة، وجلست في كرسيّها. ثمّ

نظرت إلى صحوننا الفارغة، وقالت: «أكاد أموت جوعاً. هل ما زال هناك المزيد من الطعام؟»

ونظرت إلينا بتمنٍّ وكانت تبدو سعيدة. أسعد من أيّ وقتٍ مضى. وهي جائعة على غير عادتها. هل تحوّلت إلى إنسانة أخرى بين ليلةٍ وضحاها؟

وخشيت أن نكون قد أسأنا الظن بصديقها ظلماً.

قلت: «بالطبع هناك المزيد من الطعام». وقبل أن أكمل جملتي، كانت ميرلي قد وقفت من كرسيّها وأخذت صحناً من الخزانة لتضع فيه معكرونة.

وتساءلت: «أليس من حقّ كارو الشعور بالسعادة ولو مرّةً في حياتها؟»

* * *

أبدى ضبّاط المباحث في الشمال اهتمامهم بملزيغ ورحّبوا بزيارته. فقد سمحوا له بالاطلاع على ملفّاتهم، وعلى كلّ ما حصلوا عليه من دلائل حسيّة، واصطحبوه إلى حيث وقعت الجريمتان. كما أنّهم قدّموا له نسخاً عن تقارير الأخصّائيّين حول أقوال الشهود، وشرحوا له النقاط التي كانوا قد توصّلوا إليها في سياق البحث المستمرّ عن الفاعل.

أربعة عشر شهراً انقضت على الجريمة الأولى، واثنا عشر شهراً على الثانية، توارى ذكر هاتين الجريمتين عن أذهان الناس، وحتى الصحف، فهي لم تعد تأتي على ذكرهما إلا نادراً.

يبدو أنّ الشرطة أخفقت حتى الآن في التوصّل إلى أيّ نتيجة على الرغم من أنّها طرقت جميع السبل الممكنة في البحث؛ وهذا

twitter @baghdad_library

الأمر يشكّل كابوساً ثقيلاً على ضمير كل ضابط مباحث يحترم مهنته.

في طريق العودة، استعرض بيرت المهلة الزمنيّة التي فصلت بين الجريمة الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة التي كانت ضحيّتها سيمونا ريدلف. هل توقيت الجرائم الثلاث يتطابق مع النهج الذي يتّبعه عادةً القاتل بالتسلسل؟ وأجاب بيرت عن السؤال الذي طرحه على نفسه بالإيجاب. سبعة شروط ضرورية يجب أن تتوفّر في لحظةٍ معيّنة لهذا النوع من المجرمين لكي يقوموا باقتراف الجريمة، وهي: الدافع، وجود الضحيّة، توفر الفرصة، المكان المناسب. لو نقص شرطٌ واحد من هذه الشروط، يتعذّر على القاتل إتمام الجريمة.

ولكن من المحتمل أنّنا الآن أمام مجرم حادّ الذكاء لا يكتفي بعدم ترك أيّ أثر يدلّ عليه، بل يخطّط إلى انتهاج طريقٍ مخالفٍ لما تدلّ عليه المعلومات المحفوظة عن أساليب الجرائم السابقة. والقاعدة التي تدلّ عليها الجرائم السابقة تشير إلى أنّ المسافة الزمنيّة بين الجريمة والأخرى تقصر مع تتابع الجرائم، ولا تطول.

الضحيّة في كلّ من الجريمتين في الشمال هي شابّة في السابعة عشر في الأولى، وفي العشرين في الثانية. الاثنتان كانتا ذات شعرٍ أشقر طويل، قصّه المجرم بعد ارتكاب الجريمة. وكلتاهما كانتا تلبسان عقداً حول العنق اختفى بعد الجريمة.

وكلتا الفتاتين قُتلتا بسبع طعناتٍ.

«يا إلهي»، قال ملزيغ لنفسه، «كيف يمكن لرجل السيطرة على جميع تحرّكاته وهو يرتكب جريمة بهذه الفظاعة؟ أم أنّه لا يشعر بأي خوفٍ أو حرج، ويقوم باغتصاب الفتاة وقتلها بكلّ هدوء وبرودة أعصاب كأنّه يطبّق طقساً معيّناً؟»

أمام كلّ جريمة جديدة، وقبيل شروعه في التحقيق، يساور بيرت شعورٌ خاصّ يتغيّر في كلّ مرّة. والخوف هو الشعور الذي يساوره هذه المرّة. أمر غير اعتيادي لم يختبره من قبل.

عندما رأى صور الضحيتين في الشمال، لاحظ أنّ تعابير وجه الفتاتين تتطابق مع التعابير التي بقيت على وجه سيمونا رديلف؛ ففي عيونهنّ المفتوحة تُقرأ المفاجأة العظيمة.

كان اسم إحدى الفتيات ماريلا، والأخرى نيكول. ومن المهمّ بالنسبة إلى بيرت أن يكون لهؤلاء الضحايا أسماء وأن تذكر الجرائد أسماءهن. يجب أن يبقى لدى الناس الشعور بأن الضحايا أناساً يشبهونهم.

كان من الممكن لهؤلاء الفتيات أن يكنّ بنات أو أخوات أو قريبات أو حفيدات أو صديقات أيّ إنسان.

على عكس المجرم؛ فهو مجهول الهويّة والشكل؛ إنّه ظلّ مخيف يمكن تخيّله موجوداً في أيّ زاوية أو مكان.

العقد المسروق، الطعنات السبع، الشعر المقصوص. لم يجد بيرت في كلّ ما قرأه عن جرائم سابقة ما يتطابق مع هذه التفاصيل. كذلك زملاؤه في الشمال؛ فهم أيضاً لم يجدوا ما يتطابق معها.

كلّ الجرائم مريعة. ولكنّ الجرائم المتسلسلة أشدّ روعاً. لم يسبق لبيرت أن حقّق في مثل هذه الجرائم من قبل. ولكنّه أمعن في الدرس عنها على الرغم من أنّه تمنّى أن لا يجد نفسه مضطرّاً إلى التحقيق في إحداها في يومٍ من الأيّام.

كان في بعض الأحيان يتفهّم الأسباب التي تؤدّي إلى وقوع الجريمة. سبق له وحقّق في جرائم حدثت نتيجة الغيرة أو الطمع،

twitter @baghdad_library

ونجح في كشف أخرى كان دافعها الانتقام، أو الخوف من انكشاف أمر جريمة سابقة. كمّا أنّه تعرّف إلى مجرمين قتلوا بدوافع جنسيّة.

أما القاتل بالتسلسل فكان غريباً جدّاً بالنسبة إليه. في عمله كان يعتمد استراتيجيّة التفكير بذهنية مقترف الجريمة، لكنّه يعجز عن فعل ذلك الآن. من الخارج، عليه أن يكتشف الخطّة التي يعتمدها القاتل. وبعد ذلك، يحاول أن يتقمّص شخصه لكي يتمكّن من التفكير والشعور بالأسلوب الذي اعتمده؛ حتى يتوصّل بعدئذٍ إلى إلقاء القبض عليه.

ولاحظ أنّ أسلوبه الشخصي في الكلام بات عدائيّاً. وفيما كان لا يزال غائصاً في التحليل، تنبّه إلى أنّ البحث في هذه الجريمة سيغيّر شخصيّته إلى الأبد.

قاد سيّارته إلى حيث يمكنه التوقّف للاستراحة وأوقف المحرّك. ثمّ ترجّل من السيارة وراح يتمشّى، فالسير على الأقدام يفيد الدورة الدمويّة ويريح الأعصاب. كان هناك غابةٌ قريبة تصل ظلالها إلى الطريق. فمشى إلى الظلّ، واضعاً يديه في جيبي سترته.

لم يكن بيرت غريباً عن هذه المنطقة، لقد أمضى طفولته في الشمال. ولكنّها طفولة قاسية وخالية من الفرح، لم تترك في نفسه سوى ذكريات داكنة مثقلة بمشاعر الغضب.

لم يكن يتمنى أبداً العودة إلى الشمال.

في تلك اللحظة تنبّه إلى مقدار الضغط النفسي الذي كان يعيشه في الأيّام القليلة الماضية. فأغلق قبضتيه بشدّة وانهمرت دموعه.

ومشى إذ ذاك بسرعة إلى السيارة؛ وأدرك أن التحقيق في مقتل سيمونا قد بدأ بتغييره.

* * *

يكره ناثانيال الزحف تحت المطر بين مساكب الفراولة. فعلى الرغم من الثياب الواقية من البلل، يشعر وكأنّ أعضاءه السفلى تلتصق إلى بعضها في مثل هذا الجوّ. أمّا القشّ المفروش على الأرض فمفيدٌ لمنع حذاءه من الانغراس في التراب، ولكنّ يداه تكتسيان بالوحل.

بدا العمّال الآخرون أيضاً في مزاجٍ سيّئ. فلا أحد منهم يضحك أو يتكلّم، بل انصرف الكلّ إلى العمل بصمت.

لا عجب أن الفراولة كانت فاكهة إله الشمس المفضلة في الأسطورة اليونانيّة، إذ إنّها تفقد عطرها جرّاء المطر، ولونها يغدو باهتاً.

إن كان الطقس صاحياً أو ماطراً، الأمر سيّان بالنسبة إليه. لا يهمّه كيف يكسب رزقه؛ ما يهمّه فحسب، هو العمل في الهواء الطّلق والحركة. معظم الناس يفضّلون الجلوس من أجل التفكير في أمرٍ معيّن. أمّا هو، فلا يتمكّن من إزاحة الضباب عن عقله إلا بالحركة. كما يفيده هبوب الريح أحياناً في تهدئة مزاجه.

العمل الحقيقي هو الذي يجعلك تتعرّق. أحد أقوال جدّه التي لا تزال منطبعة في ذاكرته. كان الرجل العجوز يعبّر عن نفسه وعن رؤيته للعالم بمثل تلك الأقوال المقتضبة. لم يصادف ناثانيال في حياته رجلاً يميل إلى الصمت مثل جدّه.

عوضاً عن تأديب الطفل ناثانيال بالكلمات، تعوّد العجوز أن يترك لحزامه مسؤوليّة القيام بالمهمّة. وفي حال عدم وجود الحزام قريباً من متناول يده، يلجأ إلى العصا أو الملعقة الخشبية أو إلى مِشبَك الثياب، أو السلسال المعدني الذي يأتي به من المصنع.

twitter @baghdad_library

لا فرق إن حاول ناثانيال عدم البكاء، أو لو انفجر باكياً؛ ففي كلتي الحالتين يزداد العجوز غضباً على غضب.

ولكنّ الذلّ الذي لم تفارق مرارته ناثانيال حتّى الآن كان أصعب عليه من الألم.

لم تحاول الجدّة التدخّل في الأمر. كانت توافق على جميع أفعال زوجها، الذي كان بحسب اعتقادها رجلاً فاضلاً ومستقيماً. ألم تعلّمها الكنيسة أنّ الفضيلة والاستقامة لا يصحّان سوى بالخشونة والألم؟

كان على ناثانيال أن يتبع جدّه إلى القبو وراء البيت لنيل العقاب. هناك في القبو لا أحد يسمع صراخه.

لقد تساءل مراراً إن كانت جدّته لا تعلم حقّاً بما كان يحدث له. كان يحاول قراءة الجواب في عينيها؛ ولكنّ التواصل مع تلك المرأة الصلبة كان عسيراً.

العمل الحقيقي هو الذي يجعلك تتعرّق. النظام هو نصف النجاح في الحياة. لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد. جميع الناس تسيطر عليهم عادة نكران الجميل. ما لا تتعلّمه اليوم، لن تتعلّمه أبداً.

الأمثال التي تعوّد جدّه أن يردّدها، كانت لكثرتها كافية لتأليف موسوعة. ولكنّ هذا الأخير كان ينتظر من ناثانيال العمل بموجبها، وإلا فالعقاب بالضرب هو الحلّ الأوحد.

الولد مثل أمّه.

«آخ!»

«خذ أكثر!»

«أرجوك إنّي أتوجّع بشدّة!»

«سوف أعلّمك درساً لن تنساه طيلة حياتك! لن أدعك تجلب علينا العار، أنت أيضاً».

بعد ذلك، يبقى ناثانيال في عتمة القبو وقتاً طويلاً ممدّداً على القش وهو يبكي. ويقوم الكلب ليو من الزاوية حيث كان يرقد مرعوباً، ويقترب منه متردّداً ثمّ يلحس وجهه بحنان ويتمدّد إلى جانبه. كانا يبقيان على هذه الحال لمدّة ساعات. لا أحد يأتي متفقّداً أو مبدياً أدنى درجات الاهتمام.

لم ينجُ الكلب في كثيرٍ من الأحيان من الرّفس والضرب أيضاً.

الاثنان كانا يعيشان عيش الكلاب.

* * *

نظرت كارو إلى صورتها في المرآة. يصرّ الجميع على أنّها نحيلة جدّاً، ولكنّها، على عكس ما يقولون، تشعر أنّها سمينة.

المرآة المعلّقة على الحائط تسمح لها برؤية القسم الأعلى من جسدها. كانت ترى ذراعيها والجراح التي عليها؛ وهناك أيضاً الندوب القديمة التي لم تختفِ بعد.

ملأت الدموع عينيها عندما شعرت بضعفها بعيداً عنه. بعيداً عنه، تشعر بأنّها فريسة سهلة لأيّ كان، وخصوصاً لذاتها.

«سأطعمكِ لكي تتغذّي جيّداً ويزداد وزنك». قال لها مرّةً.

وكان يحبّ أخذها بين ذراعيه أيضاً. وكانت يداه كبيرتان وواثقتان. وهي تحبّ أن تتكوّم بملاصقة جسمه، حيث تشعر بالأمان والراحة.

twitter @baghdad_library

«إنكِ أشبه بطفلة». همس مرّةً في أذنها.
ولكنّ تشبيهها بالطفلة كان آخر ما تتمنّاه لنفسها.

* * *

كلّ شيءٍ يبدو على ما يرام هذه المرّة. وهي مثل حيوانٍ صغير. ولكنّها جميلة على الرّغم من إطارها العظمي النحيل؛ وهي له وحده. كان مصرّاً على عدم الاستعجال، يريد أن يكتشفها تدريجيّاً وببطء.

لا يجد أجوبة في عينيها، بل حشداً من الأسئلة، وهو حاضرٌ للإجابة عن أسئلتها. في يومٍ من الأيّام، سيفعل كلّ ما بوسعه من أجل هذه الفتاة.

وشعر أنّه بات يسعى للعيش بسلام مع نفسه ومع العالم. ولكنّه تطوّرٌ صعب وبطيءٌ جدّاً، وقد يستغرق نصف حياته. لا شيء مستحيل طالما هي معه.

البراءة. هذه الفتاة تمثّل جميع معانيها.

* * *

قاطفو الفراولة يعملون. ثلاث شاحنات ملأى بصناديق الفراولة، والمزارع منشغلٌ بتعبئة الرابعة. وفتاةٌ في مثل عمري تحمل صندوقاً في اتجاه الشاحنة. لا شكّ أن وزنه ثقيل، لكنّها تتمشى بخفّة وكأنّها ترقص.

لا أحد من الرجال كان ينظر إليها على الرغم من جمالها. فقد كانت جذّابة بثيابها البسيطة، والوشاح الذي يحمي شعرها الأشقر من أشعّة الشمس.

رأيت كلّ ذلك بلمحة خاطفة قبل أن أقود السيّارة في المنعطف المؤدّي إلى بيت أمّي.

رأيت الطاحونة من بعيد وكأنّها تقف وحيدة في سكون تلك الساعة من فترة بعد الظهر. لاحظتها وكأنّها محاطة بهالة من الذبذبات الغريبة، وكنت قد قرأت منذ مدّة قصيرة أنّ الأرواح الهائمة تميل إلى زيارة الأماكن القديمة. لقد زاد ذلك إيماني بقِدَم هذا المكان الذي لم نكتشف بعد كلّ تاريخه.

ها أنّ جدّتي قد وصلت، وسيّارتها الحمراء مركونة أمام مدخل البيت. جدّتي تعشق قيادة السيّارة، لكنّها لا تتقن أبداً ركنها بالطريقة الصحيحة.

عندما أوقفت سيّارتي إلى جانب سيّارتها، وترجّلت منها نلت الترحاب المعهود من إدغار وموليّ خرخرةً ومداعبةً عند قدميّ. ولحقت بي الهرّتان إلى الداخل، فشعرت بجوّ البيت المنعش للتوّ.

كانت جدّتي تجلس في الفناء الخارجي تحت مظلّة خضراء اللون انعكس لونها على بشرتها فبدت باهتة. ولكنّ ذلك الأمر لم يؤثّر سلباً في مظهرها الجميل. جدتي في الخامسة والسبعين، إنّما تبدو وكأنّها لم تتجاوز الستّين.

رفعت خدّها نحوي لكي أقبّله، فشعرت بنعومة بشرتها تحت شفتّي.

«اجلسي الآن وقصّي عليّ أخبارك». قالت وهي ترمقني بنظرات فاحصة.

كنت أعلم أنّ لا مجال لعدم قول الحقيقة أمامها. فأجبت: «كلّ شيء يسير على ما يرام، ما عدا علاماتي المدرسية فهي ليست مُرضية كثيراً».

رفضت جدّتي جوابي، وقالت وهي تفقد صبرها: «لا أسألك

twitter @baghdad_library

عن العلامات المدرسيّة، بل عن حياتك. كان عليك أن تعرفي قصدي».

كدتُ أقول لها أنّ العلامات تحتلّ حيّزاً هامّاً في حياة أيّ طالب أو طالبة. ولكنّي تراجعت عن ذلك، وحرت في اختيار ما عساني أن أقول عوضاً عن ذلك.

«ما أخبار رفيقتيك؟»

تعرّفت جدّتي إلى كارو وميرلي في حفلة تدشين منزل والدتي الجديد وأخذتهما فوراً تحت جناحيها، فاستطاعت إقناع كارو بتناول قطعتين من قالب الحلوى باللّوز الذي صنعته بنفسها، ونصحت ميرلي التي كانت تشكو من التعب بأن تأخذ ساعات إضافية من النوم.

أحبّت الفتاتان اهتمام جدّتي بهما، وسألتني كارو بدعابة إن كان بوسعها التقدّم بطلب التحوّل إلى حفيدة ثانية لها.

أجبت: «ميرلي وكارو ترسلان إليك تحياتهما الحارّة».

«هل ما زالت كارو تؤذي نفسها؟» سألتني جدّتي، محدّقةً بي بعينين ضيّقتين في انتظار الإجابة.

«كيف لاحظتِ هذا الأمر؟»

«قد أكون عجوزاً، ولكنّي ما زلت ذكيّة. هيّا أخبريني».

أحنيت رأسي، وقلت: «نعم، على الرغم من كونها تعرّفت إلى شاب وأحبّته. إنّها تبدو سعيدة، ولكن لا أدري ما الذي جعلها تعود إلى تلك العادة المشؤومة؛ لقد سألناها عن السبب ولكنّها آثرت الكتمان».

«يا لها من فتاة شجاعة. شبيهاتها قليلات في هذه الأيّام».

خرجت أمّي إلى الفناء واقتربت منّي، وقدّمت لي خدّها لأطبع عليه قبلة. ثمّ انهمكت في تجهيز الطاولة.

سألتها: «كيف يجري العمل في الكتاب الجديد؟»

«أنهيت فصلاً واحداً منذ زيارتك الأخيرة». قالت مبتسمة. وتابعت: «تقدّمٌ لا بأس به، إذا أخذنا بعين الاعتبار كلّ ما يحيط بي من مشاكل، ووجود العمّال في البيت دائماً. لقد تخرّب سخّان الماء في المطبخ، وانسدّت القناة في الحديقة، وتعطّلت مضخّة الخزّان، إضافةً إلى انشغالي بموضوع الشجرة المريضة التي قرّر عامل الحديقة قطعها».

«المزارع الجيّد لا يقطع الشجرة، بل يعالجها». قالت جدّتي بعتب.

«في الحقيقة لم يكن هناك طريقة لمعالجة تلك الشجرة». قالت أمّي وكانت ترتدي ثوباً أسود من الكتّان الناعم وفوقه قميصاً بلون الشمبانيا. وزيّنت عنقها بشريط جلدي أسود تدلّت منه ميداليّة ذهبية كبيرة كنت أراها لأوّل مرّة.

«لم يكتب غوتّه سوى في حالات الهدوء التامّ». قالت جدّتي، ولا أشكّ لحظةً أنّها قصدت بقولها الطعن قليلاً بنوعيّة نتاج أمّي الأدبي.

«مسكين!» قالت أمّي وهي تقطع قالب الحلوى المزيّن بالفراولة. ثم سارعت إلى إعطاء الجواب عن سؤالٍ لم تطرحه جدّتي بعد. «لا، لم أصنع العجينة بنفسي، بل اشتريتها جاهزة. محظوظٌ غوتّه، فالطبّاخة كريستيان كانت تعدّ له الطعام والحلوى».

«لا تنسي أنّ غوتّه كان شاعراً». قالت جدّتي.

twitter @baghdad_library

«وكلّ القصص التي أكتبها تدور حول الجرائم». أجابت أمّي بتحبّب وهي تضع قطعة من الحلوى في صحن أمّها.

فسارعت إلى نجدة أمّي بالقول: «إلا أنّي أعشق قراءتها».

«بالطبع، لن يُطلب منك في الامتحانات النهائيّة بحثاً حول إحدى هذه القصص المثيرة. غوتّه فوست..»

«أمي، لا تسترسلي بهذا النوع من النقاش. تناولي الحلوى واستمتعي بالطقس الجميل».

نظرت جدّتي إلى قطعة الحلوى، وقالت: «هل تشترين الفراولة من القرية؟»

هزّت أمّي رأسها بالإيجاب، ثمّ قالت: «أرجوك يا أمّي لا تقولي الآن بأنّ مزارعي الفراولة يستعبدون العمّال كما كان الأسياد يفعلون في الزمن القديم. لقد أشبعنا هذا الموضوع نقاشاً في المرّات السابقة».

توقّفت جدّتي عن الكلام، وباشرت في الأكل.

وبعد أن انتهت من ارتشاف فنجان القهوة الأوّل، قالت: «الجريمة التي أوْدَت بحياة تلك الفتاة المسكينة لا تفارق تفكيري».

وافقتها أمّي الرأي وأضافت: «إنّي مرتاحة لكون جِنّا تعيش في برول بعيدة عن هذه الأماكن المنعزلة والمظلمة».

«هل يعتقد البوليس أنّ المجرم ما زال في مكانٍ ما قريب من هنا؟»

«لا أدري». قالت أمّي ثمّ تابعت: «حتّى إنّهم لا يعلمون إن كان من هذه المنطقة أو غريب عنها. الجريمتان اللّتان حدثتا في الشمال، العام الماضي، تشبه هذه، ويعتقدون إنّها من فعل مجرمٍ واحد».

«إذاً لا فرق أين أكون بعد وقوع الظلام، هنا أو في أيّ مكانٍ آخر». قلت ممازحة.

فصوّبت إليّ الامرأتين نظرات كأنّها سكاكين.

وقالت أمّي مؤنّبة: «هذا الأمر لا يحتمل المزاح».

«إنّها لا تفهم جدّية الأمر، ربّما لكونها ترعرعت في بيتٍ مليء بالجثث».

«شكراً لك يا أمّي». قالت أمّي بلهجةٍ جارحة.

الاثنتان فصيحتا اللّسان، وسريعتا الإجابة؛ والمناورات الكلامية بينهما لا تنتهي، إلا أنها تبقى عالية المستوى. من جهتي، تعلّمت أن أبقى خارجها.

قلت: «أودّ الاستئذان منكما الآن. سأذهب بسرعة إلى القرية وأشتري بعض الفراولة إلى ميرلي وكارو».

«لا بأس، قالت أمّي».

فضّلت الذهاب سيراً على الأقدام؛ فالطقس جميل والمناظر كأنها لوحات مأخوذة من الكتب. تبعني إدغار ركضاً إلى أسفل الدّرب الخاصّة، عند ذلك توقّف عن الجري، وتربّع جالساً في منتصف الممرّ ينظر إليّ من غير حراك، كأنّه صنم صغير زرع في ذلك المكان.

لم أصادف أحداً في طريقي. سكونٌ ثقيل كان يخيّم على القرية فانتابني شعورٌ بالغربة عنها، فكأنّي لم أعِشْ ولم أترعرع هنا. لم يتنبّه الكلب العجوز، حارس كنيسة القرية الصغيرة، إلى مروري، فقد كان تقريباً أصمّ، ولم توقظه خطواتي من النوم العميق. حتّى القطط التي كانت تتمغّط بكسل على مصاطب الشبابيك وأدراج البيوت الصغيرة لم تُعِرْني اهتماماً.

twitter @baghdad_library

فقلت في نفسي إنّ أصحاب هذه الهررة، أنفسهم، لو رأوني لتصرّفوا بالطريقة عينها. كانوا سيلتزمون الصمت لكي ألقي عليهم التحية أنا أوّلاً ولو فعلت لأجابوني بهزّة رأس أو بتمتمة غير مفهومة. لا أظنّ أنّهم يرغبون في تبادل الحديث مع فتاة تكتب والدتها قصصاً عن القتل والقتلة.

على كلّ حال، أنا أيضاً لا أرغب في ذلك. أحبّ القرية وحقولها ومزارعها. أحبّ دروبها المعبّدة بالأحجار الصخرية الناعمة. والمناظر الجميلة الآسرة المختبئة في زواياها؛ أحبّ صوت التراكتورات ورائحة الفراولة. ولقد تعوّدت على روائح الدجاج والخنازير. أحبّ القرويين بالذات، على الرغم من خشونتهم، ولكنّي أفضّل عدم التدخّل في مشاكلهم ومشاجراتهم التي تكون تافهة في معظم الأحيان.

تعوّدت المرأة التي تأتي لتساعد أمّي في تنظيف المنزل أن تخبرنا عن بعض تلك القصص التي تحدث في القرية من خصومات وتحدّيات، وتهديدات وملاحقات، وكانت دائماً تبدأ كلامها بالقول: «أشياء غريبة ومفاجئة قد تحدث في هذه الحياة».

لم تعترض أمّي يوماً على سماع أحاديثها. وغالباً ما تعلّق بالقول: «هذه هي الحياة؛ لو لم تحدث مثل هذه الأمور لكان علينا استنباطها، ولا يمكن للخيال أبداً منافسة الواقع».

ولكنّ القرويين قد تغيّروا كثيراً في هذه الأيّام، وباتوا لا يتوجّهون أبداً نحو منطقة الطاحونة.

وفي الواقع، باتت أمّي تعيش الآن في ما يشبه العزلة.

لم ألمح أحداً قطّ أمام مزرعة الفراولة. كان السكون مخيّماً هناك

أيضاً. ضغطتّ على زر الجرس أمام نافذة الدكّان المخصّص للزبائن، وانتظرت.

بعد حين، فتحت النافذة فتاة في مثل عمري.

«ماذا؟»

تجاهلت أسلوبها غير اللائق. وقلت: «أرجو أن تعطيني كيلوَين من الفراولة».

وضعت البائعة أربعة علبٍ ملأى بالفاكهة الحمراء الناضجة على حافّة النافذة من غير أن تنبس بكلمة.

«كم تريدين؟» سألتها. وفكّرت أنّ بضعة سنوات في هذه القرية كفيلة بأن تفقدني القدرة على استعمال جملٍ كاملة في كلامي.

«خمسة يورو».

دفعت الدراهم، وأغلقت الفتاة النافذة. وعدت أدراجي على دروب القرية الناعسة.

وفي طريق العودة، لاحظت حركة قاطفي الفراولة في الحقول، فبدوا لي كأنّهم قفير نحلٍ ناشط.

حملت العلب الملأى بصعوبة على ذراعيّ، وتنبّهت إذ ذاك إلى أنّه كان عليّ أن أحضر معي كيساً أو سلّة كبيرة تسهّل عليّ حمل الفراولة إلى البيت.

كان الكلب العجوز قد أفاق من نومه، فخبط ذيله على الأرض قليلاً عندما مررت بجانبه.

وعندما ناديته بصوتٍ مرح، سمعني وأجاب بأنّةٍ ناعمة.

تمنّيت لو كانت لديّ يدٌ شاغرة لكي أتمكّن من مداعبته قليلاً

twitter @baghdad_library

على الرّغم من شحوب لون وبره الأسود. وفكّرت أنّ هذا الكلب المسكين لا يحظى باهتمام أحد.

عندما وصلت إلى البيت وضعت الفراولة في الثلاجة، وعدتُ إلى الفناء الخارجي. وشعرت بالنشاط بعد هذه النزهة القصيرة على الأقدام.

كانت والدتي وجدّتي قد فرغتا من تبادل الاتهامات، وانتقلتا إلى الأحاديث اللطيفة. أمّا العصافير فكانت تغرّد بفرح؛ ومن وقتٍ إلى آخر كنّا نسمع ثغاء الخراف التي ترعى، وصوت تراكتور الفلاحة الآتي إلينا من بعيد.

كنّا، ميرلي وكارو وأنا، قد قرّرنا قضاء سنة في لندن. ولكنّي ما زلت أشعر بالرضى عن سكني في مدينة برول الصغيرة وزياراتي إلى القرية من وقتٍ إلى آخر.

أتحمّل صخب المدينة لوقتٍ معيّن، وسرعان ما أشعر بالتوتّر بعد ذلك، فأشكّ في بعض الأحيان حول صحّة انتمائي إلى هذا العصر. ولعلّني كان يجب أن أولد في عصر سابق أكثر هدوءاً.

* * *

كان بيرت يراقب زوجته وهي منشغلة بتحضير وجبة العشاء في المطبخ مستمتعاً بمشاهدة تحرّكاتها السريعة والواثقة والجذّابة.

تفضّل مارغو أن لا يعبّر بيرت بصوتٍ عالٍ عن إعجابه بها. فهي تشعر بالإحراج عندما يصبّ عليها انتباهه.

أمّا أسلوبها المتحفّظ فهو الذي شدّه إليها عند تعارفهما. وراح يدعوها في سرّه المرأة الجليديّة. وبعد ابتداء علاقتهما بات كسر الجليد أمنيته الكبرى. كان يريد أن يكسر حاجز الجليد الذي تختبئ وراءه.

«الكسر»، فكّر بيرت، «حتى في تلك الأيّام كان يعبّر عن أمنياته بلغةٍ عنيفة».

لم تذُبْ طبقة الجليد سوى بعد وقتٍ طويل؛ ولكنّها لم تختفِ بشكلٍ كامل. حتى الاتحاد الكامل الذي توصّلا إلى الشعور به في بعض المراحل من حياتهما فقد لا يكون سوى وهمٍ.

شرب بيرت قهوته، وغرق في الجريدة مجدّداً. يقرأ في الصباح العناوين الكبرى بسرعة، أما في المساء فيكمل القراءة متعمّقاً في التفاصيل.

إنّه عصر السرعة والضجيج والتعقيد، فكرّ بيرت، وإن لم يتمكّن المرء من مجاراته وإنجاز الأمور في أوقاتها، فلا مفرّ من التنحّي والخروج من اللّعبة.

«بروكلي أو سلطة؟»

نظر بيرت إلى زوجته متلعثماً. «ماذا؟»

«أسألك إن كنت تفضّل السلطة مع الطعام أو طبقاً من البروكلي».

باتت مارغو تتكلّم في الآونة الأخيرة بلهجة مبطّنة بالعتب.

«لا فرق».

في البدء، كان الزوجان يستمتعان بجلسات طويلة يتبادلان فيها الرأي حول توزيع الأدوار والتخطيط للمستقبل. وقد توافقا منذ البداية على أن تبقى مارغو في البيت وتهتم بالأولاد، ويتحمّل بيرت مسؤوليّة جني المال للعائلة.

لقد فضّلت مارغو أن تجري الأمور على هذا النحو؛ فبالنسبة إليها، كانت ترفض فكرة الاعتماد على الآخرين، وحتّى على بيرت نفسه، في ما يتعلّق بمسألة الاهتمام بالأولاد.

twitter @baghdad_library

ولكنّها باتت في المدّة الأخيرة تتساءل أكثر فأكثر إن كان ذلك القرار الذي اتّخذته صحيحاً. قبل الزواج كانت تعمل في حقل توزيع الكتب؛ ولكنّ الرجوع إلى مجال العمل الآن، حيث تمّ اعتماد التكنولوجيا المتطوّرة في جميع الأمور، يبدو أمراً صعباً ومعقّداً.

وغالباً ما يتفادى الثنائي طرح هذا الموضوع معاً. فمنذ ولادة الطفلين، أيّ قرابة عشر سنوات، نادراً ما يتبقّى لهما وقتاً كافياً لمناقشة أيّ موضوع كما كانا يفعلان سابقاً؛ فالتعب وضغوط الحياة اليومية تجعلهما يلتزمان الصمت. وغالباً ما يداهم النعاس واحدهما في المساء ما أن يأخذ كتاباً في يده، أو يجلس أمام شاشة التلفاز.

«سلطة إذاً؛ تحضيرها أسرع».

«أتحتاجين إلى مساعدة؟»

«كلا. ولكن يمكنك أن تخبرني عن القضيّة الجديدة التي تحقّق فيها، فقد يتيح لي ذلك فرصةً لتنشيط فكري».

وضع بيرت الجريدة جانباً، وأطرق يرتّب أفكاره، ثمّ باشر بالكلام.

كان يحبّ التحدّث عن عمله مع مارغو كلّما سنحت الفرصة. فهي تطرح الأسئلة حول بعض الجوانب التي لا تخطر ببال من يتعاطى مع القضيّة من الداخل، بل من ينظر إليها من الخارج.

تكاد أسئلتها أن تخرجه من ثيابه في بعض الأحيان؛ ولكنّها تنجح في تغيير نمط تفكيره بالقدر الكافي لكي ينظر إلى القضيّة من زوايا أخرى. فبعد الانتهاء من مثل هذه الأحاديث مع مارغو، غالباً ما تبدو له الأمور أكثر وضوحاً من قبل.

أخبرها عن سيمونا ريدلف، والفتاتين في الشمال. عادت

صورهنّ إلى مخيّلته؛ تلك الوجوه الشابّة الميتة. لقد ثبَّت صورهنّ على اللّوح الخشبي في مكتبه. صورهن عندما كنّ ضاحكات وسعيدات.

«يا للرّعب!» كانت مارغو تردّد من حينٍ إلى آخر.

شعر برغبة أخذها بين ذراعيه، ونسيان كلّ شيء آخر؛ كان يودّ تقبيلها كما قبّلها لأوّل مرّة، عندما شعر وكأنّ العالم قد انقلب رأساً على عقب. ولكنّه لم يفعل، بل استمرّ بالكلام.

بعد أن انتهى من كلامه، سألت مارغو:

«هل تظنّ أنّ المجرم كان من دائرة معارفها؟»

«لا أظنّ. لقد نظرنا في جميع الاحتمالات ضمن دائرة معارفها ولم نتوصّل إلى نتيجة».

«إذاً، إنّك ترجّح احتمال أن يكون غريباً؟»

هزّ رأسه إيجاباً.

«وهو نفسه الذي اقترف الجريمتين في شمال البلاد أيضاً؟»

«أوافقك الرأي، فالجرائم الثلاثة متشابهة إلى حدّ بعيد».

«إذاً فإنّه بالتأكيد لا يعيش في شمال ألمانيا، ولا يعيش هنا».

«كيف توصّلت إلى هذه النتيجة؟»

«لأنّه سيكون حريصاً على عدم ارتكاب جرائمه في مكان قريب من مكان إقامته».

«نحن نتكلّم هنا عن مجرم بالتسلسل يا مارغو».

«أعلم أنّ الرغبة في ارتكاب الجريمة تسيطر على عقله وتسيّره». كانت تتكلّم بلسانها وتؤشّر بيديها، وهي تحمل ورقة خسٍّ بواحدةٍ، والسكين بالأخرى. «ألا تظنّ أنّه من الخطأ الاستخفاف بذكائه؟»

twitter @baghdad_library

«أنا لا أستخفّ بذكائه. والتاريخ يفيد أنّ بعض هؤلاء المجرمين يتمتّعون بذكاءٍ حادّ. قد يكون، وهذا مجرّد افتراض، أنّه قصد تضليلنا فاقترف جريمته النكراء قرب بيته».

«التضليل؟»

«لأنّه يعلم أنّ التحقيق سوف يستبعد أن يقترف المجرم جريمته قريباً من بيته. وعندما يفعل عكس ذلك .»

«لا يمكنك أن تضع نفسك مكانه وتتوقّع ما كان يفكّر به يا بيرت».

«بل على العكس. هذا ما أحاول فعله. ليس التفكير مثله فحسب، بل الشعور مثله أيضاً. لا يمكنني الانتظار حتى يقع في خطأ ما، وحتّى يسمح لي هو بإلقاء القبض عليه».

«كأنّك إحدى تلك الشخصيّات الخيالية التي تتقمّص أدواراً متعدّدة».

ضحك وقال: «في بعض الأحيان أشعر كأنّي مثلها». ثمّ نهض واقترب منها وأخذها بين ذراعيه. فكانت دافئة وناعمة. وسألها مجدّداً: «هل أساعدك؟»

ورمقته بنظرة حميمة، ولكنّها عوضاً عن تقبيله، أعطته السكين وسألته: «هل تقطّع الجزر للسلطة؟»

سرّه أن ينشغل بشيءٍ غير التفكير بالقضيّة. وبعد العشاء، وبعد أن لاعب الأولاد، حاول الاستمتاع ببعض المطالعة الخفيفة لعلّه ينسى لدقائق معدودة على الأقلّ أنّه ضابط مباحث.

(5)

قلبت إيمكي ثالهايم شفتيها انزعاجاً عندما رنّ جرس الهاتف. لم تكن فعلاً اللحظة مناسبة لكي تتوقّف عن الكتابة، ولكنّها، ومنذ انتقال جِنّا إلى برول، باتت تحرص على الإجابة فوراً.

خطر في بال إيمكي مرّةً أن توظّف لديها سكرتيرة، ولكنّها سرعان ما تخلّت عن الفكرة، لأنّها لا تتحمّل وجود شخص غريب في البيت.

حتّى إنّها لم تتعوّد كليّاً بعد على وجود مدبّرة المنزل السيّدة برغرهاوزن في البيت. ففي بعض الأحيان، تمنع حركة هذه الأخيرة إيمكي عن التركيز، ناهيك عن ميل السيّدة برغرهاوزن إلى الغناء. لقد حفظت عدداً كبيراً من الأغاني وأكثر ما يستهويها هو اللون الأوبرالي. ولحسن الحظّ أنّها اقتنعت أخيراً بوجوب خفض صوتها بعض الشيء على الرغم من أنّ الغناء بصوتٍ منخفض لا يعطيها اللّذة المنشودة.

تركت إيمكي الحاسوب، وقامت إلى الهاتف.

«ثالهايم تتكلّم».

«أنا ليلو كاهنويلر يا سيّدة ثالهايم، صباح الخير. إنّي المسؤولة عن مكتبة ريلنغهاوزن، وأودّ دعوتك إلى ندوة قراءة. مكتبتنا تقيم مهرجاناً أدبياً في كلّ سنة، وهذه السنة نتمنّى أن . »

twitter @baghdad_library

«أعذريني إذا قاطعتك، سيّدة. . ؟»

«كاهنويلر».

«سيّدة كاهنويلر، نعم. ولكنّي لا أتعاطى في موضوع تنظيم رحلات القراءة التي أقوم بها. أرجوكِ أن تتّصلي بوكيلتي فهي التي تهتمّ بهذه الأمور».

لم تقتنع السيّدة كاهنويلر بجواب الكاتبة، وأصرّت على نيل الجواب منها بطريقة مباشرة؛ الأمر الذي دفع إيمكي إلى إنهاء المخابرة قسراً.

الشهرة لها ثمنها. كتبت إيمكي. ونظرت إلى تلك الجملة وكأنّها تختصر كلّ معاني العالم.

حلمت طويلاً بالشهرة إلى أن تحقّق الحلم فجأةً. كان ذلك بعد أن نشرت كتابها الأوّل الذي كتبته من أجل إرضاء شغفها وليس لتحقيق نصر أدبيّ. كان عنوان الكتاب «**ذلك اليوم آتٍ**»، وموضوعه يبحر في أعماق النفس الإنسانيّة، واستحقّت عليه إعجاب النقّاد.

وبين ليلةٍ وضحاها، أصبحت محطّ الأنظار ومحور النقاشات الأدبية. طفحت مفكّرتها بالمواعيد. قراءات، جلسات نقاش، مقابلات، برامج إذاعيّة، حوارات متلفزة.

فجأةً بدا لها اسمها، إيمكي ثالهايم، كأنّه غريبٌ عنها. وباتت كأنّها تعيش في غير جسدها. لم يكن كلّ الاهتمام بها لذاتها، بل بالمرأة التي تحمل اسمها.

وجهها الآخر، تلك الكاتبة الناجحة التي تلاقي صعوبة في التعايش معها. فهي لا تزال إيمكي ثالهايم النظاميّة التي تجلس كلّ صباح لتكتب عدداً من الصفحات، ثمّ تقوم إلى المطبخ وتحضّر طعام

الغداء لابنتها؛ وبعد ذلك تهتمّ ببعض الأعمال وتعتني بالحديقة خلال فترة بعد الظهر، ثمّ تخرج للتسوّق. في المساء، كانت تهتمّ بغسل الثياب والكوي وترتيب البيت، وربّما كانت تجد بعض الوقت للقراءة.

كلّ شيء قد تغيّر الآن، حتى هي نفسها قد تغيّرت.

وكيلتها تشكّل درعاً واقياً لها من الضغوطات الخارجيّة؛ أمّا السيّدة برغرهاوزن، فمسؤوليّاتها قد توسّعت وباتت تقوم بجميع ألوان النشاطات عندما تستدعي الحاجة: الطبخ، الكوي، التسوّق، تعشيب الحديقة.

الكتابة أصبحت مهمّة إيمكي ثالهايم الوحيدة.

ولكنّ هذا الأمر أيضاً له تعقيداته. فهي لا تتمكّن من استنباط قصّة جديدة بكبسة زرّ، بل تحتاج إلى الحياة اليوميّة العاديّة بكلّ مفاجآتها لكي تستعيد شحن خيالها. ولكن، من أين لها أن تستقي الأفكار إن لم يكن من صميم الواقع؟

لا تحبّ إيمكي أن يرنّ جرس الهاتف مرّات عديدة في النهار، ولكنّها ترحّب بزيارات ابنتها جِنّا في أيّ وقت. إنّها لا تستطيع أن تتصوّر الحياة من دون جنّا.

البيت واسع جدّاً وشديد الهدوء في معظم الأحيان؛ وجود القطّتين لا يغيّر شيئاً. فكّرت إيمكي مرّةً باقتناء كلب، ولكن كيف سيتعايش الكلب مع رحلاتها الطويلة بعيداً عن البيت؟

تنفّست إيمكي الصعداء بعد أن استعادت حبل أفكارها، وقامت بمحو الجملة الأخيرة التي كتبتها، فهي غريبة عن النصّ.

* * *

twitter @baghdad_library

«عذراً». قالت، ونظرت إلى وجهه وابتسمت.

«لا بأس». أجاب، وأزاح بنفسه إلى طرف الممرّ الضيّق بين أتلام الفراولة. ليس مفاجئاً أن يصدمه أحد العمّال بجسده إبّان التنقّل بين النباتات المتشابكة. لكنّه يشعر أنّ بعض الفتيات يفعلن ذلك عمداً ويرمقنه بنظراتهن الجريئة؛ فيخال تلك النظرات قبلات مباشرة غاب عنها الحياء.

كيف يتمكّن بقيّة الرجال من محادثة وممازحة هؤلاء الفتيات اللّواتي لا يهمهنّ من الأمور سوى السعي وراء ذلك الهدف الأوحد؟

لا تقع في حبّ أحد، لأنّك ستبقى عبداً لمن وقعت في حبّه حتّى بعد أن تنهض من وقعتك.

لم يفهم ما قاله جدّه في ذلك الوقت. ولكنّ جدّته أحنت رأسها آنذاك وهي تفكّر. وإذا بها تظهر فجأةً ضعيفة ومثيرة للشفقة. شعر ناثانيال بيدها الممدودة إليه تحت الطاولة؛ ولكنّها سرعان ما سحبتها إلى الوراء وكأن تياراً كهربائيّاً لذعها عندما لامسته.

«انتبه حتى لا تقع كما وقعت أمّك. أفهمت؟»

نعم لقد فهم. ولم يفهم سوى في تلك اللّحظة أنّ أمّه وقعت في حبّ أحد الناس، وبقيت بعد ذلك تسعة أشهر، في انتظار ولادته، ذليلة ووحيدة.

أحسّ بموجة من الحرارة تجتاح جسده، وسمع صدى نبضه يتردّد في أذنيه، فقد شعر بخجلٍ شديد لم يدرك سببه.

ما لا يتعلّمه المرء من أوّل مرّة، لن يتعلّمه في حياته.

كان يودّ أن يسدّ أذنيه، أو أن يهرب. لم يكن مستعدّاً لسماع تلك القصّة؛ ليس بتلك الطريقة، ولا في تلك الساعة.

ولكنّ جدّه لم يأبه إلى انزعاجه. وراح يذكّي نار غيظه بألفاظ واتّهامات متتالية، قد تؤدّي به إلى انتزاع حزامه بعد قليل وجعل ناثانيال يدفع الثمن.

وضعت والدة ناثانيال طفلها وغادرت البيت في اليوم التالي.

غادرت من دون طفلها. من دون ناثانيال.

الساقطة. الكلبة. والتي توقّفت عن كونها ابنتنا منذ تلك اللحظة.

لم تعد أمّه إلى البيت إلا بعد وفاة جدّه؛ فقد دام غيابها زمناً طويلاً. عادت متزوّجةً من رجلٍ سقيم، يقضي أيّامه في المطبخ يعاقر الخمرة؛ ولا يرتدي من الثياب سوى بنطلون قطني رثّ، وقميصٍ من غير أكمام تكشف عن وشمٍ كبير على أعلى ذراعه اليمنى.

لا تترك الألياف المتبقية من الخضار واللحوم أسنانه المنخورة بسهولة، بل تبقى عالقةً بينها إلى أن يستخرجها بواسطة عود كبريت أو أحد أظفاره الطويلة التي غلبت عليها الصفرة من فرط التدخين.

لم يسكنا في منزل الجدّة، بل في شقّة استأجراها في الجوار.

كانت أمّ ناثانيال تعمل في شركة تأمين خلال النهار، وتقوم بأعمال السكرتاريا لبعض الشركات في المساء.

وفي كلّ فرصة سانحة، كانت تردّد: «أنا أيضاً لديّ كرامتي».

وحالما وجد زوج أمّه وظيفة حارسٍ في أحد المصانع، أصيب بالكبرياء وراح يسدي النصائح ويصدر الأوامر.

ولكنّ ناثانيال كان قد تعلّم إغلاق أذنيه منذ زمنٍ بعيد. في البدء، كان يتساءل عن السبب الذي جعل والدته تختار هذا الرجل زوجاً، أمّا الآن فبات غير مهتمٍّ بأيّ شيء على الإطلاق.

twitter @baghdad_library

الآن، وبعد أن أصبح شابّاً، لم يعد يهمّه من الأمور كلّها سوى الاستقلال بحياته، وفي أقرب فرصة ممكنة.

عندما أفاق ناثانيال من حلم اليقظة المزعج الذي استحوذ على خياله؛ نظر حوله فرأى أن جميع العمّال قد ذهبوا إلى فرصة الغداء، فأكمل ملء الصندوق الذي أمامه، ثمّ نقله إلى العربة قبل أن يتوجّه إلى غرفة الخلاء.

كان المكان خالياً على غير عادته، فلم تزعجه، كما في كلّ يوم، أحاديث الرجال التافهة وروائح عرقهم، والأصوات التي يصدرونها بوقاحة من تجشّؤ وغيره.

في المطعم الصاخب بالأصوات المتنافرة، أخذ ناثانيال وجبته المؤلّفة من سبانخ وبطاطا مهروسة وبيض مقلي، بعد أن أعطته المرأة المسؤولة عن عمليّة سكب الطعام حصّة إضافيّة مع غمزة من طرف عينها. عمرها يقارب الستين ولكنّها لا تشبه جدّته البتّة.

«شكراً». قال لها مبتسماً.

وكان ذلك كافياً لكي تعلو الحمرة خدّيها.

وفتّش بعينيه عن طاولةٍ شاغرة ليجلس وحده، متمتماً لنفسه: «هذا هو شأن النساء، لا فرق كم يبلغن من العمر!»

* * *

عندما تزور أمّي برول وتأتي إلى مكانٍ قريب من الشارع الذي نسكنه، كانت تمرّ لزيارتنا. جلسنا في المطبخ وتحدّثنا قليلاً وشربنا القهوة، وأكلنا من قالب الكاتو الذي كانت قد اشترته في طريقها إلينا. ثمّ غادرت بعد أقلّ من ساعتين. وكما في كلّ مرّة، أشعر أنها غير

سعيدة عندما تزورني في هذه الشقّة، لا لسبب معيّن، بل لأنّي اخترت هذا المكان ليكون منزلي الجديد.

وقبل أن تذهب، أخرجت ملفّاً برتقالي اللّون من حقيبتها الكبيرة وأعطتني إياه قائلة: «أودّ منك أن تتصفّحي هذه الأوراق. إنّه الفصل الأوّل من كتابي الجديد».

قلت: «بكلّ تأكيد. ليس لديّ أيّ شيء أفعله هذا المساء».

أخذت الملفّ منها ووضعته على الطاولة إلى جانب الصّحن. في هذه اللّحظة، دخلت كارو إلى المطبخ وألقت التحيّة.

«مادّة للقراءة؟» قالت كارو. «هل أتمكّن من مطالعتها أيضاً بعد جِنّا؟» وكانت قد قصّت شعرها مجدّداً، فبات شديد القصر. كانت تبدو وهي تقف أمامنا في تلك اللّحظة، بهيكلها النحيل والرقيق كأنّها طفلة.

هزّت أمّي رأسها إيجاباً. كانت تميل إلى كارو، حتّى أكثر من ميلها إلى ميرلي. لعلّ سبب ذلك يعود إلى أنّ كارو بشعرها القصير الأسود تشبهها إلى حدّ كبير. ولعلّ السبب يعود أيضاً إلى رابطٍ داخلي طبيعي بينهما، فغالباً ما كانت تراودني فكرة أنّ أمّي كانت في يومٍ من الأيّام مثل كارو.

«بشرط أن تقولي لي رأيك». قالت أمّي، وهي تمدّ يدها لتصافح كارو. «هل تعدينني؟»

أجابت كارو: «أعدك».

ودّعتنا أمّي وذهبت. أخذت الملفّ البرتقالي ودخلت إلى غرفتي. تمدّدت على سريري بعد أن أدرت زرّ الراديو وحملت قلماً بيدي. قرأت العنوانِ:

twitter @baghdad_library

جريمة في السكون.

قد يتغيّر هذا العنوان مراراً قبل نشر الكتاب. ولكنّي كتبت تعليقاً إلى جانبه: «حسناً، هذا يثير فضولي». وهذا ما تريده أمّي أن أفعل: أكتب رأيي أمام المقاطع التي أحبّها؛ وأقترح نصّاً بديلاً أمام تلك التي لا أحبّها.

فرصة التدخّل في ما تكتبه أمّي كانت بالنسبة إلى ميرلي وكارو حظّاً كبيراً أنعم به وتحسدانني عليه. ولكنّي كنت قد تعوّدت على ذلك ولا أعدّه تميّزاً. حتّى أنّ أمّي كانت ستعرض كلّ ما تكتبه عليّ لو أبديت استعدادي لذلك.

كنت أتعرّف عليها وعلى أفكارها ومخاوفها من خلال كلّ جملةٍ تكتبها. ولم أكن غائبة، أنا شخصيّاً، عن بعض الشخصيّات التي كانت تتحرّك بين سطورها، فغالباً ما وجدتُ لي أختاً توأماً هنا أو هناك.

في السابق، تمنّيت مراراً لو لم أكن ابنة كاتبة مشهورة؛ كنت أتمنى لو كانت لي أمّ عاديّة، لا أخاف أن تضع على لسان شخصيّاتها كلّ ما أقوله لها.

كنت قد قرأت في مكانٍ ما أنّ الفنانين عامّة لا يهتمّون من أين يستقون مادّتهم. ولا شكّ أنّ أمي لا تشذّ عن هذه القاعدة.

سمعت طرقاً على الباب، وسمعت صوت كارو تقول: «هل أدخل؟»

وضعت الأوراق جانباً، وقلت: «لا بأس، إن كان الأمر ضروريّاً».

لم تُجب كارو بكلامٍ فيه دعابة كعادتها.

بل دخلت إلى الغرفة، وأزاحت كومةً من الثياب كنت قد وضعتها فوق الكرسي استعداداً لغسلها. جلست كارو قبالتي وكانت تحرّك أصابع يديها بعصبيّة. وسألتني: «هل عشتِ في حياتك علاقة حبّ مع حبيب لا يريد منك شيئاً؟»

دقّ ناقوس الخطر في رأسي. لم تكن كارو لتطرح عليّ هذا السؤال من غير سبب. نظرت إليها بانتباه. إنّها تلبس قميصاً قطنيّاً طويل الأكمام على الرغم من الطقس الحارّ، ولقد تعوّدت فعل ذلك عندما ترغب في تغطية ذراعيها.

«ماذا تعنين؟» قلت. «هل إنّه لا يطلب منك أيّ شيء البتّة؟»

هزّت برأسها لتقول: «نعم».

لم أجد ما أقوله. ولكنّها سرعان ما أضافت: «في الواقع، طلب منّي أن لا أتكلّم عنه لأحد».

«ماذا؟ ماذا قال لك؟»

وراحت في الحال تجد له الأعذار. «لا شكّ أنّ لديه أسبابه، وأنا أحترمها على الرّغم من جهلي لها. أنا أكثر من اختبر الأوقات الصعبة في الحياة فكيف لا أتفهّمه؟»

«اسمعي يا كارو، ليس لأحد في العالم أن يمنعك عن فعل شيء».

فقالت مدافعةً: «لا، لم يمنعني. ولكنّه طلب منّي أن لا أخبر أحداً عن علاقتنا. قال إنّ علينا التأكّد أوّلاً».

«التأكّد، التأكّد من ماذا؟»

«التأكّد من صحّة حبّنا». وفي اللّحظة، عادت إليها حيويّتها. التمعت عيناها وتورّدت خدّاها. «أظنّ أنّه عانى من صعوبات كبيرة في

twitter @baghdad_library

حياته مثلي، ولم يعد يتحمّل خيبات أمل إضافيّة. لذلك فهو يريد أن يتأكّد».

«وما هو السبيل إلى ذلك برأيه؟»

«الانتظار».

«انتظار ماذا؟»

أحنت كارو رأسها، وهمست: «إنّه لا يلمسني. حتّى إنّه لا يقبّلني سوى كما يقبّل الأخ أخته».

«ولكنّه أمضى كلّ الليل هنا معك».

ضغطت كارو على أصابعها وشدّت، وطقطقت مفاصلها. وبدت لي شديدة التوتّر.

«هل فعل ذلك أم لم يفعل؟»

«نعم، ولكنّه لم يلمسني». ثمّ نظرت مليّاً إلى وجهي، وقالت: «أتظنّين أنّه يحبّ ممارسة الجنس مع الرجال؟»

«من أين لي أن أعرف يا كارو، وأنا لم أره في حياتي، حتّى إنّي أجهل اسمه!»

«وأنا أيضاً أجهل اسمه». قالت ذلك وامتلأت عيناها بالدموع.

«لا تعرفين اسمه؟ أنا لا أفهم شيئاً من كلّ هذا. ما هي هذه العلاقة الملأى بالأسرار؟ هل تخفين اسمك عنه أيضاً؟»

ضحكت، وقالت: «قلت له اسمي في أول لقاء».

«إذاً، كيف تنادينه؟»

سبحت نظراتها إلى البعيد، وأجابت: «أستنبط له اسماً جديداً في كلّ مرّة. أفعل ذلك وكأنّ الأمر مجرّد لعبة ستخوّلني الربح وكسب

حبّه عندما أتوصّل إلى اكتشاف اسمه الحقيقي». ثمّ ابتسمت كارو، ولكنّ ابتسامتها كانت حزينة.

قمت عن السرير واقتربت منها وأمسكت بيديها، وقلت: «أترغبين في نصيحتي يا كارو؟»

هزّت كتفيها، وتفادت النظر إلى عينيّ.

«اقطعي علاقتك به. لديّ شعورٌ غير مطمئن من ناحيته».

قامت عن الكرسي ببطء، ووقفت؛ فتاة صغيرة القامة، ونحيلة، وضائعة. وقالت بما يشبه الهمس: «لم يعد ذلك ممكناً الآن. فأنا غارقة في الحبّ من غير أمل بالخلاص».

«الحبّ الأبدي». وضحكتُ لأجعلها تضحك. ولكنّها لم تفعل.

«الذي لا يمحوه سوى الموت». قالت بهدوء. ثمّ فعلت شيئاً غريباً عندما أخذت وجهي بين كفّيها وقبّلتني على الخدّين. وقالت: «شكراً لصداقتك المخلصة يا جِنّا. كنت دائماً أبحث عن الفرصة المناسبة لأعبّر لك عن شكري».

ومن باب الغرفة، أومأت إليّ بيدها من جديد.

استقمت في جلوسي على السرير، وأخذت أوراق أمّي لمتابعة القراءة. سأفكّر مليّاً في موضوع كارو وصديقها ذي الأطوار الغريبة بعد أن أتصل بأمّي. وسأشدّ عزيمتها هذا المساء لكي لا تمعن في الاعتقاد بأنّها تقلّ عن غيرها من الفتيات جمالاً وجاذبية.

ولكن من الأفضل التركيز على كلّ أمرٍ في حينه.

ثمّ التقطت القلم مجدّداً لأكتب ملاحظة على هامش الصفحة الأولى من النصّ.

* * *

twitter @baghdad_library

أضاءت كارو الشموع التي كانت قد أثبتتها على جوانب المغطس. ومع أنّ نور النهار لا يزال ساطعاً، فهي تحبّ رؤية الشموع وهي تحترق. وعلى الرغم من قلّة دراهمها، فقد دفعت خمسة يورو ثمن قنينة من زيت العطر الخاصّ بالحمّام. وعندما أنزلت جسدها في الماء ارتفعت إلى أذنيها وشوشات الرّغوة الناعمة وراحت تداعب خيالها.

شاهدت ذات مرّة فيلماً عن كليوباترا، وأكثر ما علق في ذاكرتها منه، هو مشهد تلك المرأة الأسطورة في الحمّام؛ يا له من ترف! خادمة متخصّصة لكلّ مرحلة. واحدة للتدليك بالزيوت العطرة، وأخرى للفرك، وثالثة للتعطير، ورابعة لعمليّة ارتداء الملابس.

وكانت كليوباترا تأمر بأن تُمزج الزيوت في كلّ مرّة بنسب مختلفة تتماشى مع مزاجها في تلك الساعة.

تُرى هل من الصحيح أنّ كليوباترا كانت تستحمّ أحياناً بلبن الحمير؟

شعرت كارو بالرّغوة تدغدغ جلدها؛ الرّغوة البيضاء تُشعر بالانتعاش والبرودة ولكن الماء تحتها كان أزرق وحارّاً. أحسّت بقشعريرة خفيفة تسري فوق جلدها، ولكنّها انزلقت بجسدها إلى العمق وأغمضت عينيها.

كانت تفعل كلّ ذلك من أجله.. وتريد أن تكون جميلة من أجله؛ خصوصاً هذا المساء.

طال الانتظار. ألم يحِنْ الوقت بعد لقبلة حقيقيّة؟ أو لملامسة حقيقيّة؟

تخيّلت كيف ستشعر عندما يمرّ بيديه على حنايا جسدها. إحساسٌ لم تختبره في حياتها بعد.

لقد قصّت شعرها من أجله. وبعد أن تنتهي من الحمّام، سوف تضع الطلاء على أظافرها التي لم تزل قصيرة؛ فكارو لم تقلع عن عادة قضم أظافرها بعد.

وهمست: «من أجلِك. من أجلِك. من أجلِك!»

بأيّ اسمٍ ستناديه هذه الليلة. .؟

«عزيزي»، أو «حبيبي»، أو «حبّي الوحيد»؟

وابتسمت. في الماضي، كانت تظنّ تلك العبارات فارغة وعاديّة جدّاً.

ولكن، كان ذلك في الماضي الذي أصبح وراءها.

الآن، لا تريد النظر سوى إلى المستقبل.

وتريد أن تشعر بالسعادة وهي تفكّر بحياتهما معاً.

الحياة التي ستبدأ اللّيلة.

twitter @baghdad_library

(6)

فتحت باب الشقة فطالعتني ميرلي بوجهٍ غير مرتاح.

قلت: «ما الأمر؟» وتركت الحقيبة تطير من يدي وترسو في إحدى زوايا المدخل. أمضيت ليلة أمس في منزل الطاحونة لأنّي اشتركت في مقابلة تلفزيونيّة مع أمّي حيث أراد معدّ البرنامج إلقاء الضوء على حياتها العائلية، وهذا يعني بالطبع وجود صديقها تايلو ووجودي أنا أيضاً في المقابلة.

في العادة، لا أرغب كثيراً بمثل هذه المناسبات حيث أبدو وكأنّي عنصر ملحق بأمّي المشهورة. ولكنّي تحمّلت جلسة أمس أكثر من أيّ مرّة سابقة لوجود مصوّر وسيم جدّاً خلف الكاميرا. فكان لا بأس بالنسبة لي لو طالت المقابلة ونظر إليّ الشابّ الوسيم من خلال الكاميرا وقتاً أطول.

انتهينا من المقابلة في ساعة متأخّرة، فأقنعتني أمّي بقضاء الليل في منزل الطاحونة والاستمتاع بتناول طعام الفطور معاً في الصباح.

لم تكن فكرة الفطور فكرة عظيمة؛ فوالدتي وصديقها يستيقظان باكراً؛ بينما أفضّل شخصيّاً عدم مغادرة السرير قبل العاشرة. ولكنّي استيقظت مع العصافير وبصعوبة، فأضحى ذلك الفطور الموعود نوعاً من العقاب.

بعد الفطور، جلس تايلو لقراءة الصحيفة الصباحية، ودعتني أمّي لأدردش معها، وقصدها من ذلك مناقشة ما أطلعتني عليه من روايتها الأخيرة. ولكنّ ذلك كان بالتأكيد أبعد الأمور التي أميل إلى القيام بها في تلك الساعة المبكرة.

عندما غادرت بيت الطاحونة، كنّا نحن الثلاثة قد امتلأنا حتى الشفة من ذلك الفطور العائلي الخاصّ وما رافقه. وفي المدرسة، وجدت في انتظاري النقاط غير المشجّعة التي حصّلتها في امتحان الرياضيّات الأخير، فواسيت نفسي بأمر وحيد وهو أنّ تلك النقاط قد وصلت أخيراً إلى حدّها الأدنى، ولن تتمكّن من تخطّيه نزولاً في المستقبل.

«لم تعد كارو إلى البيت». قالت ميرلي.

سرت نحو المطبخ لأتناول شيئاً أشربه، وأجبت: «وما الغرابة في ذلك؟»

«لقد أمضت الليل كلّه في الخارج. سريرها ما زال مرتّباً».

«ما رأيك لو تختارين المباحث مهنةً لكِ يا ميرلي؟ خصوصاً أنّك لن تحتاجي إلى النجاح في الشهادة الثانويّة لتقومي بهذا العمل».

«لا داعي للمزاح». قالت ميرلي. ثمّ أخفضت صوتها وكأنّها تخاف من التنصّت، وقالت: «أنا جادّة في قلقي. هل أنذَرتكِ أنّها ستقضي الليل في الخارج؟»

قلت: «كلا. ولكنّ ربّما تغيّرت الظروف..» وفكّرت في تلك اللّحظة بما دار بيني وبين كارو من حديث. فقلت في نفسي: «لعلّ كارو نجحت هذه المرّة بإقناع صديقها بالتراجع عن تحفّظه».

«وليس معها أيّ من أغراضها المدرسيّة أيضاً».

twitter @baghdad_library

«توقّفي ميرلي عن هذا الكلام. أنتِ تعلمين أنها نادراً ما تذهب إلى المدرسة».

أدرت زرّ ماكينة القهوة وسألتها: «هل ترغبين بفنجان كابوشينو؟»

«أفضّل فنجان إكسبرسّو، شكراً». جلست ميرلي إلى الطاولة ورفعت قدميها أمامها فوق الكرسي، وأسندت ذقنها إلى ركبتيها. كانت تلبس جوارب حاكتها بنفسها؛ فهي تحبّ ارتداء الجوارب في البيت صيفاً وشتاءً وهذا يعطيها طابع الفتاة المرهفة والعمليّة.

قلت: «هل تأتين معي إلى السينما هذا المساء؟»

هزّت برأسها.

«ميزانيّتي لا تسمح بذلك».

«هل تقبلين دعوتي؟»

«حسناً، قبلت».

لم أكن أتوقّع أن تقبل ميرلي دعوتي، لأنّها حسّاسة في ما يتعلّق بموضوع المال. وقد تجد سهولة في قبول دعوة إلى السينما من كارو أكثر من قبول دعوتي، لأنّها تعتقد أنّ المال الذي في يد كارو نظيف؛ ولكنّ مالي، الذي مصدره أمّي، فمدنّس بالظلم الاجتماعي.

إنّها ضدّ مبدأ الثروة الفرديّة طالما ليس جميع الناس أغنياء. قد تشهد ميرلي انهيار الأنظمة الاشتراكيّة جميعها الواحد بعد الآخر، ولكنّها لا تغيّر عداءها للنظام الرأسمالي.

كنت معجبة بميرلي لأنّ ممارستها الواقعية تتطابق مع آرائها. إنّها تناضل بشراسة من أجل حماية الحيوان؛ وكادت تدخل مرّات عديدة إلى السجن بسبب مواقفها واشتراكها في التظاهرات. كما كنّا قد تعوّدنا في الشقّة على إيواء الناشطين في سبيل حقوق الحيوان

والهاربين من السلطة فيمكثون في الخباء عندنا مدّةً من الوقت ريثما يجدوا أمكنة آمنة أخرى يلجأون إليها. وقبل موعد التظاهرة، كانت ميرلي ورفاقها يقضون الليل في كتابة المناشير مفترشين أرض المطبخ، وهناك في زوايا شقّتنا ترقد كدسات من المنشورات المعدّة للتوزيع.

وغالباً ما كنّا نستيقظ صباحاً، لنجد غرباء في شقّتنا كانوا قد مكثوا عندنا بعد انتهاء الاجتماع في تلك الليلة. فإذا بهم يشاركوننا فطورنا ويشربون القهوة من ماكينة صنع القهوة التي تخصّنا.

والآن، أليس من المستغرب أن تقلق ميرلي على غياب كارو طوال اللّيل، مثل الدجاجة الخائفة على صيصانها؟

«لا أدري ما السبب يا جنّا، لكن شعوراً غريباً يساورني ويجعلني قلقة».

«مجدّداً؟» قلت في نفسي. «إنّها ميرلي التي لا تتغيّر». كنّا، كارو وأنا، متعوّدتين على سماع ميرلي وهي تقول «لديّ شعور غريب..» وغالباً ما نكتشف أنّها كانت على حقّ. كما كنّا نخاف من الأحلام التي تسردها علينا لأنّها كثيراً ما كانت تتحقّق.

أعطيتها فنجان القهوة وقلت بعدما جلسنا: «أيّ شعورٍ غريب تتحدثين عنه؟»

«شيء مثل. لا تقلقي يا جنّا، ولكنّي في الحقيقة أتمنى لو أرى كارو في باب المطبخ الآن». شربت ميرلي القهوة، وانتصبت على قدميها في الحال. وأضافت: «لعلّ السبب وراء ازدياد هواجسي هو أنّي أعاني من شدّة الضغوط في هذه الأيّام. عليّ الآن أن أذهب إلى العمل، فقد وعدت كلوديو بأن أعمل ساعات إضافيّة اليوم».

في المدّة الأخيرة، باتت ميرلي توافق على العمل ساعات إضافيّة

twitter @baghdad_library

كثيرة، ما حدا بكارو وبي إلى الشكّ بأنّها وكلوديو منسجمان جدّاً. فهي لا تتوقّف عن ذكر اسمه بحماسة. «كلوديو هذا. وكلوديو ذاك..» وفي الأسبوع الماضي، عندما تلقّت باقة من الزهور، سارعت إلى إخفاء البطاقة لكي لا نقرأ، كارو وأنا، ما كتِب عليها.

والحكاية كلّها، هي أنّ كلوديو مرتبط بعلاقة خطوبة مع فتاة في سيسيليا؛ وميرلي تقليديّة في أمور الحبّ.

وبعد دقائق معدودة، أغلقت ميرلي الباب وراءها وانحدرت بسرعة على الدرج. إذ ذاك، أحسَسْتُ بالصمت ثقيلاً، وساورني شعورٌ غير مريح.

دخلت إلى غرفتي وأدرت زرّ الراديو، وأخفضت صوت الموسيقى؛ ثمّ استخرجت القصّة التي كان عليّ قراءتها تحضيراً لامتحان اللغة الإنجليزيّة. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى غرقت في القراءة، ونسيت أمر ميرلي ومشاعرها الغريبة.

* * *

«أشكر اهتمامك بتخصيص بعض الوقت لاستقبالي والإجابة عن أسئلتي على الرغم من مسؤولياتك المتعدّدة». بادرت إيمكي ثالهايم إلى القول، قبل أن تأخذ مقعدها أمام بيرت ملزيغ في مكتبه. راقبها ملزيغ فيما كانت تُخرج دفتراً من حقيبتها، وعلبة صغيرة فتحتها وأخذت منها قلماً فضيّاً ثميناً.

كان يتوقّع أن تكون هذه المرأة بارعة في الكلام؛ ولكن ما لم يتوقّعه، هو أن تكون على هذا القدر من الجمال. لقد سبق وشاهد صورها في المجلّات، ولكنّه اكتشف أنّ الصور لم تفِها حقّها. كان عليه مراقبة نظراته لكي لا تفضح إعجابه الشديد.

إيمكي ثالهايم كانت في صدد البحث عن معلومات مفيدة لروايتها الأخيرة. لم تشرح له بنفسها عن سبب زيارتها؛ فقد علم ملزيغ ذلك من خلال رئيسه.

«لدى تلك السيّدة ثالهايم صداقات مع كبار الناس. تعلم ما أقصده. أعطها ما تريد؛ ولا تنسى أن تتصرّف بلباقة وجاذبيّة. استعمل مواهبك في التمثيل قليلاً. أنت تعلم ما أعنيه».

كان بيرت يفضّل أن تأتي إليه إيمكي ثالهايم مباشرةً، وليس من طريق رئيسه. إنّه يكره هذه الذهنيّة الانتفاعيّة التي تقول ما معناه: «إن تحكّ لي ظهري هذه المرّة، أحكّ لك ظهرك في المرّة القادمة».

«قهوة؟ أو تفضّلين الشاي؟» أراد الدخول في صلب الموضوع مباشرةً. لن يخضع لتلك التعليمات السخيفة؛ كفى أنّه سيجيب عن أسئلتها لا لشيء سوى لأنّها غنيّة ولديها أصدقاء في المراكز الكبيرة.

«شكراً، فنجان من القهوة».

«مع الحليب أو السكر؟»، وتابع في نفسه: «إنّها تحافظ على وزنها كما يظهر من لياقة مظهرها، أراهن أنّها لا تتناول سوى المحلّي الاصطناعي».

«مع السكر إذا سمحت».

قام وأحضر فنجانين من القهوة. أحدهما مع الحليب والآخر محلّى بالسكّر. لم ينجح في تقديره حول نوع السكر هذه المرّة، على الرّغم من أنّه يصيب في توقّعاته في أكثر من تسعين بالمئة من المرّات. فمن ناحية كونه رجل شرطة، تعلّم تكوين فكرة سريعة عن الشخص الذي أمامه ومنذ النظرة الأولى. امتلاك عين قادرة على

twitter @baghdad_library

التمييز السريع يعدّ أمراً غاية في الأهميّة في إطار مهنته. ففي بعض الأحيان لا تتاح الفرصة ذاتها مرّتين.

وأخذ الاثنان يرتشفان القهوة بصمت، ويسترقان النظر إلى بعضهما بين رشفةٍ وأخرى. وفكّر بيرت: إنّها تنظر إليّ وكأنّها تدرس شخصيّتي؛ لعلّها تتحقّق إن كنت مناسباً لأكون إحدى شخصيّات رواياتها. شعر بالانزعاج لهذه الفكرة، واستطرد: ماذا لو كانت قادرة على قراءة أفكاري؟

وقال، وهو يستوي في جلوسه ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى: «حسناً، ما هي المعلومات التي تبحثين عنها؟»

روايتها الجديدة تدور حول الجريمة بدافع الجنس؛ والكمّ الأكبر من أسئلتها تتناول جريمة قتل سيمونا ردليف. ثمّ تكلّمت عن أوجه الشبه بين جريمة قتل سيمونا والجريمتين اللّتين وقعتا في الشمال العام الماضي. كانت تتكلّم عن هذه الأمور وكأنّها أمور طبيعيّة وعاديّة.

«لا أستطيع الإدلاء بمعلومات تتعلّق بجرائم لا تزال قيد التحقيق. أرجو أن تتفهّي هذا الأمر». قال ملزيغ.

هزّت برأسها معبّرةً عن تفهّمها، وقالت: «ربّما تستطيع تزويدي بمعلومات عن جرائم سابقة أغلِقت ملفّاتها. فهذا يفيدني جدّاً في عملي. وما يهمّني بصورة خاصّة هو معالم شخصيّة القاتل بدافعٍ جنسي، مع العلم بالطبع أنّه من الصعب إعطاء معلومات تنطبق على جميعهم. وفي جميع الأحوال..» وسَرَت ابتسامة ناعمة عبر محيّاها، «في الواقع، إنّي أرغب بسماع كلّ ما يمكنك الإفصاح عنه».

صراحتها آسرة. لم يعد أمام بيرت خياراً آخر سوى التكلّم بحريّة عن عدد من القضايا. ثمّ بدأ الكلام، وراحت تسجّل على دفترها.

وبين الفينة والأخرى، كانت تستوقفه لتتأكّد من معلومة، أو لتطرح سؤالاً أسئلتها ذكيّة تُظهر فهمها الدقيق للمواضيع المطروحة. وحتّى فضولها، فقد كان مقبولاً ومفيداً.

كان يستمتع بمراقبة وجهها، فقد لفتته غزارة المشاعر التي تنعكس من خلاله في حركة مرنة ومستمرّة. وفكّر أنّها قد تجهل كم هي شفافة، وواضحة لمن يراقبها.

وبعد مرور ساعتين، وتناول فنجانين إضافيّين من القهوة، وقفت ومدّت له يدها مصافحةً؛ «شكراً يا حضرة الضابط ملزيغ، ليس لأنّ المادّة التي أطلعتني عليها مفيدة جدّاً في عملي فحسب، بل لأنّي استمتعت في التحدّث إليك».

«هذا لسان حالي أيضاً». وأخذ يدها الرقيقة والباردة وبقيت في يده أكثر بقليل من المعتاد. «إن خطر في بالك مزيداً من الأسئلة، يمكنك الاتصال بي في أيّ وقت».

بدا عليها الرّضى. ابتسمت له وطال الابتسام أيضاً أكثر بقليل من المعتاد، أو بحسب ما خيّل إليه في تلك اللّحظة، ثمّ خرجت من الباب بخطّى خفيفة وسريعة.

وقف في وسط الغرفة لبضع ثوانٍ، ثمّ جلس إلى مكتبه ومدّ يده إلى الهاتف وطلب رقم بيته. أراد أن يكلّم مارغو، لا لأمرٍ معيّن ، بل لأنّه شعر بحاجته إلى سماع صوتها.

* * *

نزلت إيمكي في المصعد إلى الطابق الأرضي من المبنى، وقطعت المدخل ذات البلاط الأسود اللاّمع ثم خرجت.

ذلك الرجل ليس مثل رجال الشرطة الآخرين؛ إنّه يبدو منفتحاً

twitter @baghdad_library

وحسّاساً. عيناه تشهدان على أنّه رأى ويلات كثيرة في حياته. ولكن أكثر ما استوقفها كانت أصابعه الطويلة والمرنة التي تذكّر بعازفي البيانو وأظافره المقلّمة التي تحبّها في الرجل. لاحظت إيمكي خاتم زواجه البسيط ولحيته التي تنمو بسرعة؛ فالوقت ما زال في منتصف النهار وها هي تبدو حاضرة لحلاقة ثانية. وثيابه، فتدلّ بلا شكّ على ذوقه الرفيع. فقد كان يرتدي سروالاً قطنياً بنيّ اللّون وسترة بيضاء من قماش الكتّان الناعم، وتحتها قميصاً ذات لون لحمي مفتوحاً عند القبّة. لون بشرته يميل إلى البرونزي قليلاً. شعره غامق اللّون وتنحدر منه بعض الخصلات المتموّجة فوق جبينه. أمّا ابتسامته فكانت المشعّة، بحسب ما أحسّته إيمكي، تضيف إلى نور الغرفة نوراً إضافيّاً. إنّه رجلٌ جذّاب على العموم، أمّا مكتبه فبسيط إلى حدٍّ كبير.

لم يضع على مكتبه صور زوجته وأولاده كما يفعل بعضهم. ربّما لأنّه لا يحتاج إلى الشعور بجوّ المنزل لكي يتمكّن من العمل. بل لعلّ العكس صحيح.

«توقّفي ولا تسترسلي بأفكارك». قالت لنفسها. «أليست عادة نسج قصّة حول كلّ شخص تلتقين به واحدة من عادات المؤلّفين السيّئة؟» ثمّ راحت تفتّش عن سيّارتها في الموقف المزدحم، فقد أهملت الانتباه لدى وصولها إلى المكان الذي أوقفت فيه سيّارتها.

قالت لها جنّا منذ زمن غير بعيد وبأسلوب انتقادي، أنّها باتت تقيّم مشاعر الناس، وحتّى مشاعرها الخاصّة، تبعاً لفوائد استخدامها في الكتب. «أجيبيني بصدق». قالت لها «ألا تتعاملين مع الناس وكأنّهم حشرات في المختبر. كأنّك تضعينهم تحت عدسة الميكروسكوب وتشرّحينهم لتجدي عندهم ما هو مفيد لرواياتك؟»

جنّنا قاسية في بعض الأحيان. وهي ما زالت تجهل كم العيش صعب في هذه الدنيا لولا متنفس الكتابة. فمن خلال القصص تقلّ المخاوف الحقيقيّة رعباً، والآلام عذاباً.

إضافةً إلى أنّه من حقّ وواجب مؤلّفي الكتب أن يسجّلوا في كتبهم الملاحظات التي يقتبسونها من الواقع. ولكن هناك بالطبع حدود لهذا العمل، وإيمكي تحترمها. كما أنّه ليس مقبولاً أن يتعرّف الكاتب إلى أعماق الناس، ويسرع إلى عرض خباياها أمام قرّائه على ’صوانٍ من فضّة‘

«بيرت ملزيغ!» تمتمت إيمكي، «أين حدودك؟ وإلى أيّ درجة ستدعني أصل في اكتشاف أعماقك؟ أين ستبدأ ببناء الحواجز؟»

كان متحفّظاً في البداية، ولم يتفوّه بأي معلومة حول الجريمة الأخيرة التي يحقّق فيها. وعندما اقتنع أخيراً بالفكرة، وشرع بالكلام، لم يتطرّق سوى إلى الجرائم التي طويت ملفّاتها منذ زمن. جريمة برونو بوبيكا الملقّب بوحش آلتونا؛ وأدولف سيفد، وجيرغن بارتس اللذين قاموا بقتل الصبيان المساكين. أُعدم الأوّل، ومات الثاني خلال عملية الإخصاء الجراحيّة التي طُلب بأن تُجرى له.

كلّ قصّة تجرّ وراءها قصص. وتوالت الأسماء والحوادث على لسانه وتسابقت، فانشغلت زائرته بكلّ ذلك عن الجريمة الأخيرة التي كانت تستحوذ على اهتمامها في الأصل.

«رجلٌ ذكي». تمتمت وابتسمت. طبعاً ليست هي الوحيدة التي تتمكّن من التلاعب بأفكار الغير بواسطة الكلام. «ويمكنه أن يكون محاضراً». إنّه بلا شكّ قادرٌ على جذب انتباه المئات والاستحواذ على

twitter @baghdad_library

عقولهم. ولكن لو عرض عليه القيام بمثل هذا العمل، هل سيرحّب به يا تُرى، أم سيخافه؟

لقد جرّبت هي نفسها الحالتين. لقد تحقّقت بالفعل من قدرتها على تحريك الجماهير وتغيير اتجاه تفكيرهم بواسطة الكلمات. وتحقّقها من ذلك أعطاها شعوراً بالقوّة ولكنّه أخافها في الوقت نفسه. وسألت نفسها إذ ذاك إن كانت تنتمي إلى تلك الفئة من الناس الذين يسيئون استعمال القوّة؟

أخيراً، وجدت سيّارتها وجلست خلف المقود، ثمّ أخرجت رأسها من الشباك ونظرت إلى أعلى. كانت السماء زرقاء صافية إلا من بعض الغيوم الخفيفة. انشغالها الكبير بالكتابة يكاد يفقدها ارتباطها بالواقع.

ورحلات القراءة لا تعوّض عن هذا النقص؛ فخلالها تكون محاطة بعدد كبير من الناس، إضافةً إلى أنّها لا تكاد تصل إلى مدينة معيّنة حتى تتركها وتنطلق إلى أخرى.

كانت جنّا تملأ عليها حياتها بحيويّتها وأخبارها، إلاّ أنّها لا تسكن معها الآن.

وانتقال جنّا من البيت هو الذي دفعها للشروع في علاقة عاطفيّة مع تايلو. يتمتّع تايلو بالذكاء والاستقلاليّة؛ وعندما يكونا معاً يوجّه كلّ اهتمامه إليها مع أنّها لم ترتح لتلك العلاقة في البدء لأنّه طبيب نفسي وتشعر في بعض الأحيان أنّه يراقبها ويدرس ردّات فعلها، خصوصاً عندما يتخاصما.

فكّرت في الذهاب إلى البيت؛ ولكنّها لا تريد العودة إلى جوّ السكون مباشرةً، فحوّلت وجهة سيّارتها إلى الأسواق حيث ستتنزّه بين

المخازن والمطاعم وأماكن التسلية فتشرب فنجاناً من القهوة أو الشاي وتتسلّى بمراقبة المارّين، وربّما تشتري شيئاً جميلاً.

لم تتعوّد بعد على كونها غنيّة، ونزهة التسوّق لا تزال مثيرة بالنسبة إليها، وشراء الحاجيّات الجديدة ما زال يساعدها في الترويح عن النفس. وصلت إلى الأتوستراد، وانطلقت مسرعة. إنّها امرأة حرّة، وآن الأوان لأن تستمتع بحريّتها.

* * *

فوجئ بالدموع المنهمرة على خدّيه؛ فهو لم يبكِ منذ وقت طويل. ومنذ وقتٍ طويل لم يشعر بألمٍ مثل هذا!

كان مخطئاً طيلة تلك المدّة.

كان وجهها صبوحاً كوجه السيّدة العذراء؛ وشعرها كشعر طفلٍ صغير؛ والبراءة ظاهرة في عينيها.

هل خدعته عمداً؟ أم أنّه تغفّل عن بعض الإشارات التي كان يجب أن يراها؟!

twitter @baghdad_library

(7)

كانت ممدّدة هناك مثل الفتيات الأخريات. وجسدها، مثلهن، مطعوناً سبع طعنات. شعرها قصير، ويبدو أنّه كان قصيراً من قبل، ولا وجود لخصلاتٍ منه منثورةً هنا وهناك. وعيناها الواسعتان موجّهتان إلى السماء. نظرة تنمّ عن الشعور بالمفاجأة. هذه النظرة التي رآها بيرت ملزيغ في الجرائم الأربع، وكانت الأشدّ إيلاماً بالنسبة إليه.

«الضحايا!» كلمة طالما تردّدت على الألسن وردّدها بيرت نفسه آلاف المرّات بطريقة طبيعيّة. ولكنّنا في هذه الأيّام، هل بتنا نقدّم ضحايا آدميين إلى الآلهة!؟

«نحن بحاجة لاختيار تعبير آخر، تعبير دقيق لا يحتمل الخطأ». فكّر ملزيغ قبل أن يتوجّه عائداً إلى سيّارته. عليهم الآن انتظار نتائج التشريح الشرعي. وفي هذه الأثناء، هناك أمور كثيرة يجب القيام بها، وأجهزة الأمن الجنائي بدأت في عمليّات البحث من جديد.

أصعب المهمّات عليه كانت مهمّة نقل الخبر إلى العائلة. لا يمكنك أن تتحضّر بالشكل الكافي لما سيواجهك. فكأنّك تسبح في مياهٍ عكرة ولا تعلم ما سترى أمامك.

قسوة الكلمات الأولى التي ستتفوّه بها. وجوههم الحائرة؛

شحوبهم المفاجئ؛ ثمّ تأتي ردّة الفعل. بعضهم يجهش في البكاء؛ وبعضهم يُغمى عليه، وآخرون يتجمّدون في مكانهم.

في بعض الأحيان، تمنى بيرت لو كان أكثر قسوةً، أو بعبارة أخرى، أكثر تمسّكاً بمقتضيات مهنته القاسية بطبيعتها. يعلم أنّ كثيرين من زملائه لا يتأثرون مثله. فكأنّهم ينجحون في بناء دروعٍ واقية لحماية قلوبهم. يحسدهم على ذلك، ولا يعلم السبيل إليه.

في الاجتماع الذي جرى في الصباح، تردّدت مرّات عديدة على لسان رئيسه عبارة «مجرمنا». يعلم بيرت أنّها عبارة عاديّة يلجأ إليها رجال الشرطة عادةً. ولكنّه، وعلى الرّغم من ذلك، شعر بالغضب وكاد أن يثب على الرئيس ويهزّه بكتفيه.

«مجرمنا» قولٌ يوحي بوضعٍ شاذّ ومرعب. لماذا لا يقولون «فتاتنا المقتولة»؟ هل هم منحازون إلى القاتل؟

ما زالوا يجهلون هويّة الضحيّة. إنّها شابّة مثل شبيهاتها السّابقات. وربّما تصغرهنّ سنّاً فوجهها يُشبه وجه طفلة.

أيّ قسطٍ من الجمال والشباب والقوّة يخسر العالم مع كل جريمة!؟ فكّر بيرت. كم يخسر العالم من الحبّ والأمل والسعادة بسبب العنف!

لا بدّ لأحد مثل إيمكي ثالهايم من أن تكتب عن هذا الأمر. يجب أن يعي الناس ذلك جيّداً حتّى لا ينسوا من جديد.

أظافر الفتاة قصيرة جدّاً. لا شكّ أنّها تعوّدت قضم أظافرها. كان بيرت قد لاحظ ذلك فوراً وآلمه هذا الأمر بنوعٍ خاصّ؛ فهو نفسه كان يقضم أظافره في صغره، وحاول والده منعه عن ذلك مرةً بواسطة

twitter @baghdad_library

تغطيس أصابعه بالخردل الحارّ، وأخرى من طريق دهنها بمادّة لاصقة. كانت يداه تُربط في بعض الأحيان إلى حافّتي السرير، وعندما يتمرّد ويعود إلى قضم أظافره، كان يُجبر على الوقوف تحت مرشّة الماء البارد في منتصف اللّيل.

وغالباً ما كان يعاقب بالضرب أيضاً.

وحتى هذا اليوم، ما زال والده يعتبر الضرب تأديباً لا بدّ منه.

إهمال العصا، يؤدّي إلى فساد الولد.

هل عاشت هذه الفتاة قصّةً مماثلة لقصّته؟ خبرة بيرت الطويلة في الشرطة جعلته يتعرّف إلى ضحايا العنف الجسدي بشكلٍ حدسي وتلقائي، وهي تقول له إنّ الجواب «نعم».

وفي طريق عودته إلى المكتب كان يحاول إيجاد الرابط المشترك بين الفتيات الأربع. كان متأكّداً من وجود هذا الرابط، ولكنّه يجهل ماهيّته.

* * *

بعد نقاشٍ طويل قرّرنا، ميرلي وأنا، تبليغ الشرطة عن اختفاء كارو. لقد حاولنا عبثاً الاتصال بعائلتها على الرّغم من شكّنا بأنّها قد ذهبت لزيارتهم.

أخيراً، انتقلت عدوى القلق من ميرلي إليّ. كنّا في الشقّة قد اتفقنا سابقاً بأنّه لو أرادت إحدانا قضاء اللّيل خارج الشقة يجب عليها إخبار رفيقتيها بذلك؛ حتّى أنّها لو نسيت أن تفعل ذلك قبل الخروج، يجب أن تتصّل لتنذرنا بغيابها المتوقّع هاتفيّاً. انقضت اللّيلة الثانية على غياب كارو ولم نسمع أيّ خبرٍ منها. طلبنا هاتفها مراراً وتكراراً، ووجدناه مقفلاً.

توجّهنا إلى مركز الشرطة لنبلّغ عن غيابها؛ وراحت الأمور تتوالى تلقائيّاً.

قام الشرطي الذي قابلنا باتصال هاتفي؛ وطلب منّا الانتظار ريثما يقابلنا ضابط المباحث ويطرح علينا بعض الأسئلة. ثمّ دعانا للدخول إلى إحدى الغرف التي لا تحتوي سوى على طاولة واحدة وعدد من الكراسي، وطلب منّا الجلوس وسألنا إن كنّا نرغب في شيءٍ نشربه. وكان جوابنا «كلا».

«المباحث؟» قالت ميرلي. «لماذا المباحث؟»

«من الأفضل انتظار الضابط الذي سيشرح لكما». قال الشرطي قبل أن يخرج من الغرفة.

جلسنا في تلك الغرفة الكئيبة ننظر بِحيرة إلى الجدران الصفراء تارةً وإلى بعضنا تارةً أخرى.

«لماذا المباحث؟» قالت ميرلي مجدّداً، والرّعب ظاهرٌ في عينيها. كانت تتنفّس بسرعة وبصعوبة كأنها أصيبت بنوبة ربو مفاجئة. في الخارج، ساد جوٌّ من الصمت تقطعه بعض الهمسات ورنين جرس الهاتف من حينٍ إلى آخر.

لا أذكر كم انتظرنا في ذلك الصمت الحائر قبل أن يدخل إلى الغرفة رجلٌ لا يرتدي بزّة رسميّة، بل ثياباً عاديّة. مدّ يده وصافحنا وقدّم نفسه. إنّه ضابط المباحث الذي كنّا في انتظاره، ويُدعى بيرت ملزيغ.

وبدأ الضابط يطرح علينا أسئلة من كلّ نوع، وينظر إلينا بعينين مزمومتين فيما كنّا نجيب. فتصوّرت أنّ مشهدنا في تلك الساعة كان يشبه ما نراه في السينما.

twitter @baghdad_library

انتابني إحساس باطني غير مفهوم ينذر بحدوث فاجعة، وتقلّصت معدتي وتقطّعت أنفاسي. ولكنّي سرعان ما ألقيت اللوم على أفلام الرّعب العديدة التي شاهدتها في حياتي.

لم تكن حالة ميرلي أفضل من حالتي. رأيت وجهها يزداد نحولاً وعينيها تشتدّ اسوداداً واتساعاً. وشعرت بيدها التي امتدّت لتمسك بيدي باردة ودبقة.

كان الضابط لطيفاً وطلب من معاونيه أن يحضروا إلينا فنجانين من الشاي الخفيف. شربت الشاي وكان شديد الحلاوة، ولكنّه كان مفيداً في تلك الساعة ويساعد على الاسترخاء مثل شراب الشوكولا الذي كنت أشربه في طفولتي بعد العودة من اللّعب في أيّام الشتاء.

ولكنّ الضابط كان يقصد تحضيرنا لأمرٍ معيّن. ثمّ سألنا إن كنّا على استعداد للتعرّف إلى فتاة كانوا قد وجدوها ذلك الصباح.

«فتاة ميتة؟»

قالت ميرلي غير مستوعبة لما سمعته. وابتلعت كلّ الشاي دفعةً واحدة، وتحوّل الخوف الذي في عينيها إلى هلع.

لم يكن جوّ الغرفة حارّاً، ولكنّي كنت أتعرّق؛ ولاحظت قطرات من العرق فوق شفة ميرلي العليا أيضاً.

«نعم»، قال الضابط وهو يرقُبُنا بنظراته. شعرت بالامتنان لأنّه سألنا على الأقلّ إن كنّا مستعدّتين للتعرّف إلى الفتاة ولم يقل إنّنا مجبرتان على فعل ذلك.

رأيت ميرلي تقول بعينيها الجاحظتين «كلا»، ولكنّها تهز رأسها بالموافقة.

تجمّدتّ في مكاني. أمسكت ميرلي بيدي وشدّتني لكي أقف

وأمشي. فأحسست بركبتيّ ضعيفتين؛ ورحت أسير كأنّي لا أطأ الأرض؛ وربّما كانت الأصوات جميعها قد صمتت من حولي، أو أنّ دماغي كان قد أقفل أبوابه دونها.

ركبنا السيّارة إلى مكانٍ قريب. لم ينبس أحدٌ بكلمة. ثمّ نزلنا وقطعنا موقف السيّارات. سمعت صوت أداة حفر في العمق، وصوت كلب ينبح في مكانٍ آخر. وأوصد الباب.

أمسكت بيد ميرلي. كانت باردة كالثلج برغم حرارة الجو؛ أبرد من يدي.

«يا لهذه اللّعنة!» تمتمت ميرلي بصعوبة، وكأنّ لسانها المتلعثم يكاد يلتصق بأسنانها.

شددتُ على يدها من غير أن أجد شيئاً أقوله. كنتُ أرتجف بشدّة إلى درجة أنّي رحت أطبق فكيّ بقوّة لكي أمنع أسناني من الاصطكاك.

دخلنا إلى مبنى قديم ومشينا في ممرٍّ طويل جدّاً خلته لا ينتهي. جدرانه رطبة وإضاءته الباردة توحي بالمرض. كنّا نمشي وصرير خطواتنا يصمّ الآذان في صمت ذلك المكان الموحش.

استغربت للوهلة الأولى أن تكون الفتاة مغطّاة بشرشفٍ أخضر وليس أبيض؛ وأحسست بدمي ينبض في أذني وحنجرتي. فتوقّفت قدماي عن التقدّم في ذلك الاتجاه، وضعفت ساقاي تحت جسدي الذي ازداد ثقلاً.

وشعرت بأصابع ميرلي في جوف يدي تتقلّص وترتجف، فشددتُ قبضتي عليها. ماذا كنت سأفعل من غير ميرلي؟

ولأوّل مرّةٍ منذ زمنٍ طويل شعرت بحاجة إلى أمي. وتذكّرت ما

twitter @baghdad_library

يقال أنّ الجنود الذين يسقطون في الحرب ينادون أمهاتهم في اللّحظات الأخيرة. غضبت من نفسي، فالوقت ليس مناسباً لمثل هذه الأفكار.

ولكن ماذا كان عساي أن أفكّر في ذلك الظرف الغامض؟ لم يخطر في بالنا عندما أتينا إلى مركز الشرطة أنّنا سننتهي إلى مثل هذا المكان.

كنّا نتحرّك ببطءٍ شديد، ولكنّنا نتقدّم بسرعة مخيفة من هدف تلك الزيارة.

نظر إلينا الضابط وكأنّه يقيس قدرتنا على الاحتمال.

أجبت في سرّي: «لا قدرة لدينا البتّة»، وأردتُ أن أغادر على الفور. لقد استعجلنا في تبليغ الشرطة. من المؤكّد أنّ كارو قد عادت إلى البيت الآن وهي متحمّسة لتنقل إلينا أخبارها. لا لزوم لنرى هذه الفتاة الميتة، لم أرَ في حياتي إنساناً ميتاً، ولا أريد أن أرى.

«هل أنتما جاهزتان لرؤية الفتاة؟»

هزّت ميرلي برأسها إيجاباً وهي تشدّ بيدي. كنت أريد أن أقول «لا»، ولكنّي أضعت قدرتي على الكلام، وحتى على إخراج أيّ صوتٍ من حنجرتي. هل يعقل أنّي أصبت بالخرس فجأةً؟ هل سأبقى خرساء إلى الأبد؟

وظهر أمامنا من حيث لا أدري رجلٌ يلبس سترة خضراء؛ تقدّم وسحب الشرشف الأخضر نزولاً بعض الشيء.

تركت ميرلي يدي بسرعة ونظرت إلى الجثّة، وعادت بسرعة إلى الوراء. ثمّ سمعتُ صوت تقيئها قرب باب الغرفة.

كانت كارو مغمضة العينين، وبيضاء الوجه كأنّها تمثال من

رخام. التعبير الظاهر على وجهها أخافني. كانت شفتاها جافّتين ومشقّقتين وتبدوان أكثر ضخامةً. ولاحظت انحداراً بسيطاً عند زاويتي فمها. فكأنّه تعبيرٌ عن الألم؛ أو عن القرف من كلّ هذا العالم.

شعرها الأسود ما زال لامعاً وجميلاً، وقد جعل وجهها الشاحب يبدو كوجه لعبة من الجفصين.

ولكنّ شيئاً معيّناً كان غائباً، ومنعني غيابه من لمس كارو. شيئاً كان يشكّل جزءاً كبيراً منها. لم أدرِ ما هو في البداية، ولكنّي اكتشفت ماهيّته في ما بعد.

لقد غاب عن وجه كارو طابعه اللّعوب والمرِح.

ومكانه، حلّ راسياً إلى ما لا نهاية، ثقل الواقع الحزين.

لم تكن تتنفّس، ولا تضحك، ولم تقفز فجأةً لتصرخ «ها، لا تصدّقي. كنت أخدعك!»

صعدت الدموع إلى عينيّ. انحنيت وطبعت قبلةً على جبينها. أمسك الضابط كتفي بتؤدة ورفعني، فألقيت برأسي على صدره. ثمّ وضع ذراعيه حولي وتركني أبكي.

كان الرجل ذو السترة الخضراء قد انصرف للاهتمام بميرلي التي اكتسب وجهها شحوباً غير بعيد عن شحوب كارو. إلا أنّ شحوب ميرلي مختلف. سوف تستعيد ميرلي لونها الطبيعي عاجلاً أم آجلاً، أمّا كارو فكلا؛ لأنّها ميتة.

«ميتة»، كانت حتّى تلك اللّحظة كلمة عادية لا تختلف عن غيرها من الكلمات.

استدرت نحو كارو مرّةً أخرى، ورأيت أنّ الشرشف الأخضر قد عاد ليغطّي جسدها العاري والضعيف من جديد.

twitter @baghdad_library

فقلت لصاحب السترة الخضراء: «رجاءً أن تضعوا فوقها غطاءً آخر لكي لا تشعر بالبرد».

هزّ برأسه.

لم يقل لي إن الأموات لا يشعرون بالبرد.

فكّرت في ذلك وحدي، وترسّخت المرارة في نفسي.

* * *

«جنّا فتاة متميّزة؛ واضحة وصريحة وقويّة في المواقف الصعبة». فكّر بيرت. ولكنّه لم يدرك أنّها ابنة إيمكي ثالهايم إلا لاحقاً. إيمكي تخلّت عن لقب زوجها بعد انفصالها عنه. «ثالهايم» هو لقبها قبل الزواج؛ أمّا لقب جنّا فهو «واينغاتنر»، مثل لقب والدها.

لم ترث جنّا عن والدتها الجمال الفاتن والحضور القوي؛ ولكنّ بيرت أعجب فيها من نواحٍ مختلفة. إنها تبدو شديدة التحفّظ إلى درجة الحياء في بعض الأحيان، وتعابير وجهها الرقيقة تميل إلى إخفاء مشاعر صاحبتها عوضاً عن إظهارها.

عندما تنظر إليك تخالها تنظر إلى داخلك وتفهم مشاعرك وأفكارك. إنّها تبدو بلا شكّ أكبر من سنّها، ومن السّهل أن يفضي المقرّبون أسرارهم إليها.

قاد بيرت سيارته وسط زحمة السير متوجّهاً نحو منزل عائلة كارو. لقد شهدت الأيّام الأخيرة انخفاضاً في حرارة الجوّ واكفهرّت السماء بالغيوم.

شعر بيرت بالارتياح لتغيّر الجوّ، بعكس غيره من السائقين الذين أبدوا نفاد صبرهم وتوتّرهم من خلال بعض الإشارات التي يتعلّم

رجال الشرطة التعرّف إليها بسهولة، فكأنّ لدى هؤلاء، بفضل طول الممارسة، حاسّة سادسة تجعلهم يلتفتون إلى إمارات العنف ويتعرّفون إلى مقدّماته، أينما وجدت.

يتمتع بيرت بقدرة عالية على التقاط مثل هذه الإشارات. حتى أنّه بات يعتمد كثيراً على حدسه في نطاق العمل، وغالباً ما دلّه حدسه على أمور كان اكتشافها، بأسلوب التحليل المنطقي، سيستغرق وقتاً طويلاً. لكنّه يبقى متنبّهاً لكي لا يبالغ في الإشارة إلى هذا الأمر أمام زملائه إبّان تبادله معهم شتّى أنواع الأحاديث في الكافتيريا، أو عندما يجتمعون لشرب البيرة معاً.

وصل خبر اكتشاف الجريمة إلى مركز المباحث مباشرةً بعد انتهاء الاجتماع الصباحي، فكان مبرّراً إضافيّاً لإشعال مزاج رئيس المركز منذ الصباح. وبعد انتهاء الاجتماع الصّعب، توجّه بيرت إلى موقع الجريمة.

كانت الفتاة التي اكتشفت الجثّة تتنزّه مع كلبها في الغابة. إنّها طالبة وجاءت لتقضي بضعة أيّام مع عائلتها. وجدها رجال الشرطة جالسة على جذع شجرة بلا حركة. كانت لا تزال تحت تأثير الصدمة، وعندما طرح بيرت عليها بعض الأسئلة، أجابت بصوتٍ رفيع ومرتجف، وأوشكت على البكاء.

وكانت قد غطّت جسد كارو العاري بسترتها. ولكنّها قالت: «أعلم أنّه كان عليّ ألا أقوم بشيء من هذا القبيل، ولكنّي لم أتمكّن من تركها عارية بهذا الشكل».

وعندما طلب بيرت من معاونيه اصطحابها إلى منزلها، مشت بخطى غير ثابتة نحو السيّارة متّكئة على ذراع رجل الشرطة من جهة

twitter @baghdad_library

وممسكة بحبل كلبها من الجهة الأخرى. ها أنّ أذى ذلك المجرم قد أصاب هذه الفتاة أيضاً؛ فهي لن تنسى هذه الحادثة مدى حياتها.

بعد عودته إلى المركز ومقابلة رئيسه كان على بيرت تحمّل فورة غضب هذا الأخير مرّةً أخرى. استُدْعي فريق المباحث الجنائيّة إلى اجتماعٍ فوري لمناقشة الوضع الجديد؛ وبعد ذلك انطلق الجميع إلى العمل.

تنفّس بيرت بعمق وجلس إلى مكتبه. وابتدأت الإجراءات الصعبة كالعادة: اتصالات هاتفيّة، محادثات، تحقيقات. وكانت البداية عندما طلب من الفتاتين مواجهة الفاجعة.

إنّه يعلم الآن على الأقل اسم الضحيّة. كارولا ستايغر. تعوّد رفاقها تسميتها كارو. «كان اسم تحبّب صغير يليق بتلك الفتاة النحيلة». فكّر بيرت في صمته، ثمّ استدرك متمتماً: «لا، الفتاة التي **لا يزال** اسمها كارو».

كان بيرت قد حاول الاتصال بعائلة كارو من دون جدوى.

ولكنّ جنّا كانت قد أنذرته: «لن تتمكّن من الاتصال بهم بسهولة. فهم لا يعيشون بطريقة طبيعيّة. كانت كارو تكرّر محاولات الاتصال بهم على مدى أسابيع قبل أن توفّق بالتكلّم إلى أحدهم».

تعيش عائلة كارو في منطقة بائسة من ضواحي المدينة. إنّها منطقة يتردّد إليها رجال الشرطة باستمرار. تجمّع سكني يتألّف بكلّيته من ثمانية عشر بناء شعبي. وكلّ ثلاثة أبنية منها تؤلّف مجموعة منفصلة؛ وفي كلّ بناء من المجموعة يوجد ستّة مساكن. جدران الأبنية غير مدهونة، وهي مغطّاة بخطوط بشعة ورسوم عقيمة، ومداخل المباني قذرة وملوّثة ببول الهررة ومستنقعات الرطوبة.

كانت رائحة المكان لا تطاق، ولكنّ بيرت لاحظ وجود امرأةٍ في الشرفة. لون شعرها المصبوغ برتقاليّ، وعمرها يقارب الستّين، وكانت منشغلة بنشر بعض الغسيل على الحبل ليجفّ في الشمس.

ألقى بيرت نظرةً على الدفتر الذي في يده، بقصد التأكّد من رقم المبنى. ثمّ تقدّم إلى المدخل، وهو يلتقط أنفاساً قصيرة بسبب الروائح الخانقة. ونظر إلى أسماء السكّان وقرأ اسم ستايغر مكتوباً بخطٍّ عشوائي، ثمّ ضغط على الجرس ولكنّه لم يلقَ جواباً.

وقرّر عندئذٍ أن يتكلّم إلى المرأة التي رآها في الشرفة: «سلام!»

فاستدارت هذه الأخيرة نحو مصدر الصوت.

قال بيرت «سلام! أتيت لأقابل عائلة ستايغر».

نظرت إليه كأنّها تقيّمه. وقالت: «إن حالفك الحظّ!» وكأنّ ذلك الجواب كان كافياً. ثمّ عادت إلى عملها. دانتيل رخيص أحمر وأسود بعضه ممزّق. لباس داخلي رجّالي تغيّر لونه. قمصان مصنوعة من البوليستر والمزركشة بألف لون ورسم، وأخرى من دون أكمام على طراز أزياء جزر الهاواي.

«هل تعلمين متى هو الوقت الأفضل للاتصال بهم؟»

تركت ذراعيها الثقيلتين تسقطان وهي لا تزال تحمل بإحداها صدريّة نسائية تلوّك شكلها. ورمت بيرت بنظرة مشكّكة، وسألت: «من الذي يسأل؟»

صعد على الدرج المؤدّي إلى الشرفة، وأخذ بطاقة التعريف من محفظته وأطلعها عليها.

وراحت تحرّك شفتيها ببطء وهي تقرأ ما كتب على البطاقة. ثم

twitter @baghdad_library

عقدت ذراعيها فوق صدرها، وقالت، وفقاعات اللّعاب تتطاير فوق شفتيها: «ومن يقول لي أنّها بطاقة غير مزوّرة؟»

تنهّد بيرت وقال: «لا أسأل سوى متى يمكنني أن أجد عائلة ستايغر في البيت».

علّقت الصدرية على الحبل، وانحنت إلى سلّة الغسيل لتلتقط قطعة ثيابٍ أخرى. «لا يمكنك أن تدعو هؤلاء عائلة، إنّهم مجموعة مجانين. تلك الفتاة كارو هي الوحيدة العاقلة بينهم؛ ولكنّي لم أرها منذ زمن طويل».

ونفضت القميص الذي كان بين يديها، وتابعت: «ولكنّها على حقّ في رحيلها؛ ماذا ستجد ههنا؟ أعني. انظر إلى هذا المكان».

ثمّ قطعت حركتها فجأةً لتقول: «هل أصيبت كارو بأيّ مكروه؟»

تعوّد بيرت اللّجوء إلى بعض الجمل المضلّلة في بعض الأحيان. «ما أقوم به هو مجرّد تفتيش روتيني لا غير».

شعرت المرأة بهشاشة كلامه. فتراجعت قليلاً في حماستها للحديث واختصرت ما تبقّى في جعبتها بالقول: «والداها عاطلان عن العمل؛ أخوها يمرّ في مرحلة عمريّة صعبة. هذا كلّ ما أعرفه، ولو عرفت أكثر من ذلك لامتنعت عن إخبارك به».

هزّ بيرت برأسه موافقاً، وقال: «على كلّ حال، أشكركِ». وراح ينظر مجدّداً إلى مدخل المبنى؛ فرأى كمّاً هائلاً من المطبوعات الدعائية التي ترسل عادةً بواسطة البريد منثورةً على الأرض كيفما اتفق. صناديق البريد الخاصّة مفتوحة قسراً، وأبواب بعضها معلّقة من طرفٍ واحد، فيما تحطّمت صناديق أخرى تحطيماً كاملاً كأنّها تحمّلت ظلماً فورات غضب أصحابها، ورفسات أقدامهم.

وعند أسفل الدرج، صحنٌ فيه بقايا من أكل القطط الذي جفّ في الشمس. وعلى بعد نصف متر منه، بدت قنينة مشروب كحولي رخيص فارغة ومشلوحة على العشب، ومجموعة من الحشرات كانت تحوم فوق كومة سوداء من براز أحد الكلاب. والتفت بيرت إلى الطابق الثاني حيث زجاج إحدى النوافذ كان مكسوراً، وثبِّت مكانه لوح من الكرتون كتب عليه بخطٍّ أحمر عريض: «يا له من عالم ملعون!»

«كارو؟» قال بيرت في سرّه. «كيف استطعتِ العيش في هذا المكان؟»

ولكنّه عرف الجواب. لم تستطع العيش هنا. فقد تمرّدت على هذا المكان وهربت. هربت من هنا لتنجو بحياتها.

فغدرها الموت في تلك الغابة.

خرج شابّ إلى الشرفة في الطابق الأوّل وأشعل سيجارة.

كان يبدو في أواخر العشرينيات، والقميص الأسود ذات الأكمام القصيرة تظهر وشماً كبيراً فوق عضلات ذراعيه النامية بشكلٍ ملحوظ. انحنى فوق حافّة الشرفة وراح يرمق بيرت بنظرات متعالية.

«هل تساعدني؟» قال بيرت. «إنّي أبحث عن عائلة ستايغر».

«في الشقّة المقابلة». قال الشابّ. «ولكن نادراً ما تجدهم في البيت. هل وقع كالي في ورطة من جديد؟»

«كالي؟» ردّد بيرت متسائلاً.

«الابن».

«لا علم لي بذلك».

twitter @baghdad_library

«كارو وكالي،» فكّر بيرت. وتذكّر جسد كارو النحيل ومعالم وجهها الدقيقة. هل أنّ كالي نحيلٌ مثلها، أم أنّه طويل القامة وعريض المنكبين، وعلى الأرجح أنّه كذلك. هل كارو النحيلة كانت على علاقة طيّبة مع أخيها الضّخم؟

«هذا هراء». أجاب بيرت نفسه. إنّه يعلم أنّ الأخ أصغر من أخته بعدّة سنوات. لعلّه يافع، طويل القامة ونحيل البنية وذو بشرة يغطّيها النمش. ربّما كان يشتاق إلى أخته ويرفض مثلها حياته التعيسة في هذا المكان؛ ولذلك فإنّه يقع في المشاكل باستمرار.

هزّ بيرت برأسه للشابّ، وتوجّه نحو سيّارته. كان آسفاً على وضع تلك العائلة؛ ولكن لا بدّ لهم من مواجهة حقيقة موت ابنتهم. سيواجهون هذه الحقيقة بالألم والحزن ومشاعر الندم والذنب التي ستلقي بثقلها على حياتهم وتفتّت قلوبهم.

مهما كان الوضع، سيترتّب عليهم مواجهة الحقيقة التي لا تقتصر على خبر الوفاة فحسب؛ لأنّ الفرق شاسع بين الوفاة والقتل.

* * *

كانت مستغرقة في عملها عندما دقّ جرس الهاتف. تردّدت قبل أن تمدّ يدها لالتقاط السمّاعة. وبنظرةٍ إلى الشاشة الكاشفة عن الرقم، عرفت أنّها جنّا.

«حبيبتي، ليس هذا الوقت مناسباً جدّاً للاتصال. بطل القصّة سيتحدّى جميع معطيات المنطق في هذه اللحظة، و. ما بكِ يا جنّا؟ لماذا تبكين؟ إهدئي يا حبيبتي».

دموع جنّا لا تنهمر عبثاً. هل حدث خطب ما؟ جنّا فتاة ذكيّة وتتمالك أعصابها، وتبتعد عن الانفعال السريع، وليست من النوع

الذي يستجدي العاطفة بذرف الدموع. نادراً ما رأت إيمكي ابنتها تبكي؛ حتّى أنّها لا تتذكّر آخر مرّة شاهدت جنّا تبكي.

«حبيبتي، إن لم تتوقّفي عن الإجهاش في البكاء بهذه الطريقة، لن أتمكّن من فهم أي شيء ممّا تقولين».

لم يكن بكاء جنّا نحيباً عاديّاً فهو يعبّر عن يأسٍ عميق تعجز الكلمات عن وصفه.

«جنّا، حبيبتي، أرجوك أن تهدئي قليلاً!»

لم تمرّ جنّا بحالة مشابهة لهذه الحالة سوى مرّةً في حياتها، وكانت حينئذٍ في الثامنة. وكان ذلك عندما صدمت إحدى السيّارات المسرعة قطّتها وقتلتها. بكت جنّا على أثر تلك الحادثة كثيراً ولم تهدأ على مدى أيّام ممّا سبّب ارتفاعاً شديداً بحرارتها. استدعت إيمكي حينذاك الطبيب إلى البيت، فوصف لها المهدئات، ونصح أمّها بشراء قطّة صغيرة تكون بديلة عن تلك التي ماتت. ولكنّ حزن جنّا على قطّتها القديمة لم يتلاشَ سوى بعد وقتٍ طويل.

«كارو..»

على الأقلّ، عرفت إيمكي الآن أنّ الأمر يتعلّق بكارو.

«نعم يا حبيبتي، ماذا بشأن كارو؟»

«إنّها. إنّها..».

«هيّا، لا يُعقل أن يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحدّ؟ ماذا عنها؟»

وخطر في بال إيمكي أنّ كلّ مشكلة ولها حلّ إن ركّز الإنسان تفكيره من أجل حلّها. هل أنّ كارو حامل مثلاً؟ إن كان الأمر كذلك، فالحلّ ليس بهذه الصعوبة. ولكن، لو كانت كارو حاملاً فمن غير

twitter @baghdad_library

المعقول أن تتصرّف جنّا على هذا النحو. وبدأ الخوف يجتاح قلب إيمكي.

«تكلّمي يا جنّا. أخبريني ما الأمر؟»

واختنقت الزفرات وتشنجّت حنجرة جنّا؛ ازداد خوف إيمكي وفكّرت في أن تنهر ابنتها؛ فلعلّها تستيقظ من هذه النوبة الهستيريّة. ولكن هل أنّ ما تسمعه من جنّا مجرّد نوبة هستيريّة حقّاً؟

«كارو. كارو ماتت يا أمّي».

سيطر على إيمكي شعورٌ فوري بالصدمة، وفي الآن ذاته حبّ جارف لابنتها.

«ماتت. كيف؟ هل في حادث سيّارة؟»

عندما يموت الناس في عمر الشباب، غالباً ما يعود السبب إلى الحوادث. لم تطرأ على بال إيمكي أيّ فكرة أخرى. خصوصاً أنّ كارو كانت تتمتّع بصحّةٍ جيّدة.

عادت جنّا للإجهاش في البكاء من جديد. وعندما كانت تنجح بالتفوّه ببعض الكلمات، يخرج صوتها متقطّعاً ورفيعاً.

«ماتت كارو. قتلاً».

كادت سمّاعة الهاتف تسقط من يد إيمكي، وإذا بنظرها يشرد من النافذة إلى البعيد، ولم تعد تسمع شيئاً. فقد شعرت فجأةً بفراغٍ فكري مخيف. ثمّ عادت إلى نفسها لتؤنّبها: «أنا أكتب عن الجريمة كلّ يوم، وها إنّي أصاب بما يشبه الشلل لدى حدوثها في الواقع، وفي محيط حياتي الشخصيّة!»

وبين الغصّات والزفرات، أخبرتها جنّا كيف اكتشفن، هي وميرلي، تلك الحقيقة.

«ابقي مكانك ولا تتحرّكي. سأذهب إليك في الحال».

وضعت إيمكي الهاتف من يدها، وتوجّهت إلى الحاسوب وأطفأته. ثمّ انتعلت حذاءها، وخرجت من البيت بعد أقلّ من خمس دقائق.

* * *

اشتاق إليها. لقد تركت فراغاً كبيراً في حياته.

كان يراها في خياله، ويسمع ضحكاتها.

كارو.

كم من الأسماء الجميلة استنبطت له: روميو، ليونهارت، الحبيب، جوريان. وتهديه الأسماء كأنّها باقات من الورد، ثمّ ترفقها بالقصائد العذبة القصيرة التي كانت تؤلّفها.

ويداها الشبيهتان بيدي طفل.

ولكنّها باتت فجأةً تصبغ أظافرها بالطلاء الأحمر وكذلك شفتيها، وتضع أحمر الخدود، وتتبرّج.

تقبّل ذلك منها لأنّه يرضيها، وقرّر أنّه سيتقبّله لأنّه يحبّها فالحب يجعل المرء متسامحاً ومعطاءً.

ولكنّها. بعد ذلك،

بعد ذلك. قامت بتقبيله. قبّلته بأسلوب بغيض. فقد تسلّقت إلى حضنه من دون حياء كما تفعل القطّة. وراحت تئنّ وتعنّ وتهمس في أذنه لتقول إنها انتظرت طويلاً.

وفي تلك اللحظة، تحوّلت كارو فجأةً إلى فتاة عاديّة جدّاً، تشبه الفتيات اللّواتي كان يراهنّ على مفترق الطرق في بلدته.

أظافر حمراء. شفاه حمراء. تنورة مشمّرة عن أعلى الساقين.

twitter @baghdad_library

وأخيراً استجاب لاحتدام شوقها. وبعد ذلك، تمدّد الاثنان جنباً إلى جنب وكانا يتنفسان بسرعة.

«والآن»، همست في أذنه بصوتٍ تتردّد فيه النشوة، «يجب أن تقول لي الآن عن اسمك الحقيقي».

واستجاب لطلبها أيضاً.

راحت تردّده لنفسها بصوتٍ عالٍ. ردّدته مرّات ومرّات، وفي كلّ مرّة كان يخال أنّ سكيناً اخترق قلبه.

وحكم عليها بالخروج من حياته.

ها أنّها لم تعد الفتاة التي يحبّها. لقد تحوّل كلّ شيءٍ بينهما إلى رماد.

(8)

قادنا الضابط بسيارته إلى البيت. ولم تنبس ميرلي بكلمة طيلة الطريق. كانت لا تزال شديدة الشحوب عندما وصلنا إلى البيت. حاولت إقناعها بالنوم قليلاً في غرفتها ولكنّها رفضت. «لا أستطيع البقاء وحدي في الغرفة. لا تتركيني وحدي يا جنّا. أكاد أن أفقد عقلي».

وأخيراً استطعتُ إقناعها بالتمدّد على الأريكة في المطبخ. ووضعت فوقها غطاءً لتشعر بالدفء. ثمّ قدّمت لها مشروباً مقطّراً خفيفاً مصنوعاً من الأعشاب كان أحدهم قد أحضره لنا كهديّة.

شربت منه ميرلي وشعرت بالتقزّز من طعمه. ثمّ هزّت برأسها وقلبت شفتيها كما يفعل الأطفال.

وأنا أيضاً، تناولت جرعةً منه ولكنّي لم أشعر بالتحسّن. كنت لا أزال أشعر بالدوران في رأسي وبحاجة إلى التقيّؤ.

«هل تجلسين معي؟» قالت ميرلي راجية. لم أقوَ على رفض طلبها، وجلست إلى جانبها.

«لم تِكن تلك الفتاة كارو». قالت ميرلي وهي تأخذ يدي بيدها وتشدّ على أصابعي. «أرفض أن أتذكّرها بتلك الصورة. لم تكن تلك الفتاة كارو، بل شبحها. هل تفهمين قصدي؟»

twitter @baghdad_library

خطر في بالي أنّ عبارة 'شبحها' كان يفتقر إلى الدقّة.

«أو أنّه هيكلها المادّي». تابعت ميرلي. «كارو نفسها كانت قد غادرته منذ ساعات».

كانت ميرلي قد قرأت كلّ ما استطاعت الحصول عليه من كتب عن الحياة بعد الموت. وطالما أقضّت قصصها الغريبة مضجعنا، كارو وأنا، وحرمتنا من النوم.

«الانتقال إلى العالم الآخر..» قالت، وتوقّفت قليلاً عن الكلام، ثمّ تابعت: «. يكون شديد الصعوبة عندما تحدث الوفاة نتيجة العنف». ونظرت إليّ، فرأيت في عينيها الألم الذي يكاد يمزّق أحشائي. «لم تكن مستعدّة المسكينة».

«ماذا تعنين؟»

«لأنّها انتزعت من الحياة بتلك الطريقة المفاجئة، فإنّ روحها الآن لا تزال حائرة لا تدري لأيّ من العالمين تنتمي».

«أوه، توقّفي عن هذا الكلام!» قلت. ألا يكفيني حسرةً أنّ كارو ماتت قتلاً؟ لماذا أقنع نفسي الآن بأنّها ما زالت تتعذّب في العالم الآخر؟ «أنا لا أريد الاستماع إلى هذا المنطق».

بكت ميرلي. ورحت أربّت على ظهرها. كان ذلك كلّ ما استطعت القيام به. كنت متأكّدة من أنّي سأنهار بدوري عندما أصحو من الصدمة.

«ماذا تقولين؟ هل أتّصل بأمّي؟»

كانت ميرلي تفضّل أمّي على أمّها، ولم يكن ذلك الأمر سرّاً. يعيش والداها بذهنيّة تقليديّة ومملّة، حياةً منظّمة ومملّة، في منزلٍ

منظّم وممِلّ، في قريةٍ منظّمة ومملّة، وأمام بيتهما حديقة منظّمة ومملّة مثل الحدائق المحيطة بالمدافن.

لقد وطأ والداها أرض شقتنا مرّةً واحدة. ووقفا في المدخل كأنّهما تمثالان جامدان. لم ينبسا بكلمة دافئة أو تشجيعيّة حتى ولا انتقاديّة. حتّى عندما جلسنا معاً حول الطاولة في المطبخ لنأكل من الحلوى التي كنّا قد أعددناها بأنفسنا لهما، لم يتكلّما إلا لماماً.

ولكنّ البركان عاد وأخرج حممه لاحقاً، فعرفنا أنّ مستوى النظافة في الشقة لم تكن مُرضية بالنسبة إليهما؛ كما أنّهما وجدا في كارو زميلة غير مناسبة لابنتهما. عدا عن رأيهما بأنّي فتاة مدلّلة وغير جديّة. ولذلك، عزفت ميرلي عن دعوتهما إلى زيارتنا مرّة ثانية.

«نعم». أجابت ميرلي. «أرجو أن تتصلي بها الآن».

كنّا نفكّر بأنّ قدوم أمّي إلينا سيخفف عنّا الجزء الأكبر من العبء الذي يسحق قلبينا. طلبت رقم الهاتف، وعندما سمعت صوت أمّي استسلمت للحزن والبكاء كأنّي تحوّلت إلى طفلة في الخامسة أو السادسة.

وبصعوبة استطعت أن أعبّر عمّا حدث. فقلت «كارو ماتت».

سمعت ألفاظي بأذنيّ، وأحسست كأنّ تلك الكلمات لا تخصّني ولا تخصّ كارو ولا ميرلي.

ولكنّنا ذهبنا إلى ذلك المبنى البائس. ورأيت بعيني أنّ كارو قد ماتت. ولكنّ عقلي ما زال يرفض التصديق.

لم يمضِ على الاتصال نصف ساعة حتّى سمعنا جرس الباب. ركضنا نحن الاثنتين إلى لقائها، وكأنّ دخولها سيحسّن حالنا بلمسةٍ سحرية.

twitter @baghdad_library

غمرتنا أمّي بذراعيها، وراحت تجهش في البكاء معنا. وسال الكحل عن أجفانها واختلط بدموعها.

بعد ذلك، تركتنا ومشت نحو المطبخ. «أنتما بحاجة أوّلاً إلى شرب القهوة. ثمّ يجب أن تتناولا بعض الطعام. ماذا لو طلبنا بيتزا؟»

لم نكن نتخيّل أنّ بإمكاننا أن نأكل.

«ميرلي! ما هو رقم مطعم البيتزا حيث تعملين؟»

تحرّكاتها العمليّة لم تخفِ نظراتها القلقة بشأننا. كانت عيناها تتفحصاننا، وتنتقلان من ميرلي إليّ وبالعكس.

بعد قليل، (وكلوديو حريص دوماً على تلبية طلباتنا بسرعة)، كانت ثلاثة أرغفة بيتزا على الطاولة، ورائحتها اللّذيذة تملأ المطبخ. عندها شعرنا بشدّة الجوع الذي كنّا نعاني منه.

كنّا نأكل بصمت عندما استخرجت أمّي من حقيبتها قنينتين من النبيذ الأحمر الجيّد، فهي لا تجهل ما يدخل إلى شقّتنا من أنواعه الرخيصة. شدّدت أمّي على ضرورة أن نشرب النبيذ، واكتفت هي نفسها بكوبٍ واحد لكي تتمكّن من قيادة السيّارة في طريق العودة.

شعرت بتأثير النبيذ السريع في رأسي، ولكنّه لم يخفّف من ألمي.

بعد تناول نصف حصّتها من البيتزا، دفعت ميرلي الصحن بعيداً عنها، ونظرت إلى النبيذ في الكوب وقالت وشفتاها ترتجفان: «إنّه يشبه الدّم».

في الواقع، لن نتمكّن بعد الآن من استعمال بعض الألفاظ من غير الشعور بألم الفاجعة التي أصابتنا.

الدمّ، الموت، الشحوب، الجثة.

ربّما لن نتمكّن من شرب النبيذ بعد الآن.

«هل هناك أيّ شخص تشتبهان به؟» سألتنا أمّي بعد أن تأكّدت من أنّ النبيذ قد فعل تأثيره المطلوب علينا.

«نشتبه بأحد؟» قالت ميرلي وهي تنظر إلى أمّي من غير تركيز. أنا أيضاً، لم أفهم قصد أمّي من السؤال لأول وهلة.

كانت أمّي تسأل عن قاتل كارو.

إنّه موجودٌ في مكانٍ ما، ولعلّنا نعرفه!؟

لم تنتظر إيمكي وصولها إلى البيت لتجري الاتصال. فما أن دخلت إلى سيّارتها حتى أخرجت الهاتف المحمول من حقيبتها واتّصلت بضابط المباحث. ها أنّ العادة التي اتّبعتها في تسجيل كلّ رقم جديد في ذاكرة الخليوي قد أظهرت فوائدها.

«ملزيغ يتكلّم».

لقد أجاب من غير تردّد على الهاتف. هل أزعجه الاتصال في هذا الوقت المتأخّر، ربّما لا ولكنّ الساعة قد جاوزت منتصف الليل والناس العاديّون لا يمكثون في مكاتبهم حتى هذا الوقت.

«معك إيمكي ثالهايم».

استنشق النفس بحدّة، وكأنّ اسمها سبّب له صدمة.

لم تضيّع إيمكي الوقت بالمجاملات التقليديّة، بل اختصرت ما تريد قوله، وعبّرت عن استنكارها بشكلٍ مباشر: «كيف استطعت القيام بهذا الفعل؟ وكيف تضع الفتاتين في مثل هذا الموقف؟»

لم يحاول خلق الأعذار، بل أجاب: «آسف جدّاً. كيف حالهما؟»

twitter @baghdad_library

«وكيف تتوقّعها أن تكون؟» وارتجف صوت إيمكي من شدّة الغضب. «خرجت من شقّتهما للتوّ، وهما منهارتان».

«عمرهما الصغير سيساعدهما على تخطّي الصدمة».

كان على حقّ. إنها تعرف ذلك. ولكنّ ردّة فعله الهادئة والرزينة على غضبها الجامح زادها غضباً.

«ابنتك شابّة متميّزة وقويّة، لا تخافي عليها فسوف تتخطّى ما حدث».

لم يُتِح لها المجال لمهاجمته، الأمر الذي زاد في حدّة سخطها. «يمكنكَ الكلام كيفما تريد. ولكن لو طلب أحد الناس من أولادك، إن كان لديك أولاد، لو طلب منهم التعرّف إلى جثّة صديق لهم مات قتلاً، هل سيسلمون من ردّات الفعل الصعبة؟ بالطبع، يمكنك أن تتكلّم بارتياح، فأولادك ليسوا في خطر».

«ماذا تعنين بهذا القول؟»

«أعني أنّ قاتل كارو ربّما زار شقّة الفتيات مراراً. هل هذه فرضيّة خاطئة؟»

«كلا، إنّه أمر محتمل».

«تقول إنّه أمرٌ محتمل! إذاً ما هي الإجراءات التي قمتم بها لحماية الفتاتين؟»

«قلت إنّه احتمال. وهو احتمال ضعيف جدّاً؛ صدّقيني يا سيّدة ثالهايم. في اللّحظة التي يصبح فيها أمر حماية الفتاتين ضروريّاً، سنقوم بذلك».

أنهت المخابرة وأعادت الهاتف إلى حقيبتها، ثم تركت لدموعها

المحبوسة العنان. وبكت في عتمة السيّارة طويلاً حتّى شعرت بالتحسّن.

بعد ذلك، استجمعت تركيزها وطرحت على نفسها السؤال: «هل من الحكمة ترك الفتاتين وحدهما في الشقّة؟»

ولكنّ جنّا أصرّت عليها لكي تذهب، ورافقتها نحو الباب وهي تقول: «اذهبي إلى البيت الآن يا ماما. شكراً لمساعدتك؛ سنتمكّن ميرلي وأنا الآن من السيطرة على الوضع بمفردنا».

وماذا لو تقوم بدعوة الفتاتين لقضاء بعض الوقت معها في بيت الطاحونة ريثما تتبلور القضيّة؟

ولكن المنطقة التي تسكنها بعيدة ومنعزلة والخطر أكبر على الفتاتين هناك. وفي كلّ الأحوال، ليس مؤكّداً أنّ القاتل يعرفهما.

أحنت إيمكي رأسها ونظرت من خلال زجاج السيارة إلى المبنى. الأنوار مطفأة كلّها. يبدو أنّ الفتاتين دخلتا إلى غرفتيهما لتناما والنبيذ قد أبدى تأثيره الإيجابي. لا خوف عليهما هنا في هذا المبنى المؤلّف من عشرة مساكن والواقع في قلب المدينة. ماذا يمكن أن يحدث لهما في هذا المكان؟

تنفسّت بعمق، ثمّ أدارت المحرّك وأضاءت مصابيح السيّارة وانطلقت. كانت الشوارع مقفرة، كأنّ الناس قد أصيبوا بالخوف واختبأوا في بيوتهم.

ولكن الساعة كانت قد جاوزت الواحدة، وحتّى المقاهي وحانات شرب البيرة أقفلت أبوابها. المطر يتساقط رذاذاً وحرارة الجوّ أبرد ممّا تكون عليه عادةً في ليالي شهر تموز/يوليو.

كانت الظلمة على الطريق المؤدّية إلى الرّيف حالكة وكثيفة.

twitter @baghdad_library

شعرت إيمكي بضرورة إقفال أبواب السيارة بعد أن تذكّرت الخبر الذي قرأته منذ أيّام، وهو أنّ مجهولاً فتح باب سيّارة تقودها سيّدة ودخل فيما كانت هذه الأخيرة متوقّفة عند الضوء الأحمر.

فتحت إيمكي الراديو لعلّها تنشغل بالموسيقى عن التفكير، وعن الشعور الصعب بضعفها أمام الأزمة.

عندما أدارت مقود السيارة نحو البيت، وانفلش ضوء المصابيح فجأةً على الجدران، وظهر شبح الطاحونة في الظلمة، شعرت إيمكي بقشعريرة خوف تسري في جسدها. فتنفست بعمق لتستعيد ثقتها بنفسها، وفكّرت بأنّها تحتاج إلى نومٍ عميق لكي تستعيد قوّتها.

أوقفت السيّارة في المرآب، ومشت إلى المدخل ببطء شديد لكي لا تعلو في سكون الليل قرقعة خطواتها على الحصى. إنّها لا تريد أن تبدو خائفة أو مضطربة أمام أيّ مراقب قد يكون موجوداً في تلك الساعة.

لا تسمح إيمكي لنفسها بأن تبدو خائفة أمام أيّ من الناس؛ إنّها الطريقة التي طالما اتبعتها لحماية نفسها.

كانت قد وصلت إلى أسفل الدرج المؤدّي إلى باب البيت عندما لمحت ظلاًّ يجري نحوها؛ تسارعت نبضات قلبها، وأحسّت بارتخاء ساقيها، فوضعت كفّها على فمها لكي لا تصرخ.

ولكنّها سرعان ما سمعت ذلك الظل يموي استعطافاً ويدور حول قدميها.

«إدغار! لقد أخفتني». وانحنت إليه ورفعته إليها. ثمّ حملته معها إلى الداخل. وما لبثت أن وضعته على الأرض لتقفل الباب بالمزلاج. ثمّ أغلقت جميع الستائر، وأضاءت جميع المصابيح.

ها هي في بيتها وتشعر بالأمان.

وراحت تفكّر بكارو. وبكت حزناً على تلك الفتاة التي كانت إحدى أعزّ صديقات ابنتها.

القاتل الذي يهوى القلادات يسجّل ضربة جديدة!

يبدو أنّ المجرم الذي قتل سيمونا ريدليف البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً قد اقترف جريمة قتل جديدة. ضحيّته الجديدة هي الطالبة كارولا ستايغر من مدينة برول وعمرها ثمانية عشر عاماً أيضاً. ورفاق الفتاة من مدرسة إيريك كاستنر يشعرون بالحزن الشديد على رفيقتهم.

من جهته، ضابط المباحث بيرت ملزيغ يؤكّد على أوجه التشابه بين الجريمتين الفظيعتين. في الحالتين حدثت الجريمة في الغابة. وفي الحالتين تلقّت الفتاة سبع طعناتٍ في جسدها، وفقدت القلادة التي كانت حول رقبتها.

التحقيق المكثّف يجري برئاسة بيرت ملزيغ حول الجريمتين. كما لا زال التحقيق جارياً حول الجريمتين اللتين حدثتا في شمال البلاد في العام الماضي (انظروا تقاريرنا السابقة). لقد تقرّر زيادة المكافأة لتصبح 7500 يورو لمن يعطي دلائل مفيدة تساعد في التعرّف إلى المجرم. يتلقّى مركز الشرطة أعداداً كبيرة من المخابرات يوميّاً من الذين يطمحون إلى المكافأة ولكن أيّ من المخابرات لم تعطِ حتّى الآن دلائل مفيدة.

الخوف يجتاح مدننا وقرانا ولن يتوقّف حتى تعمل الشرطة جدّيّاً على اكتشاف القاتل.

* * *

شعرت بالتقزّز من قراءة الخبر في الجريدة. أعلم ردّة فعل الناس

twitter @baghdad_library

على أخبار الجرائم البشعة عندما تكون مشاعرهم موزّعة بنسبٍ متساوية بين القرف والغضب من جهة، والأسف من جهة ثانية.

إنّهم يقرأون عن تلك الجرائم ويشعرون كأنّهم غير معنيين بها بشكلٍ مباشر. فكأنّهم يجلسون في «المقعد الأمامي»، وهم متميّزون ومحميّون ولكنهم يجهلون متى ومن أين تصيبهم الضربة.

«كارولا» اسم كارو الحقيقي كان يفاجئني دائماً. إنّه عادي جدّاً ولا يناسب شخصيّة كارو. لقد أزعجني الاسم في هذا المقال بالذات وتساءلت عن السبب. في الحقيقة، كلّ ما في هذا المقال أغضبني إذ يكاد يكون نسخةً عن غيره. وتتكرّر النسخ، نسخةً بعد نسخةٍ، وبعدها نسخة!

دلائل، مكافأة المجرم، القاتل، إلقاء القبض. عباراتٌ قرأتها وسمعتها مئات المرّات وهي لا تعني لي شيئاً الآن. الأمر الآن يتعلّق بكارو، ولا واحدة من هذه الكلمات تشير حقّاً إليها.

وأكثر ما أزعجني في هذا المقال، عنوانه؛ إنّه شديد البعد عن أصول الكتابة في هذه المواضيع؛ فكأنّ كاتبه أراد به الإثارة لا غير؛ وكأنّنا بتنا جميعاً شخصيّات في فيلمٍ سينمائي ضخم من إخراج شخصٍ مجرم مريض العقل.

ناهيك عن أنّ عبارة «الجريمتين الفظيعتين» هي الوحيدة التي تحمل أثراً من الشعور الإنساني في هذا المقال.

قرأت اسمه، «هاجو جيرتز»، وفكّرت في الاتصال به أو الكتابة إليه. وقد أفعل ذلك في يومٍ ما.

ذهبت ميرلي إلى المدرسة لأنّها لم تعد تطيق البقاء في الشقّة.

أمّا أنا، فعلى عكسها، اختبأت في زوايا الشقّة كالقطّة المريضة، لكي أداوي جراحي.

كنت أشعر بفقدان كارو في كلّ لحظة وفي كلّ مكان. تخيّلتها أمامي في المطبخ، وفي الحمّام وفي غرفة الجلوس وفي غرفتي جالسةً على ذلك الكرسي. كنت أسمع ضحكاتها ترنّ في أذنيّ، وأشمّ رائحة عطرها.

أشياؤها لا تزال في كلّ مكان: مشطها، فرشاة أسنانها، أحذيتها التي كانت تخلعها في إحدى الزوايا ما أن تصل إلى البيت، ومجلاّتها المبعثرة، وأكواب اللّبن التي في البرّاد.

لا ميرلي ولا أنا، كنّا قد تجرّأنا على الدخول إلى غرفتها بعد. لقد أقفلنا الغرفة وابتعدنا عنها. وكأنّه بات مكتوباً على بابها بخطٍّ غير منظور: لقد ماتت كارو.

ومجدّداً وبإصرارٍ عنيد، أردت تخيّل كارو في تلك اللّحظة، لحظة المواجهة مع الموت.

شعرَت كارو بالذعر، وكانت وحيدة.

وشعرتُ بتأنيب الضمير، ورحت أستعيد أيّامي الماضية بتفاصيلها لأتذكّر ماذا كنت أفعل في الوقت الذي قاست فيه كارو وحشيّة الغدر. كنت في منزل الطاحونة ذلك المساء واشتركت في البرنامج التلفزيوني الذي يدور حول أمّي. مثل البنت المطيعة، كنت أقوم بدوري وأبتسم أمام الكاميرا وأجيب عن الأسئلة المطروحة. وكان ذلك المصوّر الذي يدعونه «لاكي» موجوداً. تعجّبت لغرابة لقبه ولكنّه وسيم الطلعة. كنت أرمقه خفيةً بطرف عيني، واستمتعت بمداعبة نظراته من خلال الكاميرا.

twitter @baghdad_library

إذاً، في الوقت الذي كانت كارو تتلقّى الطعنات القاتلة، كنت أتسلّى وأمرح. ربّما لم يحدث لها ذلك سوى لاحقاً في اللّيل، عندما كنت أنام في غرفتي في بيت الطاحونة وأحلم بقصصٍ رومانسية تجمعني بالمصوّر الوسيم.

وتساءلت: «كيف لم أشعر في تلك اللحظات بالخطب الكبير الذي أودى بحياة أعزّ صديقاتي؟»

تركت الجريدة من يدي، ودخلت إلى غرفتي وارتميت على سريري. كنت مثل الحالم الذي يكتشف في منتصف الحلم أنّه كان يحلم؛ ولكني لم أستيقظ. شعرت أنّي أعيش في ضباب كثيف يحبسني ولا يسمح للأفكار من اختراقي.

قلت لنفسي بأنّ كارو قد ماتت.

ولكنّ معنى تلك العبارة لم يتجاوز بالنسبة إليّ حيّز الكلام لأنّي رفضت السماح له بالاستقرار في ذهني. لعلّ الميل الجامح إلى الرّفض الذي يولد بفعل الصدمة لا يزال يحميني؛ ولكن إلى متى؟

* * *

فتح بيرت الجريدة متردّداً. ما الفائدة من قراءتها اليوم أيضاً؟ ففي كلّ مرّة يردّد الصحافي العبارات عينها، وكأنّ لا شيء يميّز ضحيّة عن غيرها.

كان الوصف المقتضب لحالة الخوف التي تجتاح القرى والمدن مربكاً بالنسبة إلى بيرت، والقول إنّ الشرطة غير جديّة في عملها مرفوض.

لقد التقى بهذا الصحافي مراراً، ولا شيء يميّزه عن غيره سوى

أنّ اسمه يدلّ على أنّه من الشمال، ويذكّر بيرت بطفولته. إنّه يطرح الأسئلة المعتادة ليلقى الأجوبة المعتادة.

«غيابٌ تامّ للابتكار». فكّر بيرت. «وحتّى الأسلوب العامّ فهو مملّ وفقير. الأسلوب الجيّد يجعل القراءة حتّى في أبسط الصحف مشوّقاً».

لا يهتمّ بيرت لما تكتبه الصحف، بعكس رئيسه الذي يقيّم أحياناً نشاط معاونيه من خلال ما يقرأه في الصحف؛ وتصرّفه هذا لا يوحي بالسطحية بقدر ما يوحي بالغرور.

بعدما انتهى بيرت من شرب القهوة، قبّل مارغو وتوجّه إلى السيارة. لم يرى أولاده هذا الصباح، لأنّه لم يصحُ باكراً بسبب مكوثه في المكتب حتى ساعة متأخرة الليلة الفائتة.

«عليك تجنّب الإرهاق». قال له إلياس منذ أيّام. «أنا لا أمازحك يا بيرت؛ إنّك معرّض بشكلٍ كبير للإصابة بأزمة قلبيّة».

احتراماً لتعليمات إلياس، بذل بيرت جهوداً عظيمة قبل أن ينجح في الإقلاع عن التدخين. ولكنّه، في المقابل، اكتسب سبع كيلوغرامات من الوزن الزائد الذي يحملها معه كيفما تحرّك، ولا غرابة في ذلك نظراً إلى جلوسه الطويل وراء المكتب، وقلّة الوقت الذي يكرّسه لتناول وجبة الغداء، عدا عن نوعية الطعام السريع الذي يأكله. سندويشات من اللحوم المبرّدة والجبن والمايونيز. كلّه طعامٌ غني بالشحوم وفقير بالألياف.

ولم يكن بيرت ليهتمّ بهذه الأمور كثيراً لولا إصرار صديقه إلياس، واهتمام مارغو الكبير باتباع منهج غذائي سليم.

twitter @baghdad_library

لم يدر محرّك السيارة من المحاولة الأولى؛ ربّما يعود الخطأ إلى المفتاح أو إلى مشكلة أكبر يجب اكتشافها. مشاكل هذه السيارة كثيرة منذ البداية، والمصاريف التي يتكبّدها على تصليح أعطالها باتت غير معقولة.

في الطريق إلى المركز، راح بيرت يتخيّل ردّة فعل رئيسه على مقال الجريدة. قد يفور ويغضب ويشتدّ احمرار وجهه كالعادة. إنّه بلا شكّ معرّض أيضاً لنوبةٍ قلبية، ولعلّ معدّل ضغط الدمّ لديه، إبّان فورات الغضب وجولاته، يلامس مستوياتٍ عالية وخطيرة.

ولكن، لن يضطرّ بيرت إلى الوجود في مكتب الرئيس لفترة طويلة، فعند الساعة العاشرة، سيستقبل عائلة كارو في مكتبه. لقد طلبوا أن تكون المقابلة الثانية في المكتب وليس في شقّتهم لسببٍ لم يكن من الصعب عليه فهمه. كان قد ذهب إلى ذلك المكان مرّةً ثانية لكي يخبر عائلة ستايغر بما حدث لكارو.

كلّ ما شاهده في داخل تلك الشقّة كان مقزّزاً. الأواني المتّسخة تملأ المطبخ. ورق الجدران والستائر تلوّنت بالأصفر من شدّة تعرّضها لنيكوتين السجائر. وفي غرفة الجلوس، كان الجوّ محتقناً بدخان السجائر، والمقاعد تزدحم بالقطط.

جلست والدة كارو قبالة بيرت؛ امرأة سمينة مترهّلة الأطراف. كانت تدخن من دون انقطاع، وتداعب قطّةً سوداء تنام إلى جانبها طوال الوقت.

أمّا والدها فقد راح، بعد سماعه الخبر، يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً ويردّد من دون توقّف: «كنت أتوقّع حدوث هذا الأمر».

لم يتمكّن بيرت من الحصول على أيّ إجابة عن الأسئلة التي

طرحها عليهما. لذلك، ولأنّه لم يشأ الضغط عليهما، فقد عرض عليهما موعداً آخر.

«نعم، ولكن ليس هنا». قالت المرأة.

في طريق العودة، فكّر بيرت بعظمة الإنجاز الذي قامت به كارو عندما رحلت عن هذا المكان الموبوء. ولكن انفصالها عن عائلتها لا يعني أنّها لم تحمل معها مرارة مشاكلهم وفشلهم. لا يمكن أن ينجو مَن عاش طفولة بائسة كالتي عاشتها كارو من عذاب نفسي طويل الأمد.

وها أنّ الأفكار نفسها تعاوده في طريقه إلى المكتب وسط ازدحام السير هذا الصباح.

أدار الراديو ليتسلّى، فسمع موسيقى من نوع 'بوب' الصاخب. وتساءل إن كانت كارو قد أحبّت هذا النوع من الموسيقى كمعظم أبناء وبنات جيلها؛ وهل كانت ترتاد الملاهي اللّيلية؟ من هنا فكّر بضرورة التحدّث إلى صديقتيها مجدّداً وإلقاء نظرة جديدة على غرفتها.

كلّ الأمور تحتاج إلى الوقت. ولكن، الوقت الضائع قد يتيح للمجرم فرصة ارتكاب جريمة أخرى!

وانطلق صوت شاب عذب من الراديو يغنّي: «دعيني أهمس لكِ بشيء..»

فكّر بيرت كم يمكن للواقع أن يجمع من تناقضات في لحظةٍ واحدة. فها هو نفسه يوزّع انتباهه بين الموسيقى والجريمة في لحظةٍ واحدة، ويا لهما من ضدّين!

* * *

twitter @baghdad_library

شاهدها في حلمه.
كانت لا تزال حيّة وتضجّ شباباً.
وكانت تضحك. ألقت برأسها إلى الوراء وهي تضحك.
أكثر ما كان يحبّه فيها: ضحكتها.
وحيويّتها. كانت الحيويّة تفور منها وتطبع شخصيّتها.

لقد ذكّرته بالسعادة والفرح. حتى أنّه شعر هو نفسه بالفرح معها في بعض الأحيان.

«اجمع لحظات الفرح التي عشتها معها، واجعل منها عقداً تضعه حول عنقك، لكي لا تنساها أبداً في حياتك». هكذا حدّث نفسه في الحلم.

كان على وشك تحقيق ذلك. ولكنّه استيقظ من النّوم، وبكى.
لقد اشتاق إليها. يا إلهي. كم أشتاق إليها!

(9)

لم يكن يشبه رجال المباحث؛ أو على الأقلّ لم تتطابق صورته مع الصورة التي رسمتها في ذهني لرجل المباحث، على الرّغم من أنّه كان يراقب ما يجري حوله بدقّة. لا يفوتك من مجرّد النظر إلى عينيه وسمات وجهه أنّه مرهف الحسّ، وفائق الانتباه والحذر.

عندما سألته ميرلي إن كان يرغب في شرب القهوة، وافق ووقف خلفها يراقب عمل الماكينة المتطوّرة. ولكنّ وجوده في المطبخ دفع ميرلي إلى الإحساس بالحرج. فمن منطلق كونها ناشطة في الدفاع عن حقوق الحيوان، أحسّت بالمسافة الكبيرة بينهما.

طرح عليها بعض الأسئلة عن ماكينة القهوة فأجابته بجملٍ متقطّعة توحي بالتوتّر والحذر.

أخذ الفنجان من يد ميرلي معبّراً عن إعجابه بتقدّم التكنولوجيا؛ ثمّ وضعه على الطاولة وجلس بجانبي إلى جهة اليسار.

ازدادت تحرّكات ميرلي توتّراً، فأوقعت القهوة من يدها؛ ثمّ أوقعت الاسفنجة من يدها أيضاً عندما أرادت أن تمسح الأرض.

فكّرت بأن توتّر ميرلي سيدفع رجل المباحث إلى الشكّ بأمرها. ولكنّه سيظنّ أنّها ما زالت تحت وطأة الصدمة، ولعلّها كذلك في الحقيقة.

twitter @baghdad_library

«كيف حالكما بعد الحادثة؟» قال بشكلٍ مباشر ومن غير لفٍّ ولا دوران.

لم يكن لدينا جواب عن سؤاله. وبالأحرى كان من الصعب جدّاً علينا إيجاد الكلمات المناسبة لوصف حالتنا.

هزّت ميرلي بكتفيها بعد أن جلست هي أيضاً.

أحنى رأسه بتأثّرٍ، وقال: «لا شكّ عندي بصعوبة ما تمرّان به».

«أوه!» قالت ميرلي. «هل سبق لك وخسرتَ أحد أصدقائك أنتَ أيضاً؟» ورأيتها ترمقه بنظرات فيها الكثير من المواجهة والتحدّي. كنت أعرف طبع ميرلي وما تنذر به تلك النظرات. فتخوّفت من احتمال وقوع مشكلة بينهما.

بادل الرجل ميرلي النظر بالطريقة ذاتها، وأجاب: «كلا. ولكنّي تعاطيت مراراً مع أناسٍ عانوا كما تعانيان في هذا الوقت».

رفعت ميرلي الفنجان إلى شفتيها بيدٍ مرتجفة وأعادته بسرعة إلى الطاولة.

«جئت إلى هنا لكي أطرح عليكما بعض الأسئلة». قال، «ثمّ لألقي نظرة على غرفة كارو مرّةً ثانية».

عندما زار مع فريقه غرفة كارو في المرّة الأولى، تفحّصوا جميع محتوياتها من دون استثناء. وقد أمضى هو نفسه وقتاً طويلاً ناظراً إلى ألبوم الصور بالتحديد.

تبدو كارو في جميع صورها فتاة عاديّة تنبض بالحيويّة والنشاط. حتّى أنّك تخالها ستفتح باب الشقّة في أيّ لحظة، وتقول بحماستها المعتادة: «أتعلمين بمن التقيت اليوم!؟»

قلت: «أنت تعلم مكان غرفتها». لم أكن أرغب في مرافقته إلى تلك الغرفة، وكذلك ميرلي.

«ما الغاية من الدخول ثانيةً؟» سألتني ميرلي. «لقد فتّشوا في كلّ شيء، وأخذوا دفتر يوميّاتها. ماذا يريدون أيضاً؟ على كلّ حال، هل يحقّ لهم التدخّل في أشيائها الخاصّة إلى هذه الدرجة. ؟»

«لا أعلم». قلت. «ولكنّنا نريدهم أن يفعلوا كلّ شيء لكي يكشفوا الجاني. أليس كذلك؟»

نظرت ميرلي إليّ وشرارات الغضب تكاد تتطاير من عينيها، وقالت: «آه، كم أتمنّى أن أرمي ذلك النذل بالرصاص».

لم نشعر بخطى الضابط تقترب منّا، ولكنّنا سمعنا صوته فجأةً: «ألا تفضّلين أن نقوم نحن بالأمر عنكِ؟» ثمّ عاد ليجلس حول الطاولة معنا.

«هل تفكّرون حقّاً بقتله بالرصاص عندما تجدونه؟» قالت ميرلي، وكأنّها جادّة في محاولة تحدّي الضابط والشجار معه.

«لن نقتله بالرصاص». أجاب الضابط، «ولكنّنا بالطبع سنجعله ينال العقاب الذي يستحقّه».

«قد يمضي مثلاً عقوبة خمسة عشر عاماً في سجنٍ مريح. ستُتاح له فرصة قراءة الكتب ومشاهدة الأفلام، وتناول المأكولات المغذية والعناية الطبية اللائقة وتلبّى كلّ حاجاته. ثمّ يطلق سراحه مكافأةً على سلوكه الحسن؟ وربّما لن تتعدّى عقوبته ثلاث سنوات يمضيها في العلاج النفسي، بحجّة أنّه يعاني من خلل عقلي، وعقوبته مخفّفة؟»

«لن تكون حياته في السجن بمثل هذه السهولة. مجرّد وجود

twitter @baghdad_library

الإنسان خلف القضبان وفي زنزانةٍ مقفلة كفيلٌ بتعذيبه إلى درجة كبيرة جدّاً». قال الضابط.

«وعندما يخرج، سينشر مذكّراته، وقد يستدعونه ليكون ضيفاً في برنامج تلفزيوني». دفعت ميرلي كرسيّها إلى الوراء بقوّة ووقفت. «يمكنني أن أصف لكم ما يُستحسن فعله لمعاقبة المجرمين إن أردتم؟» ثمّ تركتنا ميرلي وخرجت من المطبخ.

شعرت بالحيرة قليلاً. هل أتبعها وأطلب منها العودة، أو أبقى في مكاني؟

«إنّها بحاجة إلى بعض الوقت». قال الضابط.

«ليست ميرلي كذلك». قلت. «إنّها تكره العنف، وهي مناهضة جدّاً لعقوبة الإعدام. حتّى إنّها تقول عادةً إنّ عقوبة السجن ذاتها، هي ظالمة بحقّ الإنسان. لا أدري لماذا تتكلّم بهذه الطريقة اليوم؟»

ولكنّي، وفيما كنت أتكلّم، كنت أتذكّر أنّ ميرلي قد تغيّرت في الآونة الأخيرة، أيّ منذ انضمامها إلى جمعية حقوق الحيوان. باتت الآن تؤمن باللّجوء إلى العنف عند الحاجة. خصوصاً أنّ بعض أعضاء الجمعيّة لم يتوانوا عن اللّجوء إلى العنف ضدّ من وقف في طريقهم خلال العمليّات السرّية لتحرير الحيوانات من المختبرات. ولكنّي لن أتمكّن من قول أيّ شيء من هذا القبيل لهذا الضابط الذي يمثّل السلطة المناهضة لتلك الأعمال.

«يسرّني أن أجيب عن أسئلتك. وعندما نحتاج إلى وجود ميرلي معنا سأذهب إليها، وأدعوها لكي تأتي».

اتفقنا حول ذلك. وقال إنّه يرغب في السؤال عن كلّ الأمور المتعلّقة بكارو. موقفها من عائلتها؟ رفاقها في المدرسة؟ هل كانت

تعيش حياةً هادئة ومتوازنة؟ ماذا عن علاقاتها العاطفيّة؟ هل كانت مرتبطة بعلاقة مستقرّة مع أحد؟ وهل لاحظنا أيّ تغيّرات في حياتها في المدّة الأخيرة؟ كان يريد أن يعرف حتّى عن بعض التفاصيل التي قد لا تبدو عادةً مهمّة.

قلت: «لم تكن سعيدة في المدّة الأخيرة على الرّغم من أنّها كانت تعيش علاقة حبّ. كان هناك ثمّة ما يقلقها في تلك العلاقة».

بدا شديد الاهتمام بكلّ ما كنت أقوله. أخبرته عن صديق كارو وغرابة أطباعه. وعن خوفها من أن يكون لوطيّاً؛ وعن جهلها لاسمه.

كان ذلك يبدو غريباً، ولكنّه كان كذلك في الحقيقة.

وأخبرته إنّ كارو كانت تستنبط له أسماء شتّى؛ ولقد منعها من الإفصاح أمام أحد عن علاقتهما؛ وأنّه طلب منها الانتظار.

«الانتظار؟ انتظار ماذا؟»

أحرجني التكلّم إلى رجلٍ غريب عن هذه الأمور. ولكنّي قلت بتردّد «لم يلمسها». وشعرت بخديّ يتورّدان خجلاً.

حوّل الضابط نظره عنّي ليتيح لي فرصة استعادة هدوئي. ثمّ قال: «كم من الوقت مضى على علاقتها بهذا الشابّ؟»

«بضعة أسابيع، ولكنّي لست متأكّدة. حتّى إنّي أجهل إن كان شابّاً أو عجوزاً». كنت حقّاً لا أعلم شيئاً كثيراً عنه. وكم ندمت لأنّي لم أصرّ على كارو لكي تطلعني على المزيد من المعلومات عنه.

كان الضابط ينظر إليّ، فتصوّرت ما كان يفكّر به؛ وأردت التوضيح: «كنّا نتصارح في أمورٍ كثيرة عندما نشعر بحاجتنا إلى ذلك».

«هل كانت كارو تلتقي بهذا الرجل كثيراً؟»

twitter @baghdad_library

قلت: «لا أدري. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أبقت كارو علاقتها طيّ الغموض، ولم تخبرنا الكثير عنها».

«قلتِ إنّك لا تعلمين إن كان ذلك الرجل شابّاً. هل تعنين أنّ مظهره كان يخفي عمره؟»

«كلاّ. أنا وميرلي لم نشاهده قطّ».

«لم يأتِ إلى هذه الشقّة قطعاً؟»

«نعم. كان يأتِ إلى هنا لقضاء اللّيل من حينٍ إلى آخر. ولكنّنا لم نره أبداً».

«ما السبب الذي حدا بكارو إخفاءه عنكما، برأيك؟»

«لأنّه منعها من التكلّم عنه».

«هل قالت لماذا؟»

«قالت إنّه يريد أن يكون متأكّداً أوّلاً من حقيقة حبّهما».

أطرق الضابط مفكّراً، ومن الشارع سمعنا صوت مرور سيّارة إسعافٍ أو شرطة. ففكّرت في جدوى ما نقوم به بالنسبة إلى كارو بعد أن فات الأوان.

«هل كلّ العلاقات التي ارتبطت بها صديقتك كانت معقّدة؟»

«معظم علاقاتها كانت تنتهي بسرعة». ولكن، خوفاً من أن يترك كلامي انطباعاً لدى الضابط بأنّ كارو كانت فتاة سهلة وكثيرة العلاقات، سارعت إلى التوضيح: «كانت تفتّش بجديّة عن الحبّ الصحيح الذي يستمرّ إلى نهاية العمر».

«هل كانت تعبّر عن هذا الأمر بهذه الطريقة؟»

ابتسمت قليلاً عندما تذكّرت كارو وهي تتكلّم عن الحبّ،

وقلت: «نعم. هكذا كانت تقول بالضبط. وفي المرّة الأخيرة، كانت تشعر بأنها وجدت حبّ حياتها».

«إذاً، كانت متأكّدة أنّه كان، من لم يكن هو في الحقيقة؟»

هززت برأسي إيجاباً، ولكنّي تعجّبت من شكوكه. فبحسب ما أخبرتني كارو، كان سبب تردّد صديقها عائداً إلى الظروف الصعبة التي عاشها في حياته. وهذا أمر مفهوم.

«أين يمكنني أن ألتقي بهذا الرجل؟»

«لا أدري». قلت له. «ليتني أعلم».

طرح عليّ الضابط أسئلة أخرى. سألني متى رأيت كارو، ومتى رأتها ميرلي، لآخر مرّة. وعن مدى معرفتنا بعائلتها. وسألني إن كنّا قد تلقّينا مخابرات هاتفية غريبة في الأسابيع الماضية، وهل لاحظنا وجود أشخاص غرباء حول المبنى؟

أجبت عن أسئلته بقدر ما استطعت، وكنت قد لاحظت أن يديّ ترتجفان من شدّة الإرهاق. لاحظ الضابط ذلك أيضاً، وانصرف.

طرقت باب غرفة ميرلي ودخلت. كانت ممدّدة على السرير، تصغي إلى الموسيقى والمخدّة بين ذراعيها.

«هل ذهب؟» سألتني بصوتٍ حزين.

«نعم، منذ لحظات».

«حسناً». قالت باسترخاء. «آسفة، لأنّي تركتك لتجيبي عن أسئلته بمفردك».

«لا بأس».

«هل اكتشفتِ شيئاً جديداً؟»

«نعم. اكتشفت أنّ كارو قتلت بين منتصف الليل والثالثة

twitter @baghdad_library

صباحاً». قلت بما يشبه الهمس. لم أجرؤ على سماع كلماتي. وكان الضابط قد أعلمني بموعد الدفن.

«ستجري مراسم الدفن يوم الاثنين». أضفت بهدوء.

دفنت ميرلي وجهها في المخدّة وأجهشت بالبكاء. تمدّدت إلى جانبها وغمرتها؛ وبقينا كذلك.

«هل تعلمين آخر ما قالته لي كارو؟» سألتني ميرلي بعد أن هدأت. «قالت لي إنّي بلهاء بسبب علاقتي بكلوديو». وضحكت ميرلي، ثمّ تحوّلت ضحكاتها إلى دموع، ثمّ ضحكت ثانيةً وتابعت: «مع أنّها لم تكن أفضل منّي في هذا الموضوع، أليس كذلك؟»

قلت: «بالطبع، لا». كنت أتمنى لو أبكي وأعبّر عن حزني مثل ميرلي. عوضاً عن البكاء، كنت أعاني من الصداع، وانقباض في معدتي. وفي بعض الأحيان، كنت أحسّ بالأوجاع في كلّ عظامي.

«هل تذكرين كلماتها الأخيرة لكِ؟»

«عبّرت عن شكرها على صداقتنا».

نظرت إليّ ميرلي بتأمّل: «ولكن، يا جنّا، هذا يوحي بأنّها كانت تودّعك».

«كلا، بل كانت المناسبة طبيعيّة لقول مثل هذا الكلام. كانت كارو قد حدّثتني عن صديقها العتيد. وقالت إنّها غارقة في حبّه **’حتى يفرّقنا الموت‘**».

«ما هذا يا جنّا؟»

«نعم يا ميرلي. هذا ما قالته في وصف حبّها لذلك الرجل، ’حتّى يفرّقنا الموت‘».

وانهمرت دموع ميرلي من جديد. «أتعتقدين أنّها شعرت بقوّة الحدس بما كان ينتظرها؟»

«لا أدري. ربّما كان لديها خوفٌ غامض كانت تتجاهله. ولكن، اسمعيني يا ميرلي، علينا أن نجد هذا الرجل!»

تشنّجت ميرلي من شدّة الرعب، وقالت: «هل تظنين أنّه القاتل؟»

أخيراً، انفجرتُ باكية أمام فظاعة هذه الفكرة. فغمرتني ميرلي بحنان.

«أرجو أن لا يكون ذلك التوقّع صحيحاً، ولكنّ إيجاد ذلك الرجل قد يساعدنا على حلّ اللّغز». قلت بعد أن هدأ روعي بعض الشيء.

لفظت عبارة 'حلّ اللّغز'، وشعرت كأنّي أتكلّم على طريقة شخصيّات القصص التي تكتبها أمّي.

* * *

قاد بيرت سيّارته عائداً إلى البيت، لكنّ حادثاً على الأتوستراد حدا بعدد كبير من السيّارات إلى سلوك الطرقات الفرعيّة الضيّقة غير المجهّزة لهذا النوع من الازدحام. وكان بيرت يعاني من وجعٍ في رأسه وانقباضٍ في معدته، ولكنّه سرعان ما شعر بتحسّن بعد أن أطفأ الراديو.

في بعض الأحيان، يتمنّى لو كان يعمل في مهنة لا تتطلّب منه رؤية أحد من البشر. كانت حنجرته قد جفّت في ذلك اليوم من كثرة الكلام، وعيونه قد تعبت، وأعصابه لا تزال مشدودة من شدّة التركيز والإصغاء.

twitter @baghdad_library

التحدّث إلى إبنة السيّدة ثالهايم كان ممتعاً على العموم؛ ولكنّ تصرّف صديقتها ميرلي شغل باله. لما شدّة ارتباكها يا تُرى؟ هل خافت من التكلّم إليه لأنّها تخفي أمراً هامّاً؟ ولكنّه لا يتهمها قطّ بالضلوع في جريمة قتل صديقتها؛ ولكن عليه أن يراقبها في جميع الأحوال.

أكثر ما أزعجه في ذلك اليوم كانت المقابلة التي أجراها مع عائلة كارو. كم يفتقر هؤلاء الناس إلى العواطف الإنسانيّة الطبيعيّة!؟ لقد ملأت الوالدة جوّ المكتب بدخان سجائرها، ولم يقم زوجها سوى بحركة الذهاب والإياب والدوران غير المجدي، كما فعل في شقّته.

تكلّم الاثنان بجملٍ مقتضبة وتعابير جافّة، ليس بسبب شدّة حزنهما، بل لأنّهما متعوّدان على التحدّث بهذه الطريقة. أما موقفهما من كارو فكان لا يزال تهجّمياً حتى بعد مصرعها. فقد أمضيا وقت المقابلة في الشكوى من كلّ شيء، وحتى من ابنتهما الميتة.

«لا أحد يهتمّ بنا». قالت الأمّ، مكتفية برمي تلك العبارة في الهواء من غير التوضيح بما تعنيه بذلك القول.

والدا كارو اعتبرا أنّ ابتعادها عن المنزل كان تهرّباً من مسؤوليّاتها نحوهما. وقالوا إنّها فضّلت عليهما الانتفاع بصحبة الفتاة الثريّة «ابنة تلك الكاتبة .»

« . كانت تخجل بنا. هذا كلّ ما في الأمر».

وقالوا إنّ ابنتهما كانت مغرورة، وتظنّ أنّها متميّزة عنهما، وغالباً ما كانت السبب في المشاكل التي يواجهانها.

« . لقد ألّبت علينا أخوها كالي».

مكان وجود الأخ مجهول حتّى السّاعة. لا يهتمّ والداه لظروف عيشه، أو لسلامته.

«. لم يعد طفلاً. هو قادر على حماية نفسه».

كانوا يلقون اللّوم على نظام المساعدات الاجتماعيّة وعلى مكتب إصلاح الشبّاب الذي سهّل إطلاق سراح كالي قبل التأكّد من إقلاعه عن عادة السرقة.

سأل بيرت: «ماذا عن أصدقاء كارو؟»

أجاب الأب: «لا أعلم شيئاً سوى أنّها انغمست في البغاء منذ أن بلغت الثانية عشرة».

كاد بيرت أن لا يصدّق أذنيه. نعم، هذا ما قاله الأب عن ابنته.
«. البغاء منذ سن الثانية عشرة».

كان بودّه أن يهجم على ذلك الرجل ويضربه. ولكنّه التزم السلوك المهني وأقفل الباب على مشاعره. وعندما يفعل ذلك، لا تتمكّن الكلمات التي يسمعها من اختراق مستويات عميقة في ذاته. وهذه الطريقة ليست سوى إحدى أساليب الحفاظ على البقاء التي كان قد تعلّمها في طفولته.

حتّى إنّه كان قادراً على الابتسام لوالديّ كارو. مجرّد ابتسامة سطحيّة عند اللّزوم تساعد في تشجيع الطرف الآخر على الكلام.

وكانت فعاليتها ظاهرة على والديّ كارو.

كان يصغي إليهما ويقرأ المعاني الظاهرة والخفية في كلامهما. لا شكّ أن العلاقة بين الفتاة ووالديها افتقرت إلى الحبّ العائلي والثقة المتبادلة، كما كان يشوبها مقدارٌ كبير من العنف الجسدي والغضب

twitter @baghdad_library

الذي لا يزال حاضراً حتى بعد موت كارو. وفهم بيرت جيّداً في تلك اللّحظة الأسباب التي دفعت الفتاة إلى الابتعاد عن عائلتها.

كان قرار كارو في الابتعاد شجاعاً؛ وبيرت يعلم كم يحتاج ذلك القرار من الشجاعة؛ فهو نفسه، لم يتمكّن من اتّخاذه. كان يتحمّل غطرسة والده وظلمه يوماً بعد يوم، من غير أن يتمكّن من التمرّد على الذلّ والابتعاد عن المنزل العائلي. ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ فقد كان يخاف من ترك والدته وحيدة في مواجهة الظلم والعنف.

كان والده يعتبر حياة بيرت وأمّه ملكاً له. وكان يصرخ قائلاً إنه يريد شذب أجنحتهما حتى لا يطيرا فوق قدرتهما، ويتخطّيا حدودهما. ولكنّه من شدّة تعسّفه، لم يشذِّب الأجنحة فحسب، بل كسرها.

والأجنحة المكسورة لا تلتحم بسرعة. فالألم ما زال حيّاً حتى الساعة، حتى بعد مرور زمنٍ طويل.

يبدو أنّ ملحمة العذاب التي عاشتها كارو غير بعيدةٍ عنه. وتذكّر بيرت مشهد ذراعيّ الفتاة، وشعر بضيق حنجرته، قبل أن يطرح السؤال: «هل بدأت كارو بإيذاء جسدها منذ زمن بعيد؟»

نظر الأب إلى بيرت مُظهراً استخفافه بالموضوع: «تعني تلك التصرّفات الاستعراضيّة التي كانت تفعلها؟»

«هل حاولت مساعدة ابنتك لتخطّي هذه المشكلة؟»

«هل تقصد اللجوء إلى طبيب المجانين؟» قال وهو يضحك. «لم يكن ينقصنا سوى ذلك».

في تلك اللّحظة، شعر بيرت بأنّ جوّ الغرفة بات خانقاً، ولم

يكن ذلك بسبب دخان السجائر فحسب. قام من مقعده وفتح النافذة، ولكنّه أدرك أنّ حبل صبره بات قصيراً، فقرّر إنهاء المقابلة.

أعلن نهاية المقابلة بسرعة واختصار، ثمّ فتح الباب وهزّ رأسه مودّعاً.

* * *

كان يقوم بعمله ويحاول تخدير مشاعره.

ولكنّ الأمر ليس بهذه السهولة.

بإمكانه السيطرة على مشاعره في حالات الرّضى فحسب، ولكنّها قليلة!

نجحت كارو مراراً في حمله على النسيان، عندما كانت تُدخله معها إلى شرنقتها الخرافيّة التي اخترعتها لنفسها حيث الانسجام التّام والاسترخاء في كلّ شيء، وحيث لا وجود للأحقاد ولا للعنف أو الجوع.

لم يصدّق في البداية أنّها لا تتعاطى المخدّرات، ولكنّه اكتشف في ما بعد أنّ جنونها كان طبيعياً، وكافياً لحملها إلى تلك العوالم الخاصّة التي سحرته فأحبّها وضعف أمامها.

لو تعرّفت أمّه إلى كارو لما أحبّتها. فهذه الأخيرة لم تكن مهادنة وهادئة ومتواضعة كمثال الفتاة الذي يعجب أمّه.

حاولت أمّه في شبابها الاختباء وراء تلك الصورة الأنثويّة الباهتة الألوان ولم تنجح. فملامح شخصيّتها الأساسية لم تتوانَ عن الظهور وهي التي دفعتها للانجراف وراء حبّ صبياني عبث بمستقبلها.

كانت كارو بالنسبة إليه بمثابة الوحي السمائي. وكانت جميلة وشابّة وبريئة كالأطفال؛ أيّ إنّها تتحلّى بجميع الأوصاف التي يحبّها

twitter @baghdad_library

لدى الفتاة. وكان يتأثّر بإيمانها بتغلّب عنصر الخير على الشر في الطبيعة البشرية برغم ما تعرّضت له في طفولتها من اضطهاد.

ألم تقل له مرّةً: «عندما أكون معك أتمكّن من إنجاز أيّ أمرٍ مهما كان مستعصياً؛ قد أتمكّن حتى من استعادة علاقتي الطبيعيّة مع والديّ والتعويض لهما عمّا مضى».

كان يستمتع بالإصغاء إليها ويحلو له سماع صوتها الذي يدلّ عن نضجٍ يتخطّى سنّها. وعندما كانت تستغرق في التفكير بصمت، كان يشاركها الصمت.

بين أتلام الفراولة المتوازية بدقّة، وفي فوح عطرها الطيّب، كانت الأيدي والسواعد والأظهر المنحنية، وأشعّة الشمس وقطرات العرق، والأصوات والكلمات والضحكات تتحرّك معاً.

وكان ناثانيال يعمل بصمت، من غير أن يشاركه أحدٌ صمته.

(10)

وكأنّ ذلك النهار الصيفي بامتياز كان مناسباً لعرسٍ وليس لدفن فتاة في عمر الزهور. أشعّة الشمس تضيء السماء والأرض والعصافير تغنّي وتزغرد. وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحاً.

مشينا ميرلي وأنا على الإسفلت الحار في اتجاه الكنيسة بصمت. لقد آثرنا السير على الأقدام لكي نواكب كارو إلى مثواها الأخير بصفاء فكرٍ وهدوء.

مواكبتها في الرحلة الأخيرة. لم تعنِ تلك العبارة لي الكثير من قبل. ولكنّي في فجر ذلك اليوم، فكّرت بها وبكيت بحدّة.

«كان علينا أن نبقى إلى جانب كارو طوال الليل». نامت ميرلي مساء أمس واستيقظت هذا الصباح وهي تقول هذه الجملة، وما زالت تعيدها وتشعر بالذنب.

شبكت ذراعي بذراعها، وقلت: «ألا نريد نحن الاثنتين أن نذكر كارو كما كانت؟ ثمّ إنّ الوقت قد فات الآن، أليس كذلك؟»

هزّت ميرلي برأسها موافقةً. ميرلي المتخبّطة في بحر اليأس باتت تتمسّك بكلّ قشّةٍ أطرحها أمامها من أجل النجاة.

كانت ميرلي قد أكّدت لي مرّة أنّ باستطاعة الأموات الشعور بوجود من حولهم وسماع أصواتهم خلال بضع ساعات بعد حدوث

twitter @baghdad_library

الوفاة؛ وإنّه من المهمّ أن يبقى أحبّاء الميت وأصدقاؤه بقربه خلال هذه الفترة. وبناءً على ذلك، قلت: «لقد مضى على موت كارو عدّة أيّام، وما كانت لتشعر بوجودنا لو بقينا إلى جانبها خلال اللّيلة الماضية».

نجحنا في الإمساك عن البكاء في تلك اللّحظات، والتزمنا الصمت وتابعنا خطواتنا.

لم نكن من أوائل الواصلين إلى المكان كما ظننّا. كانت السيّارات قد ملأت الموقف، وعدد كبير من الناس، معظمهم في ثياب الحداد السوداء، يتجمّعون هنا وهناك خارج باب الكنيسة في انتظار ابتداء المراسم.

معظم رفاقنا من المدرسة كانوا حاضرين، وقد جاؤوا برفقة المسؤول عن صفّنا، الأستاذ ميلنبوك.

«ألا يكفيه مقدار الأذى الذي ألحقه بكارو حتى الآن؟» كانت ميرلي تتكلّم عن الأستاذ ميلنبوك، وهو أستاذ مادّة الفيزياء. كنّا نقضي معظم الوقت خلال حصّة الفيزياء في التهام الحلوى التي كان علينا تقديمها إلى الصفّ، عقاباً على تقصيرنا عن إتمام واجبٍ معيّن.

كان الأستاذ ميلنبوك يحتقر كارو ويتعاطى معها بفوقية وقحة. ومن جهتها، كانت هذه تقدّم له قطعة الحلوى «العقاب» بعد أن تبصق عليها.

لم نعر ميلنبوك أيّ أهميّة، بل مشينا من غير الالتفات إليه ودخلنا إلى الكنيسة، وجلسنا في الصف الأمامي الثاني.

جثا التابوت وسط بحر من الأكاليل والأزهار والشموع المضاءة؛ وكان مصنوعاً من خشب السنديان. ولكنّه كان قاسياً ومخيفاً على

الرغم من باقات الورود البيضاء المتناثرة عليه وكذلك مفاصله الذهبية اللامعة.

وأسدلت الستائر لتحجب نور الشمس، فكان امتداداً شاحباً للظلمة التي تسكن كارو.

ولكنّ كارو عشقت الشمس إلى درجة العبادة. كانت تخشى الظلمة وتحبّ إضاءة الشموع.

كان جوّ الكنيسة متناقضاً مع ما أحبّت كارو. فحتى ضوء الشموع كان خجولاً وسقيماً.

«ليس بوسعي احتمال هذا الجوّ». قالت ميرلي.

«بلى، سوف تحتملينه». قلت لها. وتنبّهت إلى نبرة صوتي الجافّة، فكأنّي كنت أصدر أمراً.

أخذت المقاعد تمتلئ، وغصّت القاعة بالحضور. فتأملت في غرابة ما يجري. ها هي كارو التي كانت تخشى الوجود بين حشدٍ كبير من الناس في حياتها، تستقطب حشداً غفيراً منهم في مماتها.

بقيت مقاعد الصفّ الأمامي خالية لوقتٍ طويل. ثمّ وصل والدا كارو وأخوها كالي. وبدت تعابيرهم قاسية كالحجر ووجوههم شاحبة. التفت كالي إلى الوراء نحونا بنظرات غير واثقة، وبدا باكياً.

وبعد قليل، وصل بعض أقرباء العائلة وجلسوا في الصفّ الأمامي أيضاً، وراحوا يتفرّسون في وجوه الناس من غير حرج، ويتهامسون حتّى أفسدوا جوّ الصمت السائد.

اعتلى الكاهن المنصّة، ووضع أمامه كتاباً سميكاً، وأخذ يقلّب صفحاته. وكنّا، ميرلي وأنا، قد أخبرنا الكاهن في وقتٍ سابق عن نيّتنا في قول كلمة خاصّة بعد انتهائه من تلاوة النصوص الجنائزيّة.

twitter @baghdad_library

شعرت في تلك اللّحظة برهبة الموقف. وتهيّبت من مسؤولية الوقوف أمام هذا الجمع من البشر للتكلّم على أمر يمسّني في العمق. تلمّست يد ميرلي فوجدتها متعرّقة ومرتجفة بعض الشيء، فأبقيتها في يدي وشددت عليها بقوّة.

من الكلام، إلى الصلاة، ثمّ إلى العزف الموسيقي؛ وتراتيل دينيّة تبرّعت بأدائها فرقة محليّة بأصواتها العذبة. أحبّت كارو التراتيل الدينيّة ولا بدّ أنّها ستكون راضية لو سمعتها من مكان وجودها في تلك الساعة.

بعد ذلك، أومأ الكاهن إلينا لنصعد إلى المنصّة.

«تكلّمي أنتِ». قالت ميرلي بعد أن دفعت الورقة التي كنّا قد أعددناها معاً إلى يدي.

شعرت باهتزاز في ركبتي، وعندما لمحت الوجوه الناظرة إليّ، كانت الصورة مغشاة ومرتجّة، فانتابني خوف من احتمال تلعثم لساني وانهمار دموعي.

ثمّ شعرت وكأنّ تيّاراً من الهدوء قد سرى فجأةً في كياني، فوقفت بصلابة.

«كارو!» قلت، ملاحظةً نبرة صوتي، «. لا أعلم إن كنتِ قادرة على سماعي أو رؤيتي في هذه اللحظة. أتمنى ذلك، لأنّ لديّ ما أقوله لك».

لم أكن قد فكّرت مسبقاً بهذه الكلمات، ولكنّي لم أشعر بالخوف من المتابعة، فالمسألة تخصّ كارو وتخصّني وأريد حلّها.

«لم يكن موتك طبيعيّاً، بل قتلاً».

وشوشات وهمسات علت وسرت بين صفوف الحاضرين، ولكن لا شيء كان سيمنعني من المتابعة.

«أتمنى لو أعلم لماذا سمح الله بحدوث ذلك، ولكن الله لا يكلّمنا نحن البشر. ولكونه الله، فهو لا يفسّر لنا أسباب ما يحدث».

ومن طرف عيني، لمحت الكاهن يضع يده على خدّه. كان عاجزاً بالفعل عن القيام بأيّ شيء آخر. لن يحاول إكراهي على التوقّف عن الكلام على مرأى من جميع هؤلاء الناس.

«كنت تتحضّرين لتحقيق أمنيات كثيرة في حياتك، وأوّلها الشعور بالفرح والسعادة».

مدّت ميرلي يدها وأمسكت بيدي، فعرفت أنّها تبكي.

«لم يكتشفوا قاتلك بعد. ربّما اعتقد أنّه سينجو من العقاب. ولكنّي لن أسامحه. إنّي أكرهه وأحتقره. لقد ألحق بكِ مقداراً كبيراً من الأذى. لقد سرق منك حياتك».

مسحت ميرلي دموعها. وسرعان ما رأيت عدداً من المحارم بين أيدي الناس وفوق وجوهها. والتقت عيناي بعينيّ والدتي القلقة. ولكنّي لم أنتهِ بعد.

سمعت الناس يتهامسون. ولم آبه لهمساتهم.

«لن أستسلم حتى يُلقى القبض على القاتل. لن أستسلم حتى يدفع القاتل ثمن فعلته الشنيعة. أعدكِ يا كارو بأنّي سأجد ذلك الرجل؛ ولقد تعاهدنا على الوفاء بالوعد».

ما لبثت تلك الكلمات الأخيرة أن خرجت من فمي حتى غادرني الهدوء، وحلّ مكانه التوتّر.

twitter @baghdad_library

مشاهد مؤثرة في وداع كارولا!

تمّت البارحة في «مدافن الغابة» مراسم دفن كارولا ستايغر، أصغر ضحايا المجرم «هاوي القلادات». لم تستوعب الكنيسة أعداد الناس الذين حضروا للمشاركة في وداع هذه الفتاة التي قضت نتيجة عنفٍ وحشي قلّ مثيله، فإذا بالكثيرين منهم يتابعون القدّاس من خارج باب الكنيسة.

الكاتبة الشهيرة إيمكي ثالهايم كانت بين الحاضرين، وجدير بالذكر أنّ ابنتها، جنّا واينغارتنر، التي كانت ترتبط بصلة صداقة قويّة بالضحية، ألقت كلمة وداعٍ مؤثّرة لصديقتها ضمّنته وعداً قويّاً لها بالتفتيش عن القاتل وتهديداً له بأنّها لن تستسلم حتّى يأخذ عقابه أمام العدالة.

قام الكاهن فريدهلم أفترمات بعدئذٍ بالتأكيد على عدم تأييده لمعاني الانتقام والأخذ بالثأر، وشجّع الحاضرين على الصلاة من أجل راحة نفس الضحيّة، وأيضاً من أجل قاتلها الذي أضاع نفسه.

ثمّ شقّت جنّا وصديقتها الجمع وتوجّهتا إلى الخارج، فتبعهما العديد من الناس ليسيروا معهما برهبة وراء موكب الضحية إلى مثواها الأخير.

لم يكلّف بيرت نفسه عناء متابعة القراءة ولكنّه استغرب أنّ الكاتب هاجو غيرتز لم يسعَ إلى المبالغة والإثارة هذه المرّة. لأنّ ما جرى في الحقيقة كان أكثر ضخامةً ووقعاً من وصف الكلمات. فبعدما انتهى الكاهن من التعليق على كلام جنّا، أبدى السامعون استياءهم منه

بطريقة مباشرة وواضحة جدّاً، ما حدا بالكاهن إلى الطلب بطريقة الرجاء اليائس التزام الهدوء منعاً لتفشّي الفوضى. فقال راجياً وبالتحديد: «أرجوكم! أتوسّل إليكم أن تهدأوا. تذكّروا أنّنا في مأتم!»

«نعم وبالضبط، نحن في مأتم ونرجو منك بالذات أن تتذكّر ذلك!» أجابه أحد الحاضرين بصوتٍ جهوري.

كان بيرت قد تمنى أن تجري مراسم دفن كارو بأسلوبٍ مهيب ولائق؛ ولكنّه، وبعد ما حدث، تنبّه إلى أنّ المأتم هو لفتاةٍ أطفئت شعلة حياتها قسراً على يد مجرمٍ سفّاح، ومن غير الطبيعي أن تجري مراسم دفنها بأسلوبٍ تقليدي ورتيب.

وحتّى ابتعاد المقال الصحفي عن الابتذال المعهود، فقد فرضه بالتأكيد موقف جنّا المؤثّر والقوي. لقد تردّدت كلماتها في كلّ زوايا الكنيسة ووصلت إلى أعماق كلّ من حضر، ومنهم بيرت.

لقد أعجب بيرت بشجاعة جنّا وصمود ميرلي التي لم تبتعد عن صديقتها على الرّغم من دموعها المنهمرة باستمرار. ولكنّه، ومع احترامه الشديد لموقف الفتاتين، كان مستاءً من الخطر الذي قد يجرّه عليهما التحدّي الصريح الذي أعلنته جنّا ضدّ القاتل. ألا تكفيه التعقيدات التي تواجهه في هذه القضيّة حتى يلاحقه أيضاً هاجس سلامة هذين الملاكين المصمّمين على الانتقام؟

قام بيرت من مقعده إلى اللّوح الكبير الذي يحتلّ معظم الحائط الممتد بين باب المكتب والنافذة. وكان يلجأ إلى هذا اللّوح ليساعده في تنظيم أفكاره.

وعلى اللوح، وضع الضابط صوراً للضحايا وللأمكنة التي وجدت فيها الجثث وبعض قصاصات الجرائد، وأوراقاً خربش عليها

twitter @baghdad_library

بعض أفكاره. ورسوم تمثّل القلادات المسروقة؛ وخرائط المناطق حيث ارتكبت الجرائم.

كلّ ما يعلّقه بيرت على اللوح كان رهن التغيّرات والإضافات ووجهات النظر المستجدّة.

وها أنّ الصور التي التقطتها مساعدة بيرت للحاضرين في مأتم كارو وجدت مؤخراً طريقها إلى اللّوح أيضاً.

استبعد بيرت وجود المجرم بين الحاضرين. ولكن، غالباً ما يتصرّف القاتل بوقاحة غريبة ويحضر مراسم دفن ضحيّته ليراقب نتيجة فعلته الشنيعة حتى النهاية.

لم يكن من الصعب عادةً على ملزيغ وضع نفسه في مكان المجرم، لكي يفهم دوافعه واستراتيجيّته في التواري والهروب؛ ففي داخل كلّ منّا نزعات إجراميّة، يقول بيرت، ولكنّنا نرفض الاعتراف بها.

نظر بيرت إلى الوجوه في الصور فوجدها عديدة جدّاً ويسودها الحزن. وحتّى لو كان وجه المجرم القاسي بينها فسيكون من الصعب جدّاً ملاحظته.

أمّا لو صحّ الافتراض أنّه كان حزيناً كالآخرين، فأيّ علاقةٍ كانت تربطه بكارو؟ هل وقعت كارو في عداد ضحاياه بمحض الصدفة؟ أو أنّه كان يعرفها جيّداً؟

وربّما كان يحبّها قليلاً أو كثيراً، فكّر بيرت وهو يعود إلى مكتبه ويسحب دفتر يوميّات كارو نحوه.

تعوّد قراءة حروفها المنحنية إلى الوراء والتي تبدو على وشك

التعثّر والوقوع. كانت كارو تخربش على دفتر يوميّاتها بحريّة ولم تتوقّع أنّ أحداً سيقرأ كلماتها تلك ويطّلع على أفكارها السرّية في يومٍ من الأيّام.

كتبت كارو بلغة سهلة لا تحتمل التأويل. عدا عن أنّها عبّرت أحياناً بصراحة كبيرة عن كراهيّتها للناس ولنفسها.

كانت غير راضية عن نفسها وتقسو في الحكم عليها. كما لم تتوقّع أن تعاملها الحياة برحمة.

حتّى جاء اليوم حين التقت بذلك الرجل. في ذلك اليوم رقص قلبها فرحاً.

2 تموز/ يوليو

إنّه يحتلّ جميع أفكاري. أشعر كأنّي أسبح في الفضاء؛ أو أطير كالفراشة. وأشعر أيضاً أنّي أعرفه منذ زمن طويل؛ ولكنّه في بعض الأحيان يبدو غريباً جدّاً. ربّما هذه هي علامات الوقوع في الحبّ.

لا أحد من الصبيان أو الرجال الذين عرفتهم من قبل يشبهه. أتساءل الآن ما الذي جعلني أميل إلى أيٍّ من هؤلاء.

عندما ينظر إليّ؛ نظراته تفرض عليّ الخرس فألتزم الصمت. إنّي مستعدّة لفعل أيّ شيء من أجله، أيّ شيء!

3 تموز/ يوليو

ليس لديه أوقات فراغ كثيرة. أشتاق إلى رؤيته وإلى سماع صوته وملامسة جلده، على الرغم من قلّة الملامسات التي يسمح بها.

لا أفهم موقفه الغريب هذا، فهو يتصرّف كأنّه يخاف من يديّ أو

twitter @baghdad_library

من شفتيّ، وأكثر ما يحبّه هو النظر إليّ. ينظر إليّ وينظر حتى أشعر بالحرج فألجأ إلى الضحك.

4 تموز/ يوليو

لم أره اليوم.

إنّه يومٌ ضائع من عمري. يومٌ أسود، أسود، أسود.

أين أنت أيّها الحبيب؟

حتى إنّي أجهل اسمه.

5 تموز/ يوليو

وأخيراً قبّلني!

أنفاسه تعبق برائحة الصيف والشمس.

قلب بيرت الصفحة بعناية وهو يفكّر بالنفحة الشعرية في كلمات كارو التي كانت تضجّ بالعشق والحياة والأمل والفرح، على الرغم من الشكّ الذي كان يتسلّل إليها ببطء.

6 تموز/ يوليو

لماذا لا يمكنني التكلّم عن علاقتنا؟ لم أتعوّد إخفاء الحقيقة عن ميرلي وجنّا من قبل، لكنّه يصرّ على أن تبقى علاقتنا سرّاً. يقول أنّه مرّ بتجارب صعبة.

تجارب صعبة! عمّا يتكلّم؟ حياتي كلّها مجموعة من التجارب الصعبة.

7 تموز/ يوليو

وكأنّنا نمثّل دور المحبّين أمام جمهور غير منظور.

لا يصغي إليّ عندما أحاول إقناعه، ففي كلّ مرّة يجيبني أنّ الوقت «لم يحن بعد».

حنون وعاطفي ولكنّه في بعض الأحيان بارد وقاسٍ كالجليد. نظراته عندئذٍ تخيفني. لا أدري لماذا مزاجه متقلّب إلى هذا الحدّ، فكأنّ أمراً معيّناً يؤثّر به فجأةً ويغيّره.

8 تموز/ يوليو

أحبّه. أحبّه. أحبّه!

9 تموز/ يوليو

لا يحبّ الماكياج على وجهي. ولا يريدني أن أرتدي ثياباً مثيرة. لا يعلم شيئاً عن الموضة ويصرّ على الحشمة أكثر من البابا في الفاتيكان. ولكنّي أحبّ ذلك فيه أيضاً.

لا يحبّني أن أتكلّم أو أن أقهقه بصوتٍ عالٍ ويقول إنّ ذلك هو تصرّف مبتذل. لا أصدّق أنّه ما زال هناك في هذا العصر رجالٌ يفكّرون بهذه الطريقة.

أمور كثيرة لا يحبّها، ولكنّه ولحسن الحظّ يخبرني عنها لكي أتحاشاها.

10 تموز/ يوليو

لن يوافق بالطبع على عادتي في تدوين يوميّاتي. يجب أن لا

twitter @baghdad_library

أقول له ذلك. لا يمكنني التخلّي عن يوميّاتي حتّى من أجله هو؛ فبفضل يوميّاتي لا أزال حيّة.

قام بيرت من مقعده وتوجّه إلى آلة القهوة في الممرّ. ثمّ عاد وهو يرشف قهوته ويفكّر أنّ عليه أن يجد ذلك الرجل الذي كتبت عنه كارو وشغل عقلها وقلبها. لم تكن علاقتهما طبيعيّة!

تذكّر بيرت نفسه عندما تعرّف إلى مارغو ووقع في حبّها. شعر في ذلك الوقت كأنّه يعيش في فضاءٍ من السعادة وأنّ الدنيا لم تعد تسعه. وراح يتكلّم عن حبّه الجديد إلى زملائه وأصدقائه؛ لو فُرض عليه الصمت في تلك الأيّام لتمزّق أو انفجر!

11 تموز/ يوليو

أحلم بكتابة الأشعار عنّي وعنه وعن حبّنا، وتوزيعها من الجوّ على المدينة كلّها، لكي يعلم جميع الناس أنّه الرجل الذي أحبّ.

ولكنّه لا يسمح لي حتى بالكلام عنه.

«ولكن، ماذا عن جنّا وميرلي؟» قلت له. «لقد تعوّدنا أن نخبر بعضنا كلّ شيء».

«لا تخافي. لن أفرض عليك الصمت لوقتٍ طويل». قال ورمقني بنظرةٍ جعلت قلبي يرفّ في صدري كالعصفور في القفص. «بعد ذلك، يمكنك نشر الخبر حتّى في الجريدة!»

ثمّ أخذني بين ذراعيه فأردتُ أن أفكّ أزرار قميصه ولكنّه أمسك بيدي بشدّة ومنعني عن ذلك؛ ثمّ قبّلني. وبعد ذلك، راح يتكلّم عن مواضيع شتّى فتغيّرت الأجواء.

ساعدت القهوة بيرت على استعادة بعض نشاطه، فأزاح يوميّات كارو من أمامه، وحاول أن يستعيد تجرّده العاطفي بالنسبة إلى تلك الفتاة وقصّتها، فالموضوعيّة في التفكير هي من شروط النجاح في مهنته.

ثمّ تذكّر وجه كارو الصغير وجسدها النحيل، وأظافرها وذراعيها وساقيها التي كانت لا تزال تحمل آثار القضم والعضّ والأذى الذي كانت تلحقه بنفسها.

تنهّد وأعاد جميع الوثائق المتعلّقة بقضيّتها إلى أمامه وباتت عديدة. وبات من الصعب عليه أيضاً الاشتغال بقضيّةٍ أخرى غير هذه القضيّة، فكلّ ما هو موجود على مكتبه يدور حول كارو.

وعندما دخلت الشرطيّة التي تعمل في فريقه، قابلها بالسّخط من دون مبرّر. من جهتها، رفعت حاجبيها استغراباً ولم تقل شيئاً. إنّهما يعملان معاً منذ زمنٍ طويل؛ ويعرف واحدهما مناطق الضعف والقوّة لدى الآخر، فكأنّهما زوجين قديمي العهد بالزواج.

«أعتذر!» قال لها. «لا أعلم لماذا أثّرت بي جريمة قتل كارو ستايغر إلى هذه الدرجة».

الجواب أنّ كارو كانت تشبهه إلى حدٍّ كبير. لقد قاست كثيراً من العذاب مثله؛ ولكنّه يحتفظ بهذا الأمر لنفسه.

* * *

القلق يساور إيمكي ثالهايم، ولكنّها تحاول إسكات مخاوفها بشأن ابنتها تماماً كما تعوّدت إسكات كل ما من شأنه إشغال بالها. والكتابة، بالنسبة إليها، كانت ولم تزل الملاذ الأمثل للراحة.

كانت قد عادت بعد انتهاء مراسم الدفن إلى بيتها. أطعمت

twitter @baghdad_library

الهرّتين، ثمّ أعدّت فنجاناً من مزيج خاصّ من الأعشاب وحملته معها إلى الفناء الخارجي علّها تستعيد مزاجها للكتابة.

ولكنّها لم تفلح في استعادة هدوئها. اتّصلت بوالدتها وتبادلت معها بعض الأحاديث؛ ثمّ اتّصلت بصديقها تايلو الذي كان قد ذهب إلى أمستردام لحضور مؤتمر، ولكن لا شيء من ذلك ساهم في مساعدتها.

انقضى الليل ولم يزر النعاس عينيها؛ وفي الصباح جلست من جديد في الخارج مع فنجانٍ من الشاي، لعلّها تنجح في كتابة بعض السطور.

لقد بلغ الصيف أوجّه هذه السنة قبل الأوان المعتاد. كانت أشعّة الشمس الحارّة تغمر المرج، وقطيع الخراف يرعى بسلام والهرّتان تتمدّدان بكسل في ظلّ جدران القبو.

شعرت إيمكي بالارتياح قليلاً أمام ذلك المشهد المعتاد، ولكنّ القلق لم يزل متمكّناً منها. كيف تعرّض جنّا نفسها لمثل هذا الخطر؟

لقد تحدّت القاتل وهدّدته بشكلٍ مباشر!

ربّما كان القاتل حاضراً في الكنيسة، وربّما سمع تهديد جنّا وقرّر مواجهتها!

وضعت إيمكي فنجان الشاي من يدها بعد أن أحسّت بخدرٍ في أصابعها وقشعريرة بردٍ تسري في كيانها. من أين لها أن تكتب وهي في هذه الحال؟

ودقّ جرس الباب، فقامت لتجيب.

فإذا بها تجد تايلو أمامها بابتسامته المعهودة. «اشتقت إليكِ!» قال، وهو يشدّها نحوه.

«ألم تكن في أمستردام؟» قالت، بعد أن طبعت قبلة على عنقه.

هل انتهى المؤتمر؟ سألته باستغراب.

«لا ولكنّي آثرت المغادرة هذا الصباح، قبل انتهاء المؤتمر بيومٍ واحد». أجاب وهو يتأمّل في وجهها. «تبدين على ما يرام. ولكنّي أرى بعض الشحوب حول أنفك. هل أنتِ متعبة؟»

مشت أمامه نحو المطبخ، وأخذت فنجاناً من الخزانة «إنّي أشرب الشاي. أترغب بمشاركتي؟»

تايلو يعشق شرب الشاي ولا لزوم للسؤال! ولكنّه كان يبدو منشغل البال.

«هل ثمّة مشكلة؟» سألته إيمكي بعد أن توجّه الاثنان إلى الفناء وجلسا حول الطاولة.

«إنّه السؤال الذي أريد أن أطرحه عليك». قال وهو يسترخي في مقعده.

«هل تقصد موضوعاً معيّناً؟» أجابت إيمكي. كان يبدو شديد الجاذبيّة. لقد اكتسب جلده لوناً برونزيّاً ساحراً هذا الصيف، وشعره الأشقر المخطّط بالشيب ما زال جميلاً على الرغم من بوادر الصلع التي باتت ظاهرة عند أعلى الجبين.

«في الحقيقة، إنّه موضوع جنّا والتحدّي الذي أطلقته ضدّ ذلك القاتل 'هاوي القلادات' كما يسمّونه».

نظرت إليه إيمكي بتعجّب. «ولكن كيف عرفت عن هذا الأمر. .؟»

«قرأت الجريدة».

«ولكنّك كنت في أمستردام».

twitter @baghdad_library

«نعم. ولكنّي أستطيع قراءة الجرائد الألمانيّة هناك أيضاً. وكان الخبر يتصدّرها جميعاً. 'صديقة الضحيّة تهدّد القاتل. صديقة الضحيّة تلاحق القاتل' لن تفوّت الصحافة على نفسها هذه القصّة المثيرة، خصوصاً أنّ بطلتها هي ابنة الكاتبة الشهيرة إيمكي ثالهايم».

«هؤلاء الانتهازيّون!»

«يكسبون عيشهم بفضل القصص المثيرة التي ينشرونها. وأنت قبل كلّ الناس يا أيكي، تفهمين هذا الأمر».

وحده، كان يدعوها باسمها الطفولي «أيكي»، وحرّك سماع هذا الاسم عواطفها فشعرت بميل شديد إلى البكاء. «هل هذا ما دفعك إلى الإسراع في العودة؟» سألته.

«توقّعت أن تكوني في غاية القلق».

«إذاً أرجو أن تساعدني، قل لي ماذا عسانا أن نفعل؟» قالت، وهي تحاول استنشاق بعض الأنفاس العميقة لتسيطر على نوبة الارتجاف التي سيطرت عليها.

(11)

كان بودّه حقّاً أن يحزم أغراضه ويرحل. لم يعد يطيق المنطقة ولا زملاءه في العمل ولا حرارة الشمس القويّة، كلّ شيء بات يشعره بالغثيان. تداهمه هذه الأحاسيس عينها كلّ مرّة بعد حدوث ذلك الأمر. كلّ المشاعر السلبية ضدّ محيطه تزداد، ونفوره من الناس يتخطّى حدود طاقته على الاحتمال.

كان بحاجةٍ إلى الابتعاد بعض الشيء عن كلّ شيء لكي يلملم نفسه.

ما زال يشعر بالشوق إلى كارو ولكنّ غضبه منها يخالط حزنه عليها. غاضبٌ لأنّها خيّبت أمله.

والغضب أسهل عليه من الحزن؛ إذ يشعره بالقوّة، فيما الحزن يوهن قواه.

وأين يقع الحبّ في كلّ هذا؟

الحبّ الذي هو الاجتماع الطبيعي لجزئين متكاملين والذي ينتج عنه كلٌّ واحدٌ جميلٌ وصحيح.

هذا الكلّ الذي كاد أن يكتمل انكسر فجأةً. ولكنّه لم ينكسر إلى جزئين فحسب، بل تفتّت إلى أجزاء عديدة.

وبقي هو هنا حطاماً، وفتاتاً متفجّراً.

twitter @baghdad_library

حتّى لو بذل أقصى جهوده لكي يلملم حطامه ويشفي جروحه، فآثار هذه الجروح لن تفارقه؛ بل ستبقى معه إلى الأبد.

وعلى من تقع المسؤوليّة؟

أليست النساء هي المسؤولة دائماً عن التسبّب بالدمار؟

لن يسامح. ولن ينسى. فقد كانت لديه أحلام. كان يحلم بحياةٍ مثاليّة يحياها مع زوجةٍ وأولاد في بيتٍ نظيف وفي مدينة صغيرة ونظيفة.

كان يحلم بالجلسات أيّام الأحد لتناول القهوة والحلوى مع عائلته في حديقة المنزل بين الزهور، وتحت مظلّةٍ مخطّطة باللونين الأبيض والأزرق.

وسيستقبل الزوّار ولكن ليس دائماً، بل في بعض الأوقات. وبعد أن ينام الأطفال. وقد يتناول الجميع الطعام معاً في الحديقة في فصل الصيف، وحول النار في فصل الشتاء.

الطعام يكون لذيذاً، وديكور الطاولة والإضاءة والموسيقى، كلّها جميلة. سيشربون النبيذ بكؤوسٍ غالية الثمن، ويتناولون أنواعاً من الأجبان والفاكهة في نهاية الوجبة.

ذكريات الماضي كلّها ستنمحي. لن يكون هناك كوابيس ليليّة، ولا ذكريات مخيفة. سينتهي الندم؛ وتسير الأمور بشكلٍ طبيعي.

سيكون متعلّماً وله مهنة محترمة يفخر بها. لن يخاف من تبادل الأحاديث مع الغير؛ لن يتلعثم لسانه.

«دورك يا نات!»

انتفض ناثانيال، وأفاق من أفكاره الحالمة على صوت مالي. لقد تسلّم هذا الأخير معاشه الأسبوعي، ولم يزل يمسك بباب المكتب

مفتوحاً أمام رفيقه. أحسّ ناثانيال بخطر الاسترخاء والاستسلام لأحلام اليقظة كما فعل للتوّ.

بعد ظهر أيّام الخميس يقبض قاطفو الفراولة رواتبهم.

«أهلاً ناثانيال!» بادرته زوجة صاحب المزرعة وهي تبتسم. كان يشعر بالانزعاج عندما تناديه باسمه كما تفعل مع غيره. اسمها 'فيفيان' ولكنّه يتحاشى لفظ اسمها.

عندما لم يبادلها الابتسام كما كانت تتوقّع، أعطته المغلّف الخاصّ به ودفعت دفتر الإيصالات نحوه لكي يوقّع عليه، وقالت: «من الأفضل أن تعدّ المبلغ».

إنّه لا يثق بأيّ مخلوق على الأرض سوى بنفسه، ولذلك فلا ضرورة لتذكيره بوجوب عدّ المبلغ.

«إنّك تقبض أكثر من الجميع». قالت.

كلّ كلمة تقولها توحي بأنّها تريد التحرّش به. وجوده معها يشعره بالحرج والتوتّر، ولذلك وقّع الإيصال، واصطنع ابتسامةً خفيفة وأسرع في الانصراف.

«ستخرج معي لنشرب هذا المساء، أليس كذلك؟» سأله مالي الذي لا يزال منتظراً في الخارج.

هزّ ناثانيال برأسه إيجاباً. عليه أن يجاري زملاءه العمّال من وقتٍ إلى آخر، وإلاّ فلن يسلم من ثرثراتهم. ربّت على كتف مالي بتحبّب، ثمّ تركه ليذهب إلى غرفته حيث سيستحمّ ويأخذ قسطاً من الراحة قبل الخروج في المساء.

كان مالي مثل جريدةٍ متنقّلة. وسماع الأخبار التي تدور على

twitter @baghdad_library

الألسن والتي ازدادت كثيراً منذ الجريمتين الأخيرتين فكرة لا بأس بها بالنسبة إلى ناثانيال.

* * *

ازدحم المطبخ في شقّتنا برفاق ميرلي من اللجنة التأسيسيّة في جمعيّة أصدقاء الحيوان؛ إنّهم يتحلّقون حول الطاولة مع ميرلي ويتناقشون بحماسة حول مواضيع شتّى.

توقّفت عن الاشتراك في مناقشاتهم منذ زمنٍ طويل؛ فعلى الرغم من توافقي معهم على الهدف الأساسي من نشاطهم، أخالفهم الرأي حول بعض الأساليب التي يعتمدونها في مداهمة المختبرات والأماكن التي يشكّون بها.

تعوّدنا، ميرلي وكارو وأنا، استقبال بعض الحيوانات التي كانوا يحرّرونها في شقّتنا. فكم من مرّة استقبلنا كلاباً، وقططاً، وأرانب تعاني من الرّعب وقلّة التغذية. وفي كلّ مرّة، ولدى مشاهدة تلك الحيوانات المسكينة، استيقظت لدى كارو عادة إيذاء جسدها وكأنّها رأت في تلك الحيوانات مرآةً تنعكس فيها حياتها إلى حدٍّ معيّن.

أعدّت ميرلي بعض المأكولات الخفيفة ليتناولها المجتمعون مع الشاي. ولكنّ الفوضى كانت تعمّ الاجتماع، فيقاطع واحدهم الآخر وتعلو الأصوات وتحتدم المشاجرات بينهم.

«من الطبيعي أن يتصرّفوا كذلك». تقول ميرلي في معرض الدفاع عنهم. «إنّهم ملتزمون بأهدافهم ولا يتساهلون حيالها».

في مثل هذه الاجتماعات الدوريّة التي كانت تعقد في بيوت أعضاء اللجنة مناوبةً، يقوم المجتمعون برسم الخطط لعمليّاتهم، ثمّ يجري الاتصال بالمؤيّدين الذين يأتون من خلفيّات متفاوتة، ولكنّهم

يتّفقون حول لزوم الرأفة بالحيوان ولا يوفرون جهداً من أجل هذا الهدف.

لم أكن مثل هؤلاء؛ ولكنّي كنت حاضرة لتقديم المساعدة في بعض الأحيان. أمّا كارو فكانت مثلي لا تتردّد في تقديم بعض المساعدة أحياناً، ولكنّها لم تتوانَ عن التعبير عن تحفّظاتها العديدة؛ وأذكر مرّةً، عندما كان اجتماع اللجنة سيعقد في شقّتنا، أنّها علّقت في المطبخ يافطة كبيرة كتبت عليها: «. ومن سيحمي الناس إذاً من خطر الناس؟»

شعرت بالانزعاج الشديد من دخان السجائر والأصوات العالية، فأخذت قطعة من فطيرة التفاح وذهبت إلى غرفتي. عندما جلست إلى مكتبي، شرعت في أكل الفطيرة ورحت أفكّر.

يرفض ضابط المباحث التعاون معنا في البحث عن قاتل ميرلي، وهو يصرّ على أن نبقى بعيدتين عن نطاق عمل البوليس. إذاً علينا القيام بالمهمّة بمفردنا.

وضعت آخر لقمة من الفطيرة في فمي، ومسحت يديّ بسروالي، وتوجّهت إلى غرفة كارو. وقفت أمام الباب بضع ثوانٍ قبل أن استجمعت قواي للدخول.

ثمّ فتحت الباب بتردّد، فشعرت بثقل غياب كارو وبتسارعٍ في دقّات قلبي، ولكنّ الضجة الآتية من المطبخ ساعدتني لكي لا أتراجع.

وجلست إلى مكتب كارو وفتحت حاسوبها. لا بدّ أنّ رجال الشرطة قد اطّلعوا على ما تركت كارو من ملفّات خاصّة داخله، ولكنّهم لم يأخذوا الجهاز، بل نسخوا، على ما أعتقد، كلّ محتوياته أو توصّلوا إلى قراءتها بطريقة أخرى أجهلها.

twitter @baghdad_library

لم أكن خبيرة جدّاً في موضوع الحاسوب، على عكس كارو التي كانت قادرة على حلّ أيّ تعقيدات تكنولوجيّة كنّا نواجهها في هذا المضمار. ولذلك، فبالنسبة إلى الأهميّة التي احتلّها هذا الجهاز في حياة كارو، لا بدّ من أنّه يحتوي على إضاءات سوف نحتاجها لحلّ لغز الجريمة التي أودت بحياتها.

جميع الرسائل التي كتبتها كارو وتلقّتها كانت محفوظة. أبعد ما كنت أريده هو أن أحشر نفسي في خصوصيّاتها، ولكن أين الفائدة من حماية هذه الخصوصيّة بعد موت صاحبتها، وكيف السبيل إلى اكتشاف المجرم سوى بهذه الطريقة؟

أمضيت أكثر من ساعة في البحث قبل أن ينتهي بي الأمر أخيراً، ولحسن الحظّ، إلى اكتشاف المقاطع الشعريّة التي كتبتها كارو.

لم أعلم أنّ كارو كانت تكتب الشعر. بدأت في القراءة وامتلأت عيناي بالدموع فكأنّي سمعت صوتها يقول تلك الكلمات.

المساء
الظلمة دامسة في الخارج
وخدي على زجاج النافذة الأسود يبدو شاحباً.
في البعيد هناك امرأة أخرى.

شعرت بقشعريرةٍ تسري في بدني، فقد فوجئت بجودة شعر كارو على الرّغم من أنّ نقاطها في المواد المدرسية الأدبية لم تكن جيّدة.

الصديقة
تجلس أمامي بهدوء

وفي محاذاتي
لا نحتاج إلى الكلام
فأيدينا المعقودة تكفي.

أسرعت إلى المطبخ فالتفت الجميع إليّ. لم يرتاحوا إلى مقاطعتي لما كانوا يفعلون. توقّفت جوديث عن قراءة بعض الاحصائيّات ورمقتني بنظرة حادّة، ثم تابعت القراءة.

قامت ميرلي للتوّ من كرسيّها وسألتني: «ما المشكلة؟»

تنبّهت في تلك اللحظة إلى أنّ الدموع كانت لا تزال في عينيّ، فطلبت من ميرلي مرافقتي إلى غرفة كارو.

وعلى شاشة الحاسوب تسمّرت نظرات ميرلي.

الألم
ربّما أحتاج إلى أكثر من هذه الحياة الضئيلة
أشعر أحياناً بحاجة إلى نارٍ تحت جلدي
لكي تذكّرني بأنّي ما زلت حيّة.

علا الشحوب وجه ميرلي وقالت غير مصدّقة: «هل هذه. ؟»

قلت: «أشعار كارو».

«لم تأتِ قطّ على ذكرها أمامي». قالت.

«ولا أمامي».

«هل هي عديدة؟»

«لا أعلم. اكتشفتها للتوّ».

twitter @baghdad_library

استعادت ميرلي المقطع الأخير وهي تحفّ بيديها على ذراعيها: «ما زلت حيّة». «والآن. ها هي لم تعد حيّة». وأمسكت نفسها عن البكاء.

«سوف أطبعها». قلت. وعندما تنتهين من اجتماعك سنجلس معاً ونتفحّصها.

* * *

كان مالي قد تعب من سرد الأخبار وتلعثم لسانه لشدّة ما استهلك من الكحول. «هل تتصوّر جرأتها؟ لقد تحدّت القاتل بكلّ صراحة».

نظر ناثانيال إلى كميّة البيرة المتبقية في كوبه. لن يبالغ في الشرب كما يفعل بعضهم وينتهي بهم الأمر إلى الترنّح من السكر في كلّ ليلة؛ وينقلب مزاجهم ويصبح عدائيّاً تارةً، وانطوائيّاً تارةً أخرى. إنّه لا يطيق النظر إلى عينيّ السكارى، فكأنّها تصبح من زجاج وتشابه عيون الكلاب.

غالباً ما بدت عينا جدّه كذلك. ولكنّ ذلك لا يعني أنّك لا يجب أن تخشى جانب السكارى؛ فكم من مرّة تحوّل العجوز فجأةً من سكران متلاشي إلى غاضب وشرس.

«إنّها شجاعة تلك..» تابع مالي، وتخال لسانه سيلتصق بحلقه. «ولكنّها برأيي بلهاء. عليها أن تكون متنبّهة وإلاّ فستمسي الضحيّة التالية».

في كل مرّة يتكلّم أحدهم عن «المجرم الذي يهوى القلادات» أمام ناثانيال، تجده لا يفهم على الفور أنّ المقصود هو نفسه. فالعبارة وبكلّ بساطة كانت غير مطابقة للواقع.

لم يكن يشعر بنفسه مجرماً فهو لا يملك غرائز شيطانيّة لئيمة؛ بل يعلّق الكثير من الآمال على الدنيا وعلى المرأة. هل من العدل أن يدعونه مجرماً لأنّ لديه مثل هذه الطموحات ولا يطيق خيبات الأمل؟

تلقّى مالي معلوماته من الجريدة، وكذلك من إحدى العاملات في حقل الفراولة. كانت تحبّ المشاركة في المآتم على العموم، وكانت حاضرة في مأتم كارو. حتى بعض محطّات التلفزيون المحليّة أوردت الخبر؛ ولعلّ الفتاة جنّا، لو لم تكن ابنة الكاتبة المشهورة، لما حظيت بكلّ هذا الاهتمام.

كانت تلك المرّة الأولى التي يسمع فيها ناثانيال بما حدث في المأتم. فهو لا يقرأ الجريدة إلا نادراً، ولا يتحمّل حضور مراسم دفن ضحاياه. ثمّ أنّه يخاف من المجازفة، والمضيّ في تحدّي الأقدار إلى ذلك الحدّ!

إذاً، اسم الفتاة جنّا. لقد أخبرته كارو الكثير عنها. عندما سمع اسمها من كارو لأوّل مرّة، أحبّ الاسم وسأل كارو عن شكلها.

«إنّها أيضاً جميلة». قالت كارو، «سوف تحبّها عندما تتعرّف إليها».

كان يلفّ ذراعه حول كتفي كارو، فيما كان الاثنان يفتّشان عن مكانٍ جميل في الغابة ليجلسا. بالنسبة إليه، كانت الغابة بسكونها أفضل الأمكنة للنزهة معها.

والغابة كانت ملجأ طفولته أيضاً. إليها كان يركض ليشفي جراح نفسه كلّما ضربه جدّه. وكثيرٌ من تلك الجراح بقي عصيّاً عن الشفاء ولم يلتئم بعد.

«لا يصدّق من يتعرّف إلى جنّا أنّ أمّها ثرية جدّاً، فحتّى إنّها،

twitter @baghdad_library

لشدّة تواضعها، تبدو محرجة أحياناً عندما يأتي أحدهم على ذكر ذلك».

أيقظت كارو فضوله. ولكنّه تعوّد أن يضع حدّاً لمثل هذه الأحاديث.

كان يرفض الولوج إلى داخل حياة كارو قبل التأكّد من مشاعره. الاقتراب بشدّة وبسرعة من الآخرين لطالما أساء إليه في السابق. وكم من آثار تلك الإساءات ما زال ظاهراً عليه.

«وعلاوةً على ذلك، يقولون أنها تشبه الملائكة بجمالها»، قال مالي بعدما طلب كوباً آخر من البيرة. ولاحظ ناثانيال أنّ نظراته سبحت إلى مكانٍ بعيد فعرف أنّ جليسه استسلم إلى أحلام السكر. كلّ الأمسيات مع مالي تنتهي على هذا المنوال، ويضطرّ ناثانيال بعدئذٍ إلى مرافقته حتى يبلغ غرفته، فشدّة السكر تمنعه من إيجاد غرفته بمفرده.

ولكنّ ناثانيال كان يريد أوّلاً أن ينهي ما تبقّى في كوبه من البيرة.

اسمها جنّا. وبجمال الملائكة كما قال مالي.

من هي تلك الفتاة التي تتجرأ الوقوف بوجهي؟

وإلى جانبه، كان مالي قد بدأ الغناء بصوتٍ عالٍ. ومن جانب الباب، كان صاحب المقهى يصوّب إلى الاثنين نظرات قاتمة.

«تعال لأصطحبك إلى البيت». قال ناثانيال.

«البيت، وما أحلى البيت..» ردّد مالي بجزل.

دفع ناثانيال الفاتورة وخرج الاثنان من المقهى. في الخارج، توقّف مالي عن الغناء وراح ينتحب شاكياً أمر زواجه الفاشل وحياته الصعبة وأولاده الذين كبروا في غيابه، ومن دون حتّى أن يتعرّفوا إليه،

وشتم ناثانيال لعدم السماح له بشرب كوب إضافيّ ينسيه مأساته.

ولكنّ أمراً أكثر أهميّة شغل ناثانيال في تلك اللّحظات. فاسم جنّا كان قد ثبت في دماغه. واللعبة قد بدأت.

الفتاة تتحدّاه.

«حسناً»، قال متمتماً بعد أن ترك مالي، وتوجّه في الطريق إلى مسكنه. «هل هذا ما تريدينه يا فتاتي؟»

وعلا صدى خطواته في سكون تلك الليلة المظلمة. وشعر فجأةً بالفرح. هذا ما كان يريده بالضبط! هدفٌ يسعى وراءه ويعيد حياته إلى السكّة من جديد.

* * *

كانت الاجتماعات الصباحية في المكتب أشبه بجلسات تعذيب بالنسبة إلى بيرت وخصوصاً بعدما توقّف عن التدخين. فنادراً ما كان ينام في الليل أكثر من أربع أو خمس ساعات، الأمر الذي جعله يشعر بالإرهاق بشكلٍ دائم.

يشتاق إلى الزمن الذي كان ينام فيه كيف ومتى وبقدر ما يشاء. أمّا الآن فهو يتقلّب في سريره مدّة ساعة تقريباً قبل الاستغراق في النوم. ويستيقظ من نومه عدّة مرّات ليذهب إلى الحمّام. وعندما يعود إلى السرير تبقى عيناه مفتّحة لوقتٍ طويل، فيراقب مارغو وهي تغطّ في نومٍ عميق فيصغي إلى صوت تنفّسها وحتى إلى شخيرها الهادئ. ثمّ تقترب ساعة الفجر فيغرق حينئذٍ في نومٍ هانئ، ولكن جرس المنبّه المزعج ما يلبث حتّى يرنّ ويوقظه من غير رحمة.

ويذهب إلى مكتبه ليقضي ساعات الصباح في كسلٍ شديد. ولكن، ومنذ وقوع الجريمة الثانية، تعاظمت الضغوط على مركز

twitter @baghdad_library

المباحث من قبل الصحافة والناس، فلا مجال للتباطؤ وكلّ يومٍ يمر قبل إلقاء القبض على المجرم، يحمل تهديداً مرعباً بوقوع جريمةٍ أخرى.

في الاجتماع الصباحي المبكر في كلّ يوم، يضع أعضاء الفريق نتائج بحثهم على الطاولة، ولكنّه لم يكن قد حدث اكتشاف أيّ أمر مفيد حتى تلك الساعة؛ وما زال رجال الشرطة ماضين في طرق أبواب المنازل لطرح الأسئلة. أمّا مئات الاتصالات التي يستقبلها الخطّ الساخن في المركز كلّ يوم، فلم تحمل حتى ذلك اليوم سوى نتف من المعلومات التافهة التي كان يترتّب على المباحث تحليلها بجديّة مهنيّة في جميع الأحوال.

استعاد بيرت في ذهنه عبارة 'جديّة مهنيّة' وفكّر أنّ هذه المعاني باتت تقريباً غير مفهومة في هذا العصر. 'واجب، إخلاص، أصول' كلمات تشير إلى قيم باتت قديمة بالنسبة إلى بعض الناس، وربّما سيحتاج الجيل القادم إلى البحث عن معانيها في قواميس اللغة. ولكنّه ما لبث أن تساءل بحذر 'هل بات يشبه والده؟ الذي كان في حالة استياء دائم من العصر الجديد وشياطينه. . !'

* * *

كان العشاء قد أصبح جاهزاً. تلك كانت فكرة تايلو، فقد اقترح على إيمكي دعوة جنّا وميرلي إلى العشاء إذ إنّ الجلوس إلى المائدة يساعد في خلق جوٍّ ملائم للمصارحة والتحدّث.

لا تأمن إيمكي جانب أخصّائيّي علم النفس وغالباً ما تسأل ذاتها كيف وقعت في حبّ تايلو الذي يشتغل في اختراق خبايا الناس وغزو نفوسهم؟!

تمّ الاتفاق على الساعة الثامنة موعداً. أمّا الوجبة فستبدأ بطبق الحساء بالقريدس والبندورة مع شرحات الخبز المحمّصة والمدهونة بمزيج من الزبدة والثوم. ثمّ يلي ذلك سلطة مصنوعة بالفاكهة الطازجة وسمك السلمون. وفي الختام، سيتناول الجميع الفراولة مع الكريما، ثمّ القهوة.

استمتعت إيمكي بتحضير الطعام، لأنّه ذكّرها بالأوقات السعيدة التي سبقت خروج جنّا من البيت، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، لأنّه ساعدها في الهروب من الصعوبة التي كانت تواجهها عند نقطة معيّنة في القصّة، وتعذّر عليها متابعة الكتابة.

تتمنى إيمكي في بعض الأحيان لو كانت تملك القدرة على صياغة الواقع كما تفعل في قصصها. لو كان الأمر كذلك لكانت تمنع عن جنّا أيّ انزعاجٍ أو قلق.

ولكانت كارو لم تزل على قيد الحياة.

وفيما كانت تداعب أفكارها وتتسلّى في إضافة بعض لمسات الأناقة إلى الطاولة، سمعت أصواتاً في الخارج فذهبت لتفتح الباب.

استقبلت إيمكي الفتاتين بحرارة، وبعد أن دعتهما إلى غرفة الجلوس لاحظت أنّهما شاحبتان وشديدتا الهزال؛ وفكّرت في ما تقاسيانه من مرارة جرّاء وجودهما في الشقّة، وقبالة غرفة كارو التي لا تزال على ما كانت عليه بالضبط، وكأنّ صاحبتها سوف تعود إليها في أيّ وقت. بعد دقائق، وصل تايلو وانتقل الجميع إلى غرفة الطعام.

«وجدت أشعاراً كتبتها كارو». بادرت جنّا إلى القول، بعد أن ملأت صحنها حساءً.

«أشعارٌ جميلة جدّاً»، أضافت ميرلي. «لم أقرأ مثلها في حياتي!»

twitter @baghdad_library

وتحرّك فضول إيمكي المهني في الحال، فسألت: «وهل لديكما أيّ نسخةً منها الآن؟»

«بالطبع». قالت جنّا. «نريد أن نعلم رأيكما بها».

«بالنسبة لي شخصيّاً، لست ناقدة جيّدة للشعر». قالت إيمكي.

«ليس القصد هو معرفة القيمة الأدبية، بل المعاني والدلائل التي تحملها». قالت جنّا، وهي تمدّ يدها إلى حقيبتها وتستخرج منها ملفّاً أزرق لتعطيه إلى أمّها.

«ما هذه الغلطة!؟» قال تايلو. «ها أنّ أمّك سوف تنشغل في القراءة الآن عن أيّ شيءٍ آخر».

كان تايلو محقّاً، فقد ارتدت إيمكي نظاراتها حالاً، وجالت بعينيها على الصفحة الأولى، وسرعان ما بدا التركيز واضحاً على وجهها.

ومال تايلو بالكأس التي في يده، فتأرجح النبيذ في داخله كأنّه من عقيقٍ سائلٍ أحمر، وسأل الفتاتين: «وكيف تقضيان أوقاتكما في هذه الأيّام؟»

«لم يبقَ من السنة المدرسيّة سوى أسبوع واحد، وبعد ذلك ننصرف إلى العمل». أجابت ميرلي.

«العمل؟» قال تايلو، وكأنه لم يفهم قصد ميرلي. وتابع: «وما هو نوع العمل الذي تنويان القيام به؟»

«البحث عن قاتل كارو». أجابت جنّا بنبرة المستغرب؛ وكأنّها فوجئت ببطء استيعابه.

كان تايلو قد صمّم الابتعاد عن لهجة النّصح. ولكن ما فعله للتوّ كان أسوأ وقعاً من إسداء النصائح. فكّر أنّه اقترف خطأً كبيراً يتعارض

مع جميع القواعد. ولكنّه وعلى الرّغم من ذلك، لم يتوقّف عن الكلام.

فضّلت الفتاتان التزام الصمت وتابعتا تناول الطعام بشهيّة تاركتين لتايلو فرصة تصحيح الخطأ من غير إحراجه.

لم تتنبّه إيمكي إلى ما جرى. وقالت، بعد أن أغلقت الملفّ ووضعته على الأرض إلى جانب كرسيّها. «موهبة عظيمة!»

«ولكن، ما هو رأيك حول الأمور الأخرى؟» قالت جنّا.

«أيّ أمور؟» سألت إيمكي.

«حول معاني الصور التي لجأت إليها كارو». أجابت ميرلي. «لقد أمضينا ساعات في البحث عن المقصود في بعض تلك الصور».

«تفسير الصور المجازيّة يبتعد عن الموضوعيّة، فقد يفسّرها كلّ قارئٍ بطريقةٍ مختلفة». قالت إيمكي.

«هل يمكننا أن نفهم من يكون 'الرجل الأسود' الذي تحدّثت عنه؟» قالت جنّا. «ومن هو 'سيّد العذاب' مثلاً؟»

«هل هناك رابطٌ بين مختلف هذه الأشعار؟ وبكلامٍ آخر، هل تتحدّث هذه الأشعار عن قصّة حياة كارو؟» سألت ميرلي.

«وماذا لو كانت كذلك؟» طرح تايلو.

«عندئذٍ،» قالت جنّا، وهي تنظر إلى ميرلي، «نكون قد قطعنا خطوات إلى الأمام».

«أحذّركما من تصديق ظاهر المعاني». قالت إيمكي. «لقد اعتمدت كارو الرموز في كتابة هذه الأشعار، ولو كانت تريد منها حقّاً المعاني الظاهرة، لكانت كتبتها في دفتر يوميّاتها بأسلوبٍ صريح».

twitter @baghdad_library

«ما تقولينه منطقيّ». قالت جنّا بعد أن أزاحت صحنها جانباً.
«ولكنّ الرموز هي عادةً قابلة للحلّ. أليس كذلك؟»

هزّت إيمكي برأسها مفكّرةً، وقالت: «أظنّ أنّ المسألة ليست سهلة في غياب كارو».

«ولكنّها تكلّمت عن أمورٍ كثيرة في هذه الأشعار. عن طفولتها، وعلاقتها بوالديها، وعن عادة إيذائها لنفسها، وعن الشقّة التي نسكنها وعنّا، ميرلي وأنا».

لاحظت إيمكي اندفاع ابنتها وشدّة التزامها، وشعرت بالخوف. وعرفت أن الفتاتين لن تتقاعسا عن متابعة البحث حتّى النهاية فتملّكها الرّعب. واتضحت لها فجأةً الحقيقة الأبدية وهي أنّها مثل كلّ الأمهات ستكون قلقة حول سلامة ابنتها حتى آخر يومٍ في حياتها.

مهلاً! اسمعوا هذه السطور، قالت جنّا بعدما وجدت ورقةً كانت تفتّش عنها بين الأوراق.

أسئلة
وعدتني بحياتك
ولكنّك لا تصارحني بشيءٍ منها
فيما أنت عالمٌ بحياتي.

«أليس الشخص الذي تخاطبه في هذه الكلمات هو على الأرجح صديقها الأخير؟»

«وقد يكون أيضاً صديقاً سابقاً». قال تايلو.

«وقد يكون من نسج خيالها فحسب». قالت إيمكي. «فكّري يا

جنّا في ما أكتبه في قصصي؛ إنّه لا ينطبق بالضرورة على واقعٍ عشته في حياتي».

هزّت جنّا رأسها، وقالت: «ولكن كتبك، في الواقع، تتضمّن كلّ شيء عن حياتك وحياتنا».

«ولماذا نلغي احتمال أنّها كانت تتوجّه إلى صديقٍ كانت تعرفه في الماضي؟» قال تايلو.

«لأنّ كارو أرّخت أشعارها، ولذلك فنحن نعلم أنّها كتبتها بعدما تعرّفت إلى صديقها الأخير الذي لم نرَه أبداً». أجابت ميرلي.

«لقد أخبرتني عنه قليلاً قبل. قبل..» وتردّدت جنّا قبل المتابعة، «قبل أن تُقتل». «كان صديقها الأخير شديد الغموض، حتّى إنّه لم يخبرها عن اسمه».

«منذ متى بدأت علاقتهما؟» سأل تايلو الذي انتابه فضولٌ فوري بحكم طبيعة مهنته لمعرفة المزيد عن هذه العلاقة الغريبة.

«لا نعلم بالضبط. منذ بضعة أسابيع».

«وهل تقبّلت كارو عدم معرفة اسمه؟»

«اعتبرت كارو أنّ الأمر مجرّد لعبة. ولكنّها كانت لعبة غير مفهومة بالنسبة إليها. كانت تبتكر له اسماً جديداً في كلّ مرّة تلتقيه فيها».

«رائع!» قال تايلو.

فرمقته إيمكي بنظرةٍ تنم عن عدم موافقتها.

«كانت كارو تعتقد أنّها ستستحقّ حبّه في اليوم الذي تقع فيه على اسمه الحقيقي».

twitter @baghdad_library

«كأنّ ذلك الشخص كان متأثّراً بقصص الأطفال الخرافيّة». قال تايلو متجاهلاً معارضة إيمكي الصامتة لآرائه.

«خطر ذلك في بال كارو أيضاً وأضحكها. ولكنّها آمنت بأنّه سيكون لقصّتهما نهاية سعيدة، كما في القصص الخرافيّة».

«ولكنّها نسيت على ما يبدو أنّ تلك القصص غالباً ما احتوت على قسطٍ وافرٍ من الظلم أيضاً».

لم يعلّق أحدٌ على كلام تايلو، وبعد لحظات من الصمت، توجّهت إيمكي إلى المطبخ لتحضّر القهوة، وتبعتها جنّا.

«لم أسمع في حياتي شيئاً كهذا». قالت إيمكي ويداها ترتجفان فيما كانت تضع الفناجين على الصينيّة. «. لم أسمع في حياتي بأنّ على الإنسان أن يتعب ليستحقّ الحبّ».

«إنّه نوعٌ معيّن من الحبّ». قالت جنّا.

استقبلت الأم كلام ابنتها على مضض، وأضافت بعدما ضغطت على زرّ تشغيل ماكينة الإكسبرسّو: «فكرة شاذّة وغير مقبولة!»

وبعدما جلس الجميع لتناول القهوة، قالت جنّا: «لا أفهم كيف غرقت كارو حتّى أذنيها في حبّ ذلك الشخص الغامض جدّاً».

«سوف نعلم الجواب عندما نجده». قالت ميرلي.

«ليس مطلوباً منكما القيام بمهمّة الشرطة. ثمّ أنّ الأمر شديد الخطورة». قالت إيمكي فيما نظرت إلى تايلو لكي يؤيّد كلامها.

«ولكن، هل نسيتما أنّ ذلك الشخص نفسه، قد يكون المجرم الذي قتل كارو؟» قال تايلو.

«إن كان كذلك، فسيكون بحثنا عنه أكثر أهميّة». أجابت جنّا بإصرار.

تذكّرت إيمكي طبع ابنتها المتصلّب عندما تضع أمام عينيها هدفاً معيّناً، ففكّرت في طريقةٍ غير مباشرة قد تجدي نفعاً في تحويلها عن ذلك المسار الخطر. فقالت: «أودّ أن أقدّم إليكما هديّة، وهي عبارة عن بطاقتي سفر وعطلة مدفوعة في أيّ مكان تختارانه؛ فما رأيكما بذلك؟»

«شكراً لك يا أمّي. لو أتتنا هذه الفرصة قبل خسارة كارو لما تردّدنا في الاستفادة منها. ولكن لكارو الآن واجبٌ علينا، وليس هذا الوقت مناسباً للسفر».

وأضافت ميرلي: «نعم، كانت الفكرة ستكون رائعة، ولكنّها غير ممكنة الآن في غياب كارو».

«أعلم ذلك، أعلم. . » قالت إيمكي وهي تتنهّد بعد أن انصرفت الفتاتان. «لا شيء ممكن الآن بعد غياب كارو؛ وسيستمرّ هذا الوضع طويلاً».

قبّلها تايلو مداعباً عنقها بلمسات ناعمة، ولكنّها أزاحت يده قائلةً: «ليس الآن يا تايلو. أريد أن أركّز تفكيري على أشعار كارو. فعليّ واجبٌ نحوها أيضاً».

twitter @baghdad_library

(12)

اغتصب المجرم ضحاياه الثلاثة اللّواتي سبقن كارو إلى المصير المظلم، ولكنّه لجأ إلى استعمال الواقي الذكوري في كلّ مرّة ولم يترك أثراً يدلّ عليه. أما كارو فلم تتعرّض للاغتصاب، بل حدث جماع بين المجرم وبينها قبل أن تلقى هذه الأخيرة مصرعها بقليل.

في مسرح الجريمة الأولى، وجد رجال المباحث شعرة واحدة سوداء اللّون، كانت عالقة بإحدى خصل شعر الضحيّة المقصوصة والمرمية حول الجثّة. ولكن لم تكن تلك الشعرة دليلاً حاسماً إذ قد تكون عائدة إلى شخصٍ آخر غير القاتل.

من النادر جدّاً أن يحتفظ مسرح الجريمة التي تحدث في المناطق الريفيّة بأدلّة حيّة تشير إلى المجرم. فقد تنمحي تلك الأدّلة بسهولة تحت وطء أقدام الأشخاص الذين اكتشفوا الجثة؛ أو تحت أقدام رجال الشرطة الذين عادةً ما يأتون إلى مسرح الجريمة قبل وصول فريق المباحث الجنائيّة. وقد تنمحي أيضاً بسبب تدفّق الصحافيّين السريع الذين يهرعون لالتقاط خبرٍ جديد في تلك المناطق الهادئة عادةً.

لم يتمّ بعد الحصول على أيّ دليل واضح يمكن للمباحث بناء فرضيّاتها عليه.

وعلى الرغم من مئات المقابلات التي أجراها، لم يجد بيرت أيّ أثر لصديق كارو الغامض. لم تقع عينا أيّ من الناس عليه؛ وحتّى جنّا وميرلي لم يرياه مع أنّه نام مرّةً أو أكثر في شقتهما. كيف يعقل أن يقضي شخص الليل في مكانٍ معيّن من دون أن يترك أثراً إلا في دفتر اليوميّات وفي حفنةٍ من الأشعار؟

انتقل بيرت من يوميّات كارو إلى أشعارها آملاً أن يجد فيها ضوءاً مفيداً، ولكنّه لم يجد شيئاً.

وبعد أن وزّع نسخات من تلك الأشعار على زملائه لعلّ أحدهم قادرٌ على فكّ رموزها، اكتشف أنّه الوحيد بينهم الذي قرأ كتاباً في حياته!

زملاؤه في شمال البلاد كانوا يتسابقون مع الوقت أيضاً؛ والصحافة لا ترحمهم. والجرائد عموماً تغتبط لوجود أحداث حارّة، كما في هذه الأيّام، فهذا يوفّر عليهم عناء النبش في قصص النازيّة من جديد.

لقد تمّ تشكيل وحدة عمل خاصّة تضمّ أبرز رجال المباحث هنا وهناك؛ ولكن، وبرغم التنسيق بينهم وتبادل المعلومات، لم يتم تحقيق أيّ تقدّم حتّى الآن.

أمّا أخصّائيّة علم النفس التّي عيّنها رئيس الوحدة، فقد وضعت تصوّراً مبدئيّاً لشخصيّة القاتل وقدّمته في إحدى الاجتماعات الصباحيّة. تتوقّعه أن يكون ولداً وحيداً لامرأةٍ متسلّطة، غير متزوّج، وقد تعرّض للكبح وللعنف في طفولته، وفرضت عليه قواعد دينيّة صارمة. يتمتّع بالذكاء، ويعتمد الحذر الشديد ويميل إلى الانعزال اجتماعيّاً، إضافةً إلى أنّه يفتقر إلى التجربة الجنسيّة الناضجة.

twitter @baghdad_library

«لماذا لا تذكرين أنّه منحرف؟» سألها بيرت.

فأجابت: «نحن هنا في صدد التحليل العلمي وليس التقييم الأخلاقي».

«إنّكِ في الواقع تتعمّدين انتقاء الكلمات اللاّئقة. إن لم يكن المجرمون منحرفين، فمن هم المنحرفون إذاً؟» قال بيرت غاضباً.

عدم انسجام بيرت مع الخبيرة النفسيّة كان واضحاً. إنّه يفضّل الاعتماد على حدسه أكثر من اعتماده على التصوّر الذي طرحته. وحدسه يحثّه على التفتيش عن صديق كارو الغامض. لم تتعرّض كارو للاغتصاب قبل القتل، ألا يدلّ ذلك ربّما على أنّ القاتل كان يحبّها؟

بعد انتهاء الاجتماع، عاد بيرت إلى مكتبه ووضع يوميّات كارو وأشعارها على الطاولة مجدّداً، واثقاً من احتوائها على المفتاح الذي سيدلّه على القاتل. ولكن كيف يجده؟

* * *

عندما نظر إلى جنّا عرف أنّها مختلفة عن كارو. إنّها أكثر جديّةً وتميل إلى التحفّظ.

لم يكن من الصعب على ناثانيال معرفة أيّ الفتاتين جنّا وأيّهما ميرلي. فهو لا يميل إلى المدافعين عن حقوق الحيوان كثيراً خصوصاً عندما تصل الأمور إلى حدّ التطرّف. لقد سمع في الراديو مؤخّراً أنّ القانون في ألمانيا يفرض على من يربّي كلباً من نوع **جرمان شبّرد** أن يكرّس له مساحة في البيت تفوق المساحة التي تكرّس للطفل عادةً. وهزّ برأسه مستنكراً: «هل هذا عدلٌ أم جنون. ؟»

كان قد توقف بسيّارته أمام المبنى الذي تسكن فيه الفتاتان. لا بدّ أنهما ستخرجان من الشقّة؛ إنّه المساء، ولديه ملء الوقت للانتظار.

وعندما خرجت الفتاتان أخيراً، نزل من سيّارته وتبعهما. وشعر إذ ذاك بومضة ألمٍ تخترق صدره؛ لقد تذكّر كارو، ولا يشعر بالسيطرة الكليّة على حزنه بعد.

كانت جدّته تقول إنّ الوقت كفيلٌ بمحو الأحزان. ولكنّه كان يعلم، حتّى وهو صبيّ صغير أنّ ذلك الكلام كان من نوع الكذب المنمّق. فهناك بعض الأحزان التي لا يمكن أن تمحى.

سارت جنّا وميرلي بسرعة وهما تتحدّثان. ولكنّهما لم تضحكا. ربّما لأنّ فترة الحداد على كارو بالنسبة إليهما، كما بالنسبة إليه، طويلة ولم تنتهِ بعد.

وقفت الفتاتان أمام قاعة السينما وراحتا تستعرضان أسماء الأفلام المعروضة. وفكّر ناثانيال بأنّ جوّ السينما المظلم سيسمح له بالجلوس قريباً من الفتاتين من غير أن تتنبهّا إلى وجوده.

وأخيراً يبدو أنّهما اختارتا فيلماً كوميديّاً؛ فرحّب في صمته بالفكرة بعد أن خطر في باله أنّ الضحك يسهّل للمراقب التعرّف على شخصيّة الآخر أكثر من الحزن.

وبعد دقائق، كان يجلس وراءهما في الظلمة. كان شديد القرب منهما إلى درجة أنّه لو مدّ ذراعه للمس كتف جنّا.

* * *

جلست تكتب وتدفّقت الكلمات منها بغزارة. هكذا وبهذا الانسياب كتبت كارو أشعارها. ولكنّ شعوراً غير مريح كان يسيطر على إيمكي؛ فهي تشعر وكأنّها حشرة فطريّة تمتصّ الغذاء من غيرها. إنّما، ماذا عساها أن تفعل؟ هل تفرض على نفسها التوقّف القسري عن الكتابة؟

twitter @baghdad_library

لا شكّ أنّ قصّة الحبّ التي تتشابك مع الأحداث في كتابها الجديد قد اكتسبت نبضاً حيويّاً ورقّة وشاعرية صادقة؛ والفضل في ذلك يعود إلى كارو وعواطفها نحو ذلك الرجل الذي لا يزال لغزاً بالنسبة إلى الجميع.

وفي محاولة للتخفيف عن ضميرها، أقنعت إيمكي نفسها أنّها ستخلّد ذكرى كارو بهذه الطريقة؛ ولكنّ الشعور بأنّها تستغلّ قصّة تلك الفتاة المسكينة بأسلوبٍ رخيص لم يفارقها.

كانت الهرّتان إدغار وموِلّي تنامان على سجّادةٍ صغيرة قرب النافذة. فقد تعوّدتا الاسترخاء على طرطقة الأحرف وهسهسة الحاسوب، والمرج الأخضر في الخارج يبدو زاهياً كالعادة، وزخّة المطر في ذلك الصباح كانت قد غسلته، وأضافت إلى خضرته نضرةً ولمعاناً.

فردوس أرضي مترامي الأطراف حول منزلها.

ولكنّ امتلاكها لتلك الثروة لم يتجذر في داخلها بعد. فهي لا تزال تخاف أن يكون كلّ ذلك حلماً سعيداً قد تستفيق منه في أيّ لحظة.

ودقّ جرس الهاتف.

ولكنّها لم تجب، لئلا تقطع السيل الرائع المتدفّق الذي تخاف عليه من الانقطاع فجأةً كما يحدث في بعض الأحيان.

ماذا لو تقوم بنشر أشعار كارو لها وفاءً لذكرها؟

الوقت غير مناسبٍ الآن للتفكير في ذلك. ليس الآن.

وهي لا تريد التفكير بحادث قتل كارو أكثر ممّا فعلت، ولا التفكير بالقاتل أبداً، ولا تجرؤ على تحدّي الأقدار لأنّها تخاف على سلامة جنّا وميرلي من كلّ ذلك.

ستكتب بضع صفحات إضافيّة، وتتّصل بعد ذلك بجنّا وميرلي لتطمئنّ عليهما. ولكن ليس قبل بضع صفحات إضافيّة. لم تتمكّن من الكتابة بهذه السهولة منذ وقتٍ طويل.

* * *

قرار الذهاب إلى السينما كان بمثابة المكافأة.

كنّا قد أمضينا فترة بعد الظهر كلّها في تفتيش غرفة كارو. سبق وفتّشتها الشرطة مرّات عديدة بالطّبع، ولكنّ تفتيشنا الدقيق لها كان ضروريّاً. فبعض الأشياء على تفاهتها قد تبدو من غير دلالة معيّنة بالنسبة إلى الشرطة فيما نستطيع، ميرلي وأنا، تحديد أهميّتها أكثر.

أغلقت ميرلي آخر الأدراج وهي تدمدم «لا أجد رسالة حبّ واحدة في جميع هذه الأدراج. لا تخلو أدراج أيّ فتاة عاديّة من رسائل حبّ، ولو واحدة!»

فأجبت بما تعرفه ميرلي جيّداً: «لأنّ شخصيّة كارو لم تكن عاديّة. هذا كلّ ما في الأمر».

كانت كارو تهوى جمع الأشياء الخاصّة التي قد تكون أزراراً أو حصى أو بطاقات أو ريش طيور، ولكنّي لم أجد شيئاً يوحي بأنّه هديّة أو تذكاراً من الصديق العتيد.

ثمّ وقعت عيني على الأسطوانة التي كانت تستمع إليها كارو في الفترة الأخيرة، فهي لا تزال في داخل الآلة. إنّها للمغني فيل كولنز المفضّل لديها. أما أسماء الأغاني على تلك الأسطوانة: «تعالى معي!»، «أفقدتني عقلي»، «لن أتوقّف عن حبّك»، «لامست قلبي». فكأنّها كانت تخبر عن آخر أيّام كارو بالتحديد.

twitter @baghdad_library

أنت
من أنت؟
كلّ تلك الأسئلة الصامتة
وكلّ تلك الأغاني التي لم نغنّها
تسع حيوات لم نحياها
وفوق شفتيك
هذه الابتسامة الحمراء اللطيفة والمرعبة في آن.

منذ اللحظة التي قرأت فيها هذه الكلمات شعرت بالخوف. وكلّ مرّةٍ تذكّرتها، أحسست بقلبي كأنّه يتقلّص ويصبح بحجم حبّة ذرة صغيرة وجافّة.

حيوات لم نحياها. أرادت كارو أن تتوقّف عن هدر حياتها؛ وأن تحقّق جميع أحلامها. ولكنّها ركضت بسرعة نحو ذلك المنحدر من غير أن تدري.

وكلّ تلك الأغاني التي لم نغنّها. ماذا قصدت كارو بذلك؟ هل قصدت ما فاتها من الفرص الجميلة؟ وما فاته هو أيضاً منها؟

ثمّ تتحدّث عن تلك **الابتسامة الحمراء اللطيفة والمرعبة في آن**.

لم أتمكّن من فهم هذا التناقض. هل قصدت أنّ صديقها كان مخنّثاً؟ وهل لهذا الوصف علاقة بمخاوفها من أن يكون مثليّ الجنس؟

عندما تحدّثنا، كارو وأنا، معاً آخر مرّة؛ دار الحديث حوله. ولكن كان عليّ أن أصغي إليها بانتباه أكثر. كان عليّ أن أتنبّه إلى الإشارات التي تنذر بالخطر. لا شكّ أنّ تلك الإشارات وردت في حديث كارو ولكنّي لم ألحظها.

لاحظت عودة كارو إلى إيذاء جسدها من جديد؛ ولكنّ كارو تعوّدت أن تفعل ذلك حيناً، وتتمكّن من السيطرة على تلك العادة السيئة حيناً آخر.

كنّا، ميرلي وأنا، نحاول كسب ثقة كارو من طريق الإقلال من الأسئلة التي نطرحها عليها؛ وكنّا ننجح في ذلك.

«ولكن، وعلى الرّغم من الثقة التي كانت بيننا، لما لم تتحدّث كارو إلينا عن ذلك الرجل؟» قلت.

«لأنّه كان يمنعها من ذلك». أجابت ميرلي، ولم تزل أسطوانة فيل كولينز في يدها.

«هل يمكن لفتاة أن تحبّ رجلاً تخافه؟» قلت.

«ليس ذلك مستحيلاً». قالت ميرلي.

وتابعنا التفتيش، ووجدنا أخيراً وشاحاً أسود صغيراً مربّع الشكل، وزهرة بيضاء مجففة مع ثلاث وريقات خضراء. وجدت ميرلي الزهرة والوريقات بين صفحات كتاب كارو المفضّل وهو للشاعر طاغور؛ ووجدت الوشاح تحت ثيابها الداخليّة. لم نعلم مدى أهميّة تلك الأشياء، ولكنّنا وضعناها جانباً مع الشعور بأنّنا قمنا بخطوةٍ إلى الأمام.

وبعد ذلك ذهبنا إلى السينما وضحكنا؛ واكتشفنا أنّ من قال لنا بعد موت كارو بأنّ الحياة محكومة بالاستمرار، كان على حقّ. فعلى الرغم من قسوة هذا الواقع، فهو حقيقي.

لا بالطبع، لن يتوقّف العالم عن الدوران. «إنّنا كالنمل الذي لا يتوقّف عن الحركة حتى ولو سحق معظمه تحت الأقدام». هذا ما قلته لميرلي في قاعة السينما، ولكنّها سارعت إلى حشر حفنة من الفُشار

twitter @baghdad_library

في فمي لكي أتوقّف عن الكلام. واكتشفت بأنّها على حقّ. فلا ضمانات أكيدة في هذه الحياة، ولذلك علينا بالضحك والاستمتاع بأكل الفُشار ما دامت الفرصة سانحة لذلك.

* * *

لم يكن قادراً على فهم وشوشاتهنّ، ولكنّه كان قريباً جدّاً منهنّ.

«جنّا بالنسبة لي هي بمثابة هديّة من الله». قالت له كارو ذات مرّة. «لولاها لفارقتُ الحياة، أو فقدت عقلي». كانت تبتسم حينئذٍ، ويتجعّد أنفها، وتسطع ابتسامتها الجميلة داخل قلبه.

لم يكن قصدها من ذلك المبالغة أو إثارة اهتمامه، فقد كانت صادقة في مشاعرها وقادرة على التعبير عنها بأسلوب واضح وطبيعي.

ثمّ إنّ طفولتها المعذَّبة قرّبتها إليه أكثر. كان قد لاحظ منذ زمنٍ آثار الجروح على ذراعيها على الرغم من محاولاتها لتغطيتها.

ولكنّها عادت وسمحت له بملامسة ذراعيها، وتحسّس الندوب التي عليها. وكان ذلك دليلاً قويّاً على حبّها الصادق له. ولكنّه فضّل الانتظار وقتاً أطول. لا لشيء، بل لأنّه لم يكن متأكّداً بعد؛ ولأنّ الندوب التي تحفر أغشية نفسه كانت أكثر من تلك التي على ذراعيها. والآخرون هم الذين ألحقوا به الجراح ولم يُلحقها بنفسه مثلما فعلت كارو.

كما كانت كارو شديدة الإعجاب بميرلي وبالتزامها بقضيّة الدفاع عن حقوق الحيوان.

لقد أخبرته الكثير عن صديقتيها، حتّى أكثر ممّا أراد أن يعرف. وكلّ ما سمعه منها كان يشدّه إليها ويشدّها إليه.

كان قد أمضى ليلتين في شقة الفتيات وكان شديد الحذر في

البداية، ولكنّه عاد واسترخى بفضل الجوّ المريح بقرب كارو وداخل غرفتها. قرأت له كارو مقاطع شعريّة من كتاب الشاعر طاغور، فتأثر بها على الرغم من ضعف قدرته على فهم المعاني الشعرية. لغة ذلك الشاعر السهلة والقريبة من الواقع، خلقت في خياله صوراً عديدة وأعادت إليه ذكريات دفينة.

وفي ساعةٍ متقدّمة من الليل، خرج من الغرفة وتسلّل إلى الحمّام. لم يسمع أيّ صوت على الإطلاق، فتيقّن أن صديقتي كارو نائمتين وتأمّل حوله وألقى نظرةً على المطبخ، ثمّ لاحظ الصور الملصقة على حائط الممرّ، وخاطب في سرّه صديقته كارو قائلاً: «من يعلم؟ قد نلتقي ونصبح أصدقاء في يومٍ من الأيام». لقد حُرِم من الأصدقاء الحقيقيين طيلة حياته.

كم ستسعد كارو لو حدث ذلك بالفعل! ألم تقل له مرّةً: «أريد أن أتباهى بك أمام الناس. هل تسمح لي بذلك؟»

لم يصدّق أنّها كانت فخورة به إلى تلك الدرجة.

كلّ ما عاشه مع كارو كان أكبر من قدرته على الاستيعاب. شخصيّتها وحبّها له وكلّ ما يتعلّق بها كان ساحقاً. لقد جعلته ينسى قواعد الحرص الصارمة التي تعوّد عليها، ودفعته إلى ترك جانب الحذر في بعض الأحيان.

وكان قد اعتقد فعلاً أنّه وجد حبّه الحقيقي.

لم يرَ أحدٌ في عتمة السينما دموعه المنهمرة، ولا عَبَراته المخنوقة. انتحب بصمت حزناً على نفسه، وعلى كارو، وعلى ذلك الحبّ الذي بقي ظمئاً.

* * *

twitter @baghdad_library

عبّرت مارغو عن غضبها منه بطريقتها الخاصّة.

تماماً كالليلة الفائتة، كان ولداه قد ذهبا إلى النوم قبل عودته إلى البيت. لم تتكلّم إليه، وحتّى إنّها لم تحضّر له شيئاً للعشاء.

وفي المطبخ جلس بيرت يشرب كوباً من البيرة من دون لذّة. كان يشعر ببعض الغثيان والإحباط إذ لم يكن قد تناول طعاماً يُذكر خلال النهار.

عندما وصلته من غرفة الجلوس بعض الأصوات المنبعثة من التلفاز، واكتشف أنّ مارغو كانت تشاهد فيلماً بوليسيّاً. ابتسم بحزن وراح يفكّر: «في الأفلام، يَحْبُك كاتب السيناريو القصّة ويخترع العقد ثمّ يفكّها بالطريقة التي يريد؛ ولكن الواقع ليس كذلك مع الأسف. ففي الحياة الواقعيّة تلجأ إلى كل ما أوتيت من مواهب وقوّة حدس؛ وتتعاون مع فريق عالي المستوى ولكنّه لا بدّ من قسط ولو ضئيل من الحظّ لكي تتمكّن من إيصال الأمور إلى خواتيمها وفكّ المعضلات الغامضة».

لقد أمضى نهاره بالتفكير في مختلف الدلائل الممكنة، وعاد وتفحّص يوميّات كارو وأشعارها، كما استعرض بدقّة فائقة اللّوح الذي ثبّت عليه كلّ ما يمت إلى القضيّة بصلة، ولكن من دون جدوى.

«آه لو تعلمين يا مارغو الواقع على حقيقته! ولو تعلمين كم أبذل من الجهد والصبر يوميّاً في عملي، وكم أنّ الواقع مختلفٌ عن الأفلام التي تشاهدينها!» قال في نفسه متنهّداً.

وعندما فرغ كوبه، قام من مقعده وجرّ نفسه إلى الطابق العلوي وهو يشعر بالألم في كلّ أجزاء جسمه كأنّه رجلٌ عجوز؛ ثمّ دخل إلى

غرفة ابنه بهدوء وأعادَ غطاء سريره الذي كان منزلقاً إلى الأرض، ثمّ وقف يتأمّل الوجه الطفولي البريء ويفكّر: «لولاكما أنت وأختك لتركت هذا البيت إلى الأبد. أشعر بالإحباط ولا أحد يفهمني».

في غرفتها، كانت الطفلة تغطّ في نومٍ هانئ وعميق. اقترب منها بيرت وداعب خصلات شعرها قليلاً ثمّ جلس عند ذيل السرير وأسند ظهره إلى الحائط ورفع ركبتيه إلى مستوى ذقنه وعقد ذراعيه حولهما. ثمّ راح يصغي إلى أنفاس طفلته النائمة ويشكر ربّه أنّها لم تزل على قيد الحياة. لم يُلحق بها أحدٌ أيّ أذى بعد. إنّها لا تزال في الثامنة وفي منأى عن أذى العالم.

واستعاد عبارة 'لا تزال' في فكره، وشعر بعينيه تحترقان كالجمر. عيناه متعبتان حقّاً ويجب أن يزور طبيب العيون؛ ولكن متى؟ فهو في سباقٍ مستمرّ مع الوقت.

هل عبارة 'لا تزال' تعني أنّه يعلم في قرارة نفسه صعوبة حماية حتى أولاده من أذى هذا العالم؟

وكأنّ طفلته النائمة اختارت الإجابة عن أفكاره فأصدرت أنيناً خفيفاً.

«لا تخافي يا حبيبتي» همس بيرت. «كلّ شيء سيكون على ما يرام».

وفكّر متسائلاً: هل بات دور الأهل في هذه الأيّام يقتصر على إصدار مثل هذه العبارات المطمئنة فيما أنّ الحقيقة المفزعة هي أنّهم عاجزون عن حماية أولادهم حقّاً؟

في كلّ مرّة يجد نفسه أمام جثّة طفلٍ أو طفلة أو شابٍّ أو شابّة،

twitter @baghdad_library

يخترقه ألم الفاجعة كسهم من نار، فيهرع حالاً إلى الهاتف ليطمئنّ على سلامة أولاده.

ماذا يفعل لو ألحق أحد الأشرار الأذى بطفلته كما فعل المجرم الغامض الذي قتل الفتيات الأربع؟

«سأقتله». فكّر بيرت ببرود جليدي. سأتبعه إلى آخر الدنيا، وأقتله بنفسي.

بيد أنّه تراجع عن الاسترسال وراء تلك الأفكار الداكنة، متمسّكاً بسعادة تلك اللحظات التي يقضيها بقرب طفلته، لعلّه يعوّض لها ولو قليلاً، عن انشغاله عنها في الفترة الأخيرة.

ربّما سينزل بعد نصف ساعة إلى غرفة الجلوس ويحاول التكلّم إلى مارغو. لا تنتهي العلاقة الزوجية طالما هناك مجال للكلام، وطالما هناك مشاعر؛ فالأمل في المصالحة يبقى حاضراً وسط المشاجرات.

ولكنّه لم يتنبّه إلى نفسه عندما غلبه النعاس، وكان سيقضي الليل نائماً تحت أقدام طفلته لو لم توقظه مارغو. وبخطّى متعثرة وسريعة وصل إلى غرفته ونزع ثيابه؛ ثمّ ارتمى فوق سريره وغطّ في نومٍ عميق، ولكنّه أحسّ بيدي مارغو ترتّب الغطاء فوقه.

* * *

لم يتمكّن من النوم. كان الجوّ خانقاً في غرفته والهواء ثقيلاً لا يتحرّك كأنّه الجمود الذي يسبق العاصفة.

ولم يستوعب شيئاً البتّة من ذلك الفيلم. أوّلاً، لأنّه لا يحبّ الكوميديا. وثانياً، لأنّه لا يتقن فنّ التجسّس. فهو أبعد ما يكون عن الصّفات التي يتسّم بها عادةً رجال المباحث.

وتمنى لو يتكلّم إلى الفتاتين ويعرّفهما بنفسه، ويصارحهما عن مدى شوقه إليها، وعن خيبة الأمل التي سبّبتها له، وعن اكتشافه في النهاية أنّ حبّها له لم يكن حقيقيّاً.

لقد دخلت كارو كيانه ولم يعد بإمكانه التخلّص منها. إنّها تعيش معه في كلّ لحظة، فكأنّها اخترقت جلده مثل أشواك قنفذ البحر التي اخترقت قدميه ذات مرّة حين ذهب إلى قضاء عطلة على الشاطئ ولم يتمكّن من التخلّص منها إلا بمساعدة الطبيب.

وفي قاعة السينما، هاجمته الذكريات مع كارو كأنّها سرب من البعوض فرشح جلده عرقاً سقيماً.

«ربّما. . » فكّر، محاولاً التمسّك بحبال الأمل، «ربّما أنّ ذلك المقدار الكبير من الألم والحزن يشير إلى وصول الأزمة التي يعيشها إلى ذروتها، وبعد ذلك سيتحرّر. سيتحرّر من كارو، ومن حبّها، ومن مشاعر الندم».

سيتحرّر من المشاعر كليّاً.

ولكن، لو يستطيع إعادة كارو إلى الحياة بفعل الصلاة التي قد تأتي بالعجائب؛ فهل يصلّي؟

«نعم. نعم. نعم!» قال لذاته وكاد يصرخ. ولكنّه سرعان ما أغلق فمه بكفّه مستعيداً انتباهه لوجوب السيطرة على نفسه.

وحاول الانشغال بالتركيز على الفتاتين ونجح بذلك عندما تذكّر الهدف الذي جعله يتبعهما إلى قاعة السينما. وإذا بالحزن يتبدّد ليحلّ مكانه الفضول. الفضول بشأن هذه الفتاة جنّا التي تجرّأت وأعلنت الحرب عليه.

وفكّر أنّ التجربة العسيرة التي مرّ بها منذ لحظات، قد تكون

twitter @baghdad_library

معموديّة النار التي كان عليه أن يعيشها لكي يستيقظ مجدّداً وينظر إلى المستقبل.

إنّه بحاجة لجميع قواه الآن ليَلْزَم الحذر. لن يقع في خطأ الاعتقاد بأنّ رجال الشرطة هم مجموعة من البسطاء خصوصاً أنّه يعلم بأنّ الاستخفاف بقوّة العدو تزيد هذا الأخير قوّةً.

كما إنّه يجب أن يحذر جانب ميرلي وجنّا أيضاً فحزنهما على صديقتهما عظيم، ومن شأنه توسيع خيالهما في ابتكار الوسائل لمعرفة القاتل.

واستقام في جلسته رافعاً رأسه، وتصوّر نفسه كالنمر المبتسم في الظلام وعلى أهبة الانقضاض على فريسته. شبحٌ متشّح بالسواد يتحرك بصمتٍ ورشاقة. وهو خطير!

هل تعلم هذة الفتاة جنّا ما معنى ذلك؟

(13)

كانت الساعة تقارب الثانية بعد منتصف اللّيل عندما أطفأت إيمكي حاسوبها؛ وعوضاً عن الشعور بالرّضى، اجتاحها شبح الفراغ واستولى عليها التعب فكادت تبكي.

ذهبت إلى الحمّام ثمّ هبطت إلى الطابق السفلي وقصدت المطبخ. لم تأكل شيئاً منذ ساعات وهي تشعر بالجوع. وكانت الهرّتان خارج باب المطبخ تموءان فهما جائعتان أيضاً. أطعمت إيمكي الهرّتين بعد أن نسيتهما في الخارج طيلة ساعات. هذا ما يحدث عندما تسترسل في الكتابة لوقتٍ طويل، فإنّها تنشغل كليّاً عن الأمور الأخرى.

ثمّ لاحظت البقع الكثيرة الظاهرة فوق أرض المطبخ وفكّرت بحاجتها الماسّة لمساعدة السيّدة برغرهوسن التي توقّفت عن القدوم منذ أن انتهت السنة المدرسيّة هذا الأسبوع، وانتقل أحفادها إلى منزلها لقضاء العطلة المدرسية معها.

صنعت إيمكي شطيرة بالجبن لنفسها وفنجاناً من الشاي وتمنّت لو كان باستطاعتها الجلوس في الخارج لتناول وجبتها والاستمتاع بالنسائم المنعشة في هدوء الليل، ولكنّها ومنذ حدوث جريمتَي القتل، وخصوصاً جريمة قتل كارو، أصبحت الهواجس تساورها بشأن موقع منزلها المنعزل.

twitter @baghdad_library

«ومن أين يستقي خيالي كلّ تلك القصص المرعبة إذاً، إن لم يكن من هواجسي الداخليّة حقّاً؟» قالت موجّهةً الكلام إلى الهرّتين أمامها.

فتطلّعت إليها القطّتان وهزّت أذنيها باقتضاب، وعادت إلى التهام طعامهما بنهم.

وضعت إيمكي طعامها على صينيّة وتوجّهت إلى غرفة الجلوس وشغّلت التلفاز لعلّها تتسلّى بمشاهدة أحد البرامج. وإذا بإحدى المحطّات تعرض فيلماً عن أمّ وابنتها. في تلك اللّحظة تذكّرت أنّها لم تتّصل بابنتها منذ ظهر الأمس. ها أنّها قد نسيت ابنتها أيضاً بسبب استغراقها في الكتابة. وهل من المقبول أن لا تطمئن على سلامة جنّا وما زال المجرم الخطير الذي قتل كارو، صديقة ابنتها بالذات، يتنقّل حيث يحلو له في أرجاء المنطقة؟

وهروباً من رهبة السكون المخيّم على كلّ الأشياء والمخلوقات في الخارج، استعرضت بسرعة برامج بقيّة المحطّات في تلك الساعة المتأخرة من اللّيل، وشعرت بالقرف من الابتذال الذي تقع فيه بعض النساء عندما تعرِضْن أجسادهن في خدمة الابتزاز الذكوري والمادّي.

شعرت بأنّها ضعيفة وأقرب إلى الموت منها إلى الحياة؛ فقد باتت تخشى وحشة الليل خصوصاً، بين الساعة الثانية والخامسة قبل بزوغ الفجر، بعد أن قرأت مرّةً أنّ معظم الوفيّات في العالم تحدث في مثل هذا الوقت.

وفكّرت بعد قليل أنّها ستتصل بجنّا في الصباح وبعد طعام الفطور مباشرةً لكي تعرض على الفتاتين فكرة السفر مجدداً لعلّهما تقتنعان.

وطرأت على بالها فكرة الاتصال بضابط المباحث بيرت ملزيغ، فقد يتمكّن من إقناع الفتاتين بالخطر الذي يحدّق بهما وخصوصاً بعدما تسرّعت جنّا باطلاق ذلك التحدّي السافر ضدّ المجرم. ربّما يظنّ هذا الأخير أنّهما تمتلكان معلومات عنه، فقد يسعى لحماية نفسه بأيّ وسيلة. وبناءً على فرضيّة تايلو أن قاتل كارو هو صديقها الأخير؛ قد تكون لدى هذا الأخير نسخةً عن مفتاح الشقّة. هنا، عضّت إيمكي على يدها لتمنع نفسها من الصراخ. ثمّ قرّرت أن تطلب من جنّا تغيير قفل الباب الخارجي للشقّة؛ ولكنّها سرعان ما وجدت فكرة أفضل: «سوف تتصل غداً صباحاً هي بنفسها بالنجار وتكلّفه بتنفيذ المهمّة. وهكذا يتمّ الأمر بسرعة أكبر، وتقطع على الفتاتين حبل المماطلة من أوّله».

عادت القطّتان للمواء ولكنّهما، هذه المرّة، تريدان الخروج. فتحت إيمكي لهما الباب ثمّ أغلقته بسرعة. على الأقلّ، ليس هناك ما يستدعي القلق بشأن القطّتين في الخارج.

كم أصبح العالم موحشاً ومخيفاً في هذه الأيّام! فكّرت إيمكي، ثمّ أطفأت التلفاز وصعدت إلى غرفتها، ولكنّها تعلم أنّ شدّة توتّرها ستمنعها من النوم. فاستلقت على السرير وغاصت في تفكيرٍ عميق.

* * *

كنت أتسلّق الدرج عائدةً إلى الشقة، عندما قابلت السيدة ميرتنز في الطابق الثاني وطفلتها كارولين على ذراعها. قابلتني السيدة ميرتنز بابتسامة خجولة وتابعت طريقها هبوطاً فيما نادتني طفلتها بمناغاة لطيفة كأنّها زقزقة العصافير.

على وجه العموم، اتّسمت ردّة فعل سكّان البناية على مقتل كارو

twitter @baghdad_library

بالغرابة إلى حدٍّ كبير. لقد تكلّم إلينا الجميع حول الأمر أوّلاً، وعبّروا عن أسفهم بأسلوب لا يخلو من الحيرة وعلامات الاستفهام، ولكنّهم بعد ذلك، راحوا يتحاشون التحدّث إلينا. لعلّهم ذهبوا إلى المأتم، ولكنّنا، ميرلي وأنا، لم ننتبه إلى وجود أيٍّ منهم في ذلك الوقت.

فكّرت بعبارة 'في ذلك الوقت!' ما بالي أشعر وكأنّه مضى وقتٌ طويل على الجريمة. لقد أضعت دقّة الإحساس بالوقت.

وصلت إلى الشقّة وفتحتُ الباب وبيدي كيس الخبز. كانت ميرلي قد استيقظت وأعدّت طاولة الفطور والقهوة.

لقد بدأت العطلة الصيفيّة، وتعاهدت مع ميرلي على الاستفادة من الوقت بصورة صحيحة. ففي كلّ صباح سنتناول فطورنا ونرتدي ثيابنا وننطلق في تنفيذ خطّتنا الهادفة إلى إيجاد قاتل كارو.

وفيما جلسنا لتناول الفطور رنّ جرس الباب، فإذا بدوريت وبوب، من أصدقاء ميرلي، يحملان إلينا قطّتين هزيلتين تمّ إنقاذهما من أحد المختبرات. أخذنا القطّتين منهما ووجدنا لهما مكاناً آمناً تحت المغسلة في الحمام، ريثما يشعران بالأمان ويتمكّنان لاحقاً من التنقّل في أرجاء الشقّة بحريّة. أحضرت صندوق الرّمل الخاص بالقطط، ووعاءً من الطعام وآخر من الماء؛ ثمّ تركنا القطّتين، وكنّا على وشك مغادرة الشقّة، عندما رنّ جرس الهاتف.

كانت أمّي على الطرف الآخر من الخطّ، فقد اتّصلت لتُخبرني أنّها أوكلت إلى أحد النجّارين مهمّة تغيير قفل الشقّة. حديثها أثار حفيظتي. ها قد عادت أمّي لتتدخّل في شؤوني الخاصّة؛ وحتى من غير استئذان.

«أمي! لقد اتفقنا سابقاً على أن لا تتدخّلي في شؤوني. أليس

كذلك؟ ألم نقل بوضوح أنّ حياتك هي شأنك، وحياتي هي شأني أنا وحدي؟» سمعت أنفاسها تتسارع. فقلت في نفسي: «لعلّها تواجه صعوبةً في الكتابة في هذه الأيّام ولذلك تشعر بالتوتّر».

«أرجوكِ يا جنّا، يجب أن تأخذا جانب الحذر الشديد. لم تعد جرائم القتل مجرّد حوادث نسمع بها في نشرة الأخبار».

بعد انتهاء مكالمتي مع أمّي بأقلّ من نصف ساعة، رنّ جرس الهاتف وها أنّ أبي يتّصل بي ليدعوني لقضاء عطلة في الخارج بصحبته وصحبة زوجته وأخي الصغير.

لقد تحسّنت علاقتي بأبي منذ مدّة؛ ولكنّه لا يتّصل بي هاتفيّاً سوى في أحيان قليلة وذلك يكفي بالنسبة لي. أمّا دعوته الآن لي لقضاء عطلةٍ معه ومع زوجته أنجي، فأمرٌ مستغربٌ ولا بدّ أن يكون من ابتكار أمّي. وقد أصرّ أيضاً على توجيه الدعوة إلى صديقتي التي اعتذر عن عدم معرفة اسمها.

لم أتوقّع منه معرفة اسم ميرلي، لأنّه لم يرها في حياته، ولكنّي لم أتردّد عن طرح السؤال الذي لم أنتظر عليه جواباً: «أليست أمّي مصدر الفكرة؟»

أجابني بسخطٍ مبطّن نافياً الأمر كليّاً. ولكنّ نفيه القاطع جعلني أتأكّد من صحّة حدسي.

«شكراً لك يا أبي على هذه الدعوة. ولكن تأكّد أنّي قادرة على حماية نفسي، وسأكون بخير».

«جنّا يا أميرتي!» قال ذلك بصوتٍ هادئ، ولم يناديني بهذا اللقب منذ وقتٍ طويل. «أرجوك يا أميرتي أن تهتمّي بسلامتك، فأنا بحاجةٍ إليك».

twitter @baghdad_library

«لا تقلق، سأهتمّ بسلامتي». قلت، قبل أن أودّعه وأنهي المكالمة.

عطلةٌ بصحبة آنجي هو آخر شيءٍ أتصوّره. لا يمكن لأمّي أن تقترح مثل هذه الفكرة إلاّ إذا كانت على شفير اليأس.

وفي الحال، ذهبت إلى غرفة كارو واستخرجت صورة حديثة لها من ألبوم الصور. ثم ناديت ميرلي واستعجلتها للخروج. طوت ميرلي خريطة برول وضواحيها ووضعتها في حقيبتها. خرجنا من الشقّة وعندما وصلنا إلى سيّارتي، سألت ميرلي: «إلى أين يجب التوجّه أوّلاً، بحسب رأيك؟»

«إلى مقهى كانديل». أجابت ميرلي. «أمضت كارو كثيراً من أوقاتها في ذلك المكان».

كانديل، هو اسم حانة يجتمع فيها عدد كبير من الشباب الضائع لشرب الكحول وتعاطي المخدّرات. كانت كارو أحد هؤلاء، ولكنّها انفصلت عنهم بعد فترة من الزمن، وشقّت لنفسها طريقاً مختلفاً ونظيفاً. إلاّ أنّها لم تنقطع كليّاً عن بعض أصحابها القدامى في ذلك المكان، وثابرت على الاتصال بهم من حينٍ إلى آخر.

كان المكان خالياً في ذلك الوقت الصباحي سوى من اثنين من الزبائن. وكانا يجلسان حول طاولة خلفيّة ويدخّنان معاً سيجارة من الحشيش.

سألت ميرلي النادلة التي تبدو جديدة في ذلك المكان: «هل هناك موظفون آخرون غيرك في هذا الوقت؟»

هزّت النادلة بكتفها وتابعت مضغ العلكة.

عرضتُ عليها الصورة وسألتها إن كانت قد رأت صاحبة الصورة في هذا المكان من قبل.

نظرت إلى الصورة بريبة وعادت خطوتين إلى الوراء، ثمّ أجابت: «كلاّ. وحتى لو كنت أعرفها. ما علاقتكما بها؟»

قلت: «اسمها كارو. وهي صديقتنا، وقد ماتت قتلاً منذ أسبوعين».

ذهب الشكّ عن وجهها. وقالت: «ها! إنّها ضحيّة المجرم الذي يجمع القلادات. أعتذر كثيراً. ولكنّي لا أعرفها. أعمل في هذا المكان منذ أسبوعٍ فحسب».

لم يتعرّف الشابّين الجالسين حول الطاولة على صورة كارو أيضاً. فتحدّثت مع ميرلي لكي نغادر المكان.

بعد اقترابنا من السيارة، اقترحت ميرلي أن نتابع بحثنا سيراً على الأقدام لأنّنا سنواجه صعوبة في ركن السيّارة حيثما نتوجّه في تلك الأحياء القديمة والضيّقة من البلدة.

كانت ميرلي محقّة في ذلك. فمن الأفضل ترك السيارة حيث هي إلى أن ننتهي من استكشاف الحانات والمقاهي الموجودة في قلب البلدة القديم، وعندما يحين الوقت للانتقال إلى الضواحي، سنستقلّ السيارة. كنّا قد قرّرنا زيارة جميع تلك الأماكن، بما فيها النوادي والمطاعم، التي تعوّدت كارو الذهاب إليها.

ربّما سبقنا رجال الشرطة إلى القيام بذلك؛ ولكنّهم قد يهملون الذهاب إلى مكانٍ معيّن وعلى قدر كبير من الأهميّة. على كلّ حال، لا يصارح الناس رجال الشرطة والمحقّقين كما يصارحوننا، ولا

twitter @baghdad_library

يفصحون عن بعض التفاصيل أمامهم كما قد يفعلون أمامنا. كانت خطّتنا صائبة، ولن يتمكن أحد من ثنينا عن تنفيذها.

* * *

أصغى بيرت إلى صرير الحصى تحت دواليب سيّارته وهو يصعد في اتجاه البيت، وأحسّ كأنّه يؤدّي دوراً معيّناً في فيلم سينمائي؛ فالأشخاص الحقيقيّون لا يعيشون في مثل هذه الأماكن البديعة، أو أنّ قوّة المال قادرة على اختراق الحدود بين الواقع والخيال في بعض الأحيان. نظر بيرت إلى المبنى القديم المتجدّد بشيءٍ من الغيرة، إذ يكاد يكون تجسيداً حقيقيّاً للحلم الذي طالما راوده.

كم يبدو المنزل الذي يعيش فيه مع مارغو والأولاد حقيراً بالنسبة إلى هذا! على كلّ حال، الثروة وحدها هي السبيل إلى امتلاك مثل هذه المواقع المهمّة.

بدت إيمكي ثالهايم أمام مدخل البيت لملاقاته في اللّحظة التي ترجّل بها من السيّارة. كانت ترتدي فستاناً أبيض يكشف عن ذراعيها الملوّحتين بلون الشمس. «لطيفٌ منك أنّك وجدت الوقت لتلبية دعوتي!»

ها إنّها كالعادة تنجح في النقر على الوتر الحسّاس. لم يكن لديه الوقت حقّاً لمثل هذه الزيارة؛ ولكن شيئاً ما في داخله كان يدفعه لتلبية دعوتها من غير تردّد. عدا عن أنّ رئيسه أصرّ عليه في ذلك الصباح على ضرورة المجيء قائلاً: «أصرّ على معاملة إيمكي ثالهايم وابنتها بطريقة متميّزة. أنت تعرف ما لديهما من علاقات مهمّة قد تقلب الدنيا على رؤوسنا».

مشى بيرت مع إيمكي نحو باب البيت وهو يفكّر بالسبب الذي

حدا بإيمكي إلى دعوته إلى هنا إذ إنّها لم تذكر شيئاً محدّداً في الهاتف.

ودخل الاثنان إلى البهو الواسع والأنيق حيث كانت الهرّتان تسترخيان تحت نور الشمس الهابط من أعلى النافذة، في حضن مقعدٍ من القش. وإذا بالقطّة الصغيرة تقفز فوراً إلى الأرض وتقترب من قدم بيرت وتبدأ باللعب فوق حذائه.

نظرت إليه إيمكي بتعجّب.

فأجاب محرجاً: «هذا ما تفعله معظم القطط عندما تراني. إنّها تحبّني لسببٍ ما زلت أجهله». وفيما أخفض عينيه ليراقب الهرّة، لاحظ الجدول الرفيع الذي يخترق أرض البهو.

إنّها فكرة المهندس، فقد اقترح أن يحوّل جزءاً من مياه الساقية إلى داخل البيت. قالت إيمكي بثقة. «ولكنّه لم يفكّر في القطّتين اللّتين تهويان صيد الأسماك. فغالباً ما ترانا نعاني هنا من فيضانات صغيرة».

«ولكن ماذا يحدث عندما يعلو مستوى مياه الساقية؟»

«كلّ تلك الأمور قد أُخذت في الحسبان، وهي لا تؤثّر بشيء على هذا الجدول».

ثمّ دعته إلى الجلوس في الفناء الخارجي، حيث أعدّت الطاولة لشخصين. وذهبت إلى المطبخ لتعدّ القهوة.

نظر بيرت حوله وتأمّل في المرج الأخضر المنبسط إلى أبعد حدود فتذكّر جمال الرّيف في شمال ألمانيا، وأصغى إلى ثغاء الخراف وخرير مياه الساقية فأحسّ بدوارٍ لذيذ. آه، كم يتمنى قضاء بقيّة عمره في مكانٍ مثل هذا!

twitter @baghdad_library

وفكّر في المجمّع السكني الذي يعيش فيه مع عائلته. البيوت متلاصقة والأبواب والنوافذ تتوالى بعضها إلى جانب بعض من غير فسحةٍ خضراء. بلى، قد تجد بينها بعض الفسح الصغيرة المزدانة بأحواضٍ ضيّقة من الزهور وبعض نوافير المياه، لكنّها لا تستحقّ أن تدعى حدائق.

عادت إيمكي ڤالهايم حاملةً معها إبريقاً من القهوة وقالباً من حلوى اللّوز السويديّة.

«هل تودّ قطعةً؟» سألته.

«نعم، شكراً».

وحمل صحنه لكي تضع له قطعةً.

«إنها حلوى لذيذة جدّاً ولكنّها عدوّة الرشاقة». قالت إيمكي.

«أشكرك. ولكنّي أتوقّع أنّك دعوتني لسبب آخر غير الجلسة اللطيفة حول فنجان قهوة وقطعة من الحلوى».

«حسناً، كلّا لم أدعوكَ لهذا فحسب، بل أردتُ التحدّث إليك حول أمرٍ ما. ولكنّي لم أتناول فطوري بعد، فوجدتها فكرة جيّدة لكي تتذوّق هذه الحلوى معي. وقبل أن تطرح عليّ السؤال، أجيبك أنّها ليست من تحضيري، بل اشتريتها من السوق».

«لم أفكّر في طرح هذا السؤال عليكِ».

«طبعاً، طبعاً، أفهم ذلك».

شعر بيرت وكأنّه يعرف هذه المرأة منذ زمنٍ بعيد؛ وكأنّ لعبة تبادل العبارات بينهما لعبة قديمة ومألوفة. ومع ذلك، فكلّ ما تقوله وتفعله يبدو جذّاباً ومبتكراً.

«أودّ التحدّث إليك عن موضوع ابنتي». قالت.

هزّ برأسه؛ ولعلّه كان يعلم ذلك.

«إنّي قلقة بشأن جنّا وميرلي. هل يمكنك طمأنتي؟ هل توصّلتم إلى شيء جديد في التحقيق؟ هل تتّهمون أشخاصاً معيّنين؟»

وضع بيرت صحنه على الطاولة، وقال: «إنّك بلا شكّ تعرفين أنّه من غير المعقول أن أفصح لك عن أمورٍ كهذه». كان من حقّه أن يغضب من أسئلتها، 'هل دعته إلى هنا لتطرح عليه هذه الأسئلة؟' ولكنّه لم يفعل. فهو سعيدٌ لدعوتها له في جميع الأحوال.

«كلّ ما تقوله سيبقى بيننا». قالت وهي تنظر إليه بحذاقة.

وفكّر بيرت. «السيّدة التي أمامي هي كاتبة. وقد لا تتمكّن من مقاومة استخدام كلّ ما تسمعه لتُغْني به قصصها. ولكنّها ليست كاتبة فحسب، بل أمّ قلقة على سلامة ابنتها أيضاً».

«تلقينا كمّاً كبيراً من المعلومات من الناس». قال بحذر، «ونحن نحقّق في كلّ الاحتمالات، ولم نصل إلى نتيجة مفيدة بعد».

«قرأت المقاطع الشعريّة التي كتبتها كارو».

شعر بيرت بالمفاجأة قليلاً، ولكنّه لم يسأل إيمكي عن المصدر الذي حصلت منه على تلك الأشعار؛ فمن غير المنطق أن يطرح مثل هذا السؤال.

«كانت فتاة موهوبة جدّاً، ولا أظنّ أنّي بحاجة لأن أقول لك ذلك فقد قرأتَ بلا شكّ هذه الأشعار أيضاً؟»

هزّ بيرت برأسه إيجاباً.

«ولكنّها استخدمت الرموز بمهارة في هذه الأشعار». قالت إيمكي ثالهايم.

وهزّ برأسه مجدّداً.

twitter @baghdad_library

«لا بدّ أنّ هناك إشارات خفيّة إلى هويّة صديقها الأخير في هذه الأشعار».

«إنّك تفترضين كون صديقها الأخير هو القاتل».

«نعم، لأنّها تصف في أشعارها هذا الحبّ بأنّه خطير وغامض».

«أليس هذا وحده هو الحبّ الحقيقي وكلّ ما غايره مجرّد مشاعر سطحيّة؟»

نظرت إليه مفتّشة في تعابير وجهه عن المعنى المقصود، فأحسّ كأنّها فهمت أفكاره، فحوّل عنها نظره مرتبكاً.

ثمّ قال: «هذا لا يعني بالضرورة أنّ تلك العلاقة أودَتْ إلى الجريمة». ولكنّه تنبّه إلى أنّه لا يقول الحقيقة. ألم يقل له فكره الشيء نفسه؟

«أشعر بالرّعب عندما أتصوّر أنّ ذلك الرجل ما زال يحوم حول شقّة جنّا وميرلي من غير أن يلاحظه أحد». قالت ثالهايم. «وسيستمرّ الاحتمال أن يكون هو القاتل طالما بقيت هويّته مجهولة».

«إنّه كالشبح». قال بيرت. «لقد تفحّصت أشعار كارو أيضاً، ولكني لم أجد أيّ دلائل قد تساعدنا على كشف هويّته. لم أجد أيّ شيء البتّة. لا شيء. أمرٌ مغيظٌ حقّاً! لا يمكن لإنسان أن يدخل إلى حياة إنسان آخر من غير أن يترك وراءه أثراً يدلّ عليه».

«وخصوصاً إن كان الاثنان مرتبطين بعلاقة حبّ». قالت إيمكي بعد أن أصلحت جلستها ولفّت إحدى ساقيها فوق الأخرى. «هل تظنّ أنّ جنّا وميرلي في خطر؟»

كان قد لاحظ أنّها تطرح أسئلتها في منتصف الحديث فجأةً، لكي تجرّه إلى الاجابة تلقائيّاً. فتنبّه للأمر، وأجاب:

«ليس مباشرةً».

نظرت إليه بعينين ضيّقتين وقالت: «جوابك يفتح أمامي باب الخيال واسعاً جدّاً. هل تعلم ماذا يعني أن تراقب ابنتك تقترب من الهاوية فيما أنت عاجز عن حمايتها؟»

«دعي الفتاتين تذهبان إلى خارج البلاد خلال العطلة الصيفية».

«هذا بالضبط هو الأمر الذي أودّ مناقشته معك».

«لا أطلب سوى معرفة مكان وجودهما لكي أتمكّن من الاتصال بهما في حال كان لدينا أسئلة جديدة نريد طرحها عليهما».

«ولكنّهما ترفضان فكرة السفر رفضاً قاطعاً؛ ولذلك أودّ أن تكلّمهما بنفسك وتمارس عليهما بعض الضغط».

«الضغط على جنّا وميرلي؟ لا أظنّ أنّك جادّة في ما تقولين».

«أنت على حقّ. الفتاتان هما مثالاً صارخاً للعناد. أودّ لو كان باستطاعتي جرّهما إلى محطّة القطار قسراً ودفعهما إلى داخل إحدى القطارات المسافرة بالقوّة».

«ولماذا لا تفعلين ذلك؟»

«لقد بتّ تعرفهما، فكيف تسألني ذلك؟»

وضحك الاثنان، وتبدّد الارتباك وارتاحت أجواء الجلسة.

«حسناً،» قال بيرت. «لا أعدك بالنتيجة، ولكنّي سأحاول».

وعندما قام للذهاب، رافقته إلى السيارة. وفيما كان يمدّ يده ليصافحها انحنت نحوه، ووقفت على رؤوس أصابعها وطبعت قبلةً سريعة على خدّه.

* * *

وفي الطريق، وضع بيرت أسطوانة المغنّي جون مايلز في جهاز

twitter @baghdad_library

السي دي، وضغط على البنزين وراح يفكّر. إنّه زوج مخلص ومحبّ لأولاده، ولا يميل إلى البحث عن المغامرات خارج حياته الزوجيّة. ومن ناحية كونه رجل شرطة، فمن المحظور عليه التقرّب من أيّ امرأة لها علاقة بالقضية التي يعمل عليها.

وخصوصاً إيمكي ثالهايم فهذا مستحيل، ولا شيء يربطهما معاً. إنّهما مثل النار والماء، أو الجبل والوادي، أو النور والظلّ.

وفي كلّ مرّة يستمع بيرت إلى هذه الأغنية 'الموسيقى هي حبّي الأوّل' يشعر أنّه يكاد يطير من النشوة.

ضحكتها. وانحناءة رأسها عندما تصغي إليك، والطريقة التي تتحرّك فيها. ثمّ لماذا تلك القبلة؟

«قبلة ستبقى يتيمة». قال لنفسه.

وغاص في الكلمات الرومانسية التي كان يستمع إليها، وشعر بقشعريرةٍ تجتاح ظهره. فكان عليه إحكام قبضته على المقود ليمنع نفسه عن تغيير اتجاه السيّارة والعودة من حيث أتى، فقد يقترف بذلك أكبر خطأ في حياته.

* * *

دقّ جرس الهاتف في لحظة دخولها إلى البيت، وكان المتّصل تايلو. فرحت بنبرة صوته الدافئة وأخبرته كلّ ما جرى خلال جلستها مع بيرت ملزيغ باستثناء خبر القبلة، والمشاعر التي أحسّت بها.

أصغى إليها تايلو بهدوء على الرّغم من ضيق وقته.

«قد يتمكّن من إظهار صورة الخطر الذي يحدق بهنّ بطريقةٍ أفضل». قالت إيمكي. «ها إنّي أكاد أستنفد جميع أفكاري. على فكرة، أرسلت لهما نجاراً ليغيّر قفل الباب».

«فكرة جيّدة!» قال تايلو.

«أعلم. على كلّ حال، إنّها فكرتي!»

ابتسم. وأحسّت بابتسامته. وشعرت فجأةً بعاطفة قويّة نحوه.

«شكراً». قالت بصوت ناعم.

«على ماذا؟»

«على مجرّد كونك أنتَ».

جلست لدقائق وسماعة الهاتف في يدها. كانت تشعر بالغضب من نفسها، ومن تصرّفاتها المتسرّعة في بعض الأحيان.

* * *

لم أكن أتصوّر عدد المطاعم والمقاهي والحانات التي كانت كارو ترتادها؛ ولا عدد الناس الذين كانوا يعرفونها ويحبّونها. لقد بكى كثيرون عندما رأوا صورتها.

ولكن لا أحد يعرف شيئاً عن صديقها.

«هل هو الذي. أعني. هل هو. ؟»

أعلم كم من الصعب التلفّظ بتلك الكلمة. حتى التفكير بذلك الأمر كان رهيباً.

كنت أشعر بالتعب الشديد ومعدتي تصرخ جوعاً.

نظرت إلى اللائحة التي في يد ميرلي. مطعم البرج هو التالي، فقلت إلى ميرلي: «شرط أن نأكل شيئاً هناك». فهزّت رأسها بالموافقة.

يبدو أنّ فكرة الطعام أوحت لنا بالنشاط من جديد فأسرعنا خطواتنا وجدّدنا الأمل بالنجاح. لا بدّ أنّ أحداً قد رأى كارو برفقة ذلك الرجل في مكانٍ ما. لا يمكن لأي شخص أن يتحرّك في هذا

twitter @baghdad_library

العالم من غير أن يراه أحد، ومن غير أن يترك أثراً ولو ضئيلاً بين الناس وفي الأمكنة.

* * *

سأل نفسه إن كان يشعر بأي عاطفة نحو تلك الفتاة جنّا، ولم يجد جواباً.

قد يسمّى شعوره نحوها فضولاً نعم إنّه إلى حدٍّ ما نوع من الفضول.

منذ خسارة كارو، شيءٌ في داخله قد انطفأ. إنّه متعب وبلا هدف. ويوماً بعد يوم، يشعر أنّه يعيش خارج ذاته، فكأنّه بات منفصلاً عنها.

فالتحدّي الذي أطلقته جنّا والذي لا يزال محور الأحاديث في المنطقة قد أثاره وأطلق عجلة تفكيره ونشاطه من جديد. ماذا لو استطاع السيطرة عليها وإخضاعها؟

مجرّد فكرة إخضاع الفتاة أحيت في نفسه مشاعر الاعتزاز والقوّة. ففكّر كم تلك المشاعر التي باتت نادرة في هذا العالم السطحي أساسيّة لاستمرار الحياة.

يا لها من لعبة! أن تستجلب الفتاة التي تكرهك إلى الوقوع في حبّك، لعبة مسلّية حقّاً ومثيرة.

إنّها لا تعرفه ولا تعرف شيئاً عنه. ولا تعرف أنّه الرجل الذي تكرهه.

إضافةً إلى أنّها كانت صديقة كارو المفضّلة؛ لذلك فإن أحبّته، سيعني ذلك أن جزءاً من كارو قد عاد إليه.

وابتسم فيما دمعت عيناه. ربّما لم يخسر كارو بعد كلّياً.

(14)

منذ وقوع الجريمة الأولى فكّر بيرت بالتحقيق مع العمّال الموسميّين الذين يعملون في حقول الفراولة؛ فقد تذكّر المثل الشعبي المعروف جدّاً والقائل: «**ارفع ثيابك عن حبل الغسيل، فقد وصل لاعبو السيرك إلى البلدة**».

وها هي السطور التي كتبتها كارو في أحد أشعارها تعيده إلى الفكرة عينها:

وتقطع المسافات
من شرق البلاد إلى غربها
بحذائك الضخم.

يسافر العمّال الموسميّون من منطقة إلى أخرى ويمكثون حيث يجدون عملاً. هل هذا هو الأمر الذي حدا بكارو إلى كتابة هذه السطور. هل كان حبيبها الغامض والذي قد يكون قاتلها، أحد قاطفي الفراولة؟

وشتم بيرت الحالة التي وصل إليها. هل يُعقل أن يعتمد في بحثه على حفنة من المعاني الشعرية المبهمة؟

لقد سبق ونبّهه رئيسه من خطورة المبالغة في تصديق فرضيّة معيّنة

twitter @baghdad_library

إذ قد يؤدّي به ذلك إلى إهمال غيرها من الفرضيّات. «ثمّ. ما نوع العلاقة التي قد نفترض وجودها بين صديق كارولا ستايغر المجهول الهويّة وسيمونا ريدلف؟ مع العلم أنّه لم يكن هناك علاقة غريبة تربط هذه الأخيرة مع أحد الأشخاص».

لم يكن من الممكن التغاضي عن هذا الواقع المناقض للفرضيّة الأولى. فبحسب شهادة والديها على الأقلّ، لم يكن لسيمونا علاقة عاطفيّة قويّة بأحد.

هل اختار المجرم ضحيّته الأولى اختياراً عفويّاً خالصاً، من غير تخطيطٍ مسبق؟ هل كان يجهل ضحيّته؟ ولكن لماذا تصرّف في المرّة الثانية بطريقةٍ مغايرة كليّاً؟

عندما اتصل بيرت بزملائه في شمال ألمانيا، علم أنّهم قاموا بعمليّة مسح شامل لجميع أسماء العمّال الموسميّين الذين كانوا يعملون في الحقول والمزارع في ضواحي جيفر وأوريخ في تلك الآونة. تماماً كما فعل بيرت في هذه المنطقة.

ومباشرةً بعد اكتشاف جريمة قتل سيمونا ريدلف، اقترح بيرت على زملائه في الشمال تبادل لوائح أسماء العمّال الموسميّين في المنطقتين. وعندما اطّلع هو شخصيّاً على جميع الأسماء اكتشف أنّ هناك منهم مَن عمل في المنطقتين خلال الفترة الممتدّة بين الجريمتين، ولكنّهم انتقلوا من العمل هناك إلى العمل هنا بناءً على إذنٍ رسمي من الدوائر المسؤولة.

ولكنّهم في شمال البلاد، وعلى الرّغم من انقضاء وقت طويل على الجريمتين، لم يُحرِزوا أيّ تقدّم ملموس حتّى الساعة، تماماً كما هي الحال هنا.

ونظر بيرت مجدّداً إلى الملاحظات التي دونّها في المرّة الماضية. تكلّم معظم قاطفي الفراولة كالعادة بصعوبة وعصبيّة. إنّهم عاجزون عن رفض الإجابة كليّاً عن أسئلة رجال المباحث، ولكنّهم قادرون على جعل مهمّة هؤلاء في غاية الصعوبة.

كعادته، لا يهتمّ بيرت بأقوال المستجوَبين بقدر اهتمامه بالانطباعات التي يتركونها لديه. ولذلك ينتهي به الأمر، إلى عدم التسجيل في دفتر ملاحظاته سوى النقاط الجوهريّة فحسب.

تقول مارغو بتحبّب، وخصوصاً عندما تكون صافية المزاج، إنّ طريقة عمله تشبه التطريز بالخيط الرفيع والإبرة. وهذا صحيح. لقد طوّر بيرت طرائق بحثه خلال تجربته المهنيّة الطويلة، وبات ينسّق بدقّة بين ما يعرفه بوعيه، وما يستدلّ إليه بحدسه.

وأسلوبه في العمل يُعتبر تقليديّاً وقديماً، فقليلاً ما يعتمد على التقنيّات الحديثة ولا يثق فعلاً سوى بعقله. وكذلك فهو يثق بأحاسيسه، ولكن نادراً ما يتكلّم عن هذا الأمر؛ ألا يكفي أنّ زملاءه يعتبرونه شخصيّة غريبة في جميع الأحوال!؟

لم تحمله الملاحظات التي أمامه على الشكّ بأيٍّ من هؤلاء العمّال؛ ففكّر في مقابلتهم مجدّداً.

رئيسه على حقّ في عدم وجود علاقة ظاهرة بين الجريمتين الأولى والثانية. «لا شيء، سوى الأسلوب الذي قتلت به الفتاتان من ناحية، ومن ناحية أخرى، وقوع الجريمتين في ضواحي منطقة إيكرشايم».

ومزارع الفراولة تقع في إيكرشايم.

أغلق بيرت دفتره ووضعه داخل سترته، واستعدّ لمغادرة المكتب

twitter @baghdad_library

قاصداً مزارع الفراولة. ولكنّه لم يكن يعلم بالتحديد ماذا سيفعل هناك.

وبعد ذلك، سيحاول الاتصال بجنّا وميرلي. ليس لأنّه وعد إيمكي ثالهايم بذلك فحسب، بل لأنّه قلق من أن تكون الفتاتان قد انطلقتا فعلاً في خطّة البحث عن المجرم بمفردهما.

* * *

كان مقهى البرج عبارة عن مقهى في وسط برجٍ تاريخي. لقد زرت هذا البرج لأوّل مرّة في رحلةٍ مدرسيّة وكنت حينذاك في المدرسة الابتدائية. أذكر أنّ المعلمة تكلّمت مطوّلاً عن خصائص ذلك البرج الأثري في وسط مدينة برول القديمة؛ وأذكر أيضاً أنّ قلبي خفق لأوّل مرّة بمشاعر الحبّ خلال تلك الرحلة. أكثر ما كنت أحبّه في ذلك الفتى الذي يدعى جستن، شعره الأحمر الرائع، وكلامه الذي كان في بعض الأحيان خليطاً من الألمانيّة والإنجليزية. فوالدة جستن كانت إنجليزية فيما كان والده ألمانيّاً.

كان مقهى البرج مستديراً، كما تكون الأبراج عادةً، أمّا أثاثه فكان قديماً، أو مصنوعاً بطريقةٍ توحي بالقدم. زبائن المقهى خليط من جميع المستويات والأعمار، أمّا حيطانه فمزدانة بلوحات فنيّة قيّمة ومعروضة للبيع؛ إلاّ أنّها باهظة الثمن.

اخترنا، ميرلي وأنا، من قائمة الطعام صحناً كبيراً من السلطة الصيفيّة ومعه خبزاً مسخّناً مع الزبدة والثوم. لم نأتِ على ذكر كارو في البداية، لأنّ كلانا شعر بالشوق الكثير إليها لما لنا من ذكريات مشتركة معها في هذا المكان.

«بالصحّة!» قالت المضيفة. وهي فتاة جميلة الوجه والقوام،

وتبدو في آخر العشرينيات. إنّها تعمل في هذا المكان منذ زمنٍ طويل وتُدعى، كما تقول البطاقة المثبتة على كمّ قميصها الأبيض: آنيتا.

«السلطة كانت لذيذة جدّاً!» قالت ميرلي.

«الطعام هنا لذيذ كالعادة». قلت.

«لا أرى رفيقتكما اليوم. أين هي؟» سألت آنيتا وهي تجمع الصحون الفارغة عن الطاولة.

«ماتت كارو». قالت ميرلي بتحدٍّ، وكأنّها تأمل من آنيتا نفي الخبر.

علا وجه آنيتا الاصفرار الشديد، وتسمرّت عيناها علينا من غير أن تنطق بكلمة.

«كارو ماتت مقتولة». قلت.

أنزلت آنيتا الصحون من يديها. وأطبقت بإحدى كفيها على فمها وباليد الأخرى أسندت نفسها إلى الطاولة.

«هل تذكرين متى جاءت إلى هذا المكان آخر مرّة؟» سألتها ميرلي.

تنبّهت، من جهتي، إلى وجوب الانتظار قليلاً ريثما تستعيد الفتاة روعها، فقد نزل عليها ذلك الخبر نزول الصاعقة.

هزّت آنيتا رأسها وأجابت: «لا أذكر ذلك. لا يتنبّه المرء عادةً إلى مثل تلك الأمور. لا أحد يتوقّع أن يحدث. أن يحدث مثل ذلك الأمر الفظيع». وكان صوتها يخفّ وينخفض تدريجيّاً حتى بات في النهاية غير مسموعٍ.

وسألتها: «هل تذكرين إن كانت بمفردها أو بصحبة أحد. أعني في المرّات الأخيرة، عندما جاءت إلى هنا؟»

twitter @baghdad_library

فكّرت قليلاً، وهي تحرّك يدها بصورة تلقائية على الطاولة، «كانت برفقة رجل. ليس في كلّ مرّة. ربّما مرّتين أو ثلاثة».

تسارعت ضربات قلبي، وسارعت إلى السؤال: «وهل تعرفين ذلك الرجل؟»

هزّت برأسها نفياً. «لم أره قبل ذلك. ولم أره بعد ذلك أيضاً».

«كيف كان شكله؟» سألت ميرلي، ممسكةً نفسها عن التنفّس في ترقّبها لسماع الجواب.

«طويل القامة وقويّ البنية، إلاّ أنّه نحيل، ويبدو في الثلاثين. شعره غامق اللون ووجهه يميل إلى الوسامة».

«هل لديه أيّ علامة خاصّة؟» قلت.

«لونه برونزيّاً، أعني اللون البرونزي الحقيقي الذي يكتسبه الجلد بفعل الشمس وليس بفعل الضوء الصناعي». في البدء، ظننت أنّه من الشرق الأوسط، ولكنّه يتكلّم من غير أيّ لكنة غريبة. وابتسمت آنيتا، ثمّ تابعت: «حتّى إنّي شعرت في البداية بميل نحوه. ولكن ما لبثت أن لاحظت أنّ الاثنين كانا يعيشان علاقة حبّ حقيقيّة. فعيناه كانتا عليها هي وحدها».

«هل لاحظتِ شيئاً آخر؟» سألتها.

«لم يكن كثير الكلام، كان بالأحرى شديد الإصغاء إليها وكأنّه يخاف أن تضيع عليه أيّ كلمة تتفوّه بها». ثمّ هزّت برأسها مواسيةً، وقالت: «هذا كلّ ما أعرفه. ليس لديّ الوقت عادةً للوقوف ومراقبة الزبائن».

وقبل أن تقرّر العودة إلى متابعة عملها، ناداها أحد الزبائن،

فسارعت إلى رفع الصحون مجدّداً والانطلاق إلى المطبخ. ثمّ عادت لتلبية طلبات الزبائن. وبعد مرور عشر دقائق تقريباً، رجعت إلينا وسألتنا: «لماذا أردتما معرفة كلّ ذلك؟»

«نحاول جمع ما قامت به كارِو من نشاط في أيّامها الأخيرة». قالت ميرلي.

وأضفت على ما قالته ميرلي: «نريد أن نفعل ذلك تكريماً لذكرها».

«نعم. أفهم ذلك». قالت آنيتا.

«هل تقدّمين لنا فنجانين من القهوة بالحليب من فضلك؟» قلت.

«بالطبع! وهل تقولان لي اسميكما؟»

قلت بابتسام: «أنا اسمي جنّا، وصديقتي ميرلي».

وتبعناها بعينينا وهي تتوجّه إلى المطبخ.

وما إن توارت عن نظرينا، حتى انحنت ميرلي نحوي وقالت: «ربّما تعرف المزيد، وقد تتذكّر بعض الأمور الأخرى بعد قليل».

أمسكتُ بيد ميرلي وأحكمت قبضتي. فقد شعرت بالدوار قليلاً بفعل الحماسة.

* * *

وكأنّ آرنو كالمر يشمّ رائحة رجال الشرطة. فما أن سمع صوت محرّك سيّارة البيجو السوداء يقترب من المزرعة حتى علم أنّ الزائر هو أحد رجال المباحث.

خرج رجل المباحث من سيّارته، وتركها غير مقفولة؛ وكأنّه يظنّ أن من يريد سرقتها سيتراجع عن الفكرة لمجرّد كونها ملكاً للشرطة.

بصق آرنو كالمر على الأرض. كان يعلم أنّ القضيّة لم تنتهِ بعد

twitter @baghdad_library

على الرّغم من الرّكود الظاهر. وفي كلّ مرّة تحدث جريمة أو سرقة، تتحوّل الشكوك إلى عمّاله أوّلاً

لا يدّعي عدم تفهّم السبب. فأسلوب حياة هؤلاء العمّال غير عادي ولا يمكن التعامل معهم بالمقاييس العاديّة. يختلفون عن بعضهم بعضاً بأمور كثيرة، إلاّ أنّ أمراً واحداً يجمعهم وهو حبّهم لعدم التقيّد في نطاق العمل بمدير أو رئيس.

بعضهم فضّل الهروب بعدما حقّق معه رجال المباحث في المرّة الأولى. إنّهم يكرهون إطلاع الآخرين على أوراقهم، حتّى لو كانوا أبرياء من أي جرم.

من عادة الكثيرين منهم الارتحال ليلاً من غير إنذار مسبق، الأمر الذي يفرض على صاحب المزرعة التحسّب لذلك حتى لا يعاني فجأةً من قلّة اليد العاملة التي تهدّد سلامة الموسم.

لم يكن آرنو كالمر محبّاً لعمّاله، ولكنّه كان يحترم النشاط الذي يبذلونه في العمل، ويعلم مقدار اعتماده عليهم. فالعامل الوحيد الذي يبقى معه طوال السنة كسولٌ، ويحتاج إلى تعلّم الكثير من هؤلاء الموسميّين.

تنهّد وتقدّم بضع خطوات نحو الأمام لاستقبال ضابط المباحث. لم يكن بحاجة إلى السؤال عن سبب قدومه.

«لنجلس في مكانٍ ما ونتكلّم». قال الضابط.

عندئذٍ دعاه آرنو إلى بيته.

«لقد خرجت زوجتي إلى السوق، ولكن يمكنني أن أقدّم لك فنجاناً من القهوة. هل تريد فنجاناً من القهوة؟»

ولكنّ ملزيغ فضّل كوباً من الماء. ثمّ جلس على مقعدٍ خشبي في المطبخ وأخرج دفتر الملاحظات من جيب سترته.

* * *

كان قد لاحظ مرور سيّارة ضابط المباحث في محاذاة المزرعة، ولكنّه لم يكن متأكّداً إذ لم يرَ السائق بوضوحٍ عن بُعد.

كان يتوقّع تلك الزيارة وعليه أن لا يقلق. إنّها اللّعبة عينها التي لعبها مرّاتٍ عديدة من قبل، وقد يربح مجدّداً. ابتسم وانحنى لمتابعة عمله.

«هل تشعر بالفرح اليوم؟» سأله مالي، فيما كان يرفع صندوقاً مملوءً بالفراولة إلى كتفه.

«لا شيء أكثر من العادة». شخر ناثانيال.

كان سيأمره بالالتفات إلى شؤونه الخاصّة، لو لم يكن مالي الشخص الوحيد الذي يحبّه من بين جميع العمّال، وقد يحتاج إلى مؤازرته في وقتٍ من الأوقات.

حاول بعضهم الهروب في الحال، وقد يدعو ذلك ضابط المباحث إلى التحقيق معهم أوّلاً ومطوّلاً؛ وقد يفيد ذلك ناثانيال في كسب بعض الوقت.

ولكنّه طقطق بلسانه، وقال لنفسه: «هل يحتاج حقّاً إلى مزيدٍ من الوقت؟ لماذا؟»

كان عطر الفراولة آسراً. فقد كانت الثمار شديدة الحمرة والدفء وما زال ناثانيال يشتهي أكلها على عكس معظم العمال الآخرين الذين باتوا يعزفون عن أكلها لكثرة ما استهلكوا منها.

لو كان صادقاً مع نفسه لاعترف لها بأنّه يشعر بالقلق. فعودة

twitter @baghdad_library

ضابط المباحث تنذر بأنّ دورة جديدة من التحقيقات ستبدأ، وعليه أن يكون شديد الحذر من اقتراف أيّ هفوةٍ الآن.

قام بخفّة على قدميه ورفع صندوق الثمار إلى كتفه وتوجّه إلى العربة. لا يمكن لأحد ملاحظة خوفه فهو بلا شكّ ممثل ماهر كما كانت جدّته تردّد.

ولكنّها لم تكن تعني في كلامها الإطراء على مواهبه، بل العكس. فسرعان ما كان جدّه يأخذه إلى القبو للمحاسبة.

مشى ناثانيال مستقيماً واعداً نفسه بأنّ لا أحد سيتمكّن من ضربه بعد الآن أبداً.

لقد فهم جدّه ذلك ولو بعد مدّةٍ طويلة.

وسيفهم الجميع ذلك في يومٍ من الأيّام.

* * *

لم تتمكّن آنيتا من تذكّر أيّ أمرٍ إضافي حول صديق كارو.

جلست آنيتا معنا إلى الطاولة وتناولت فنجاناً من القهوة وقطعة من الحلوى بالجبن. لم تكن قد تناولت فطورها بعد وكان الزبائن قلّة والوقت ملائماً لذلك.

إنّها من الفتيات اللواتي لا يتغيّر مظهرهن الجميل مع تغيّر الظروف. فحتّى خلال مضغ الطعام، وعلى الرّغم من تناثر فتات الكعك حول فمها، فهي لا تزال جميلة. وقد تبكي آنيتا من غير أن تتورّم عيناها.

«هل عرفتِ اسمه بطريق الصدفة مثلاً؟» قلت لها.

قالت: «كلّا. حتى اسم صديقتكما كنت أجهله حتى هذه الساعة». ثمّ انحنت قليلاً نحونا وتكلّمت بهمس: «قولا لي عن

السبب الحقيقي لطرح كلّ هذه الأسئلة. في الحقيقة لم أصدّق أبداً أنّكما تفعلان ذلك من أجل تكريم ذكرها فحسب».

نظرت إلى ميرلي بتردّد، ولكنّي فكّرت أنّه لا داعٍ لإخفاء السبب. فقد جاهرت به أمام جمع غفير من الناس خلال المأتم، وكتبت عنه بعض الجرائد.

«عرفت الآن». قالت آنيتا بعد أن أعادت الكعكة باستعجال إلى الصحن ونفضت أصابعها من الفتات. «تتوقّعان أن يكون صديقها هو القاتل. يا إلهي! كنت أقدّم القهوة والطعام إلى الرجل الذي قتل صديقتكما وثلاث فتيات أخريات. . !»

كتبت ميرلي رقم هاتف شقّتنا ورقمي جوّالينا على ورقة وأعطتها إيّاها.

«حسناً» قالت آنيتا. «سوف أتصل بكما إن تذكّرت شيئاً جديداً. أعدكما بذلك».

بعد خروجنا من المقهى، استعادت ميرلي المعلومات الجديدة التي عرفناها من آنيتا وهي تعدّها على أصابعها: «عمره يقارب الثلاثين وشعره غامق اللون. طويل القامة وجذّاب إلى درجة جعلت آنيتا تفكّر في استمالته هي أيضاً».

«وعلمنا أيضاً أنّه يتّقن الإصغاء إلى محدّثه». قلت.

«كما كان غارقاً في حبّ كارو إلى رأسه». قالت ميرلي، ثمّ هزّت رأسها، وتابعت: «ولكنّ الحبّ الصادق لا يؤدّي إلى القتل».

«من قال كذلك؟ ألم تُرتكب جرائم عديدة في تاريخ الإنسانيّة باسم العشق؟» سارعت إلى تذكير ميرلي.

«لقد قصّ شعر كلّ من ضحاياه؛ أمّا كارو المسكينة، فوفرت

twitter @baghdad_library

عليه ذلك العناء وقصّت شعرها بنفسها. فكما ترين، إنّه يتّبع السلوك ذاته في كلّ الجرائم».

«ليتنا نتمكّن من التصديق أنّ جميع جرائمه كانت بسبب العشق. كم كنت أتمنى لو عاشت كارو حكاية حبّ حقيقيّة واحدة قبل موتها».

«كم عدد قصص الحبّ الحقيقيّة التي يمكن للإنسان اختبارها في حياته؟» سألتني ميرلي هازئةً.

كانت ميرلي على حقّ. ولكن قد لا يكون هو القاتل. إذ من الصّعب أن أصدّق أنّ كارو وقعت في حبّ من قد تساوره نفسه لقتلها!

«هذا بالضبط ما سنحاول اكتشافه، يا جنّا». كانت ميرلي تحدّثني كأنّها والدة تحدّث طفلتها: بصبر وهدوء مبطّن بقدر يسير من الغيظ.

«وأنتِ أيضاً تتمنين مثلي أن لا يكون هو القاتل»؛ قلت لها.

«لا، طبعاً. ولكن ما يربكني هو أنّه لم يتّصل بنا مطلقاً؛ إذ من المتوقّع أن يكون شديد الحزن، وأن يحتاج إلى التحدّث إلينا، وأن يرغب في الحصول على شيءٍ من غرفة كارو للذكرى».

«ولكنّه لم يسمح لها بالبوح بشيءٍ عنه أمامنا». قلت.

«هذا صحيح». قالت ميرلي بتجهّم. «لديّ عدد كبير من الأسئلة التي أريد أن أطرحها عليه. ولذلك أريد أن أجده».

* * *

بعد أن حاولت الاتصال بجنّا أو بميرلي للمرّة التاسعة أو العاشرة من دون أن تلقى جواباً، باتت الهواجس تساورها.

ها أنّ فصول روايتها الجديدة تكاد تكتمل فالأفكار تتلاحق

بسرعة هذه الأيّام وسيل قلمها يفيض بحرارة لم تعهدها من قبل. كلّ كتابٍ يتمتّع بشخصيّةٍ خاصّة به، وكلّ قصّة تكتبها تعكس بطريقة غير مباشرة فصلاً من حياتها.

عندما كانت تشرب القهوة على الشرفة منذ نصف ساعة، فكّرت بأمرين. أوّلهما، أنّه بات عليها شراء مؤونة الحطب تحضيراً لفصل الشتاء القادم. وثانيهما، أنّها باتت تتعاطف مع المجرم في الرواية التي تكتبها. بالنسبة إلى مسألة الحطب، فهي غير مستعجلة. أمّا الأمر الثاني، فخطير، وعليها كبح نفسها عن المتابعة في ذلك الاتجاه.

كانت قد فكّرت بهذا الأمر بضع مرّاتٍ في الأيّام الأخيرة، ولكنّها حاربت الفكرة واعتبرتها من بنات الخيال. أمّا الآن، فتشعر بالفعل كأنّ كتاباتها قد سهّلت وقوع الجرائم؛ فكأنّها فرشت الدرب أمام هؤلاء المجرمين الذين يقترفون الجرائم حقيقةً في هذه الأيّام.

خرجت إلى الشرفة مجدّداً مع فنجانٍ آخر من القهوة، فساهم منظر المرج الأخضر والسماء الزرقاء الصافية في تهدئة مزاجها. وفكّرت أنّه لو اتّضح لها بالفعل، بأنّ رواياتها وخيوط الجرائم التي تنسجها قد امتدّت واتصلت حقّاً بالواقع، فستقرّر الإقلاع عن الكتابة كليّاً، أو الانصراف إلى كتابة الرواية العاطفية.

ورنّ جرس الهاتف. كانت إيمكي قد تحوّلت إلى استعمال الهاتف النقّال في البيت منذ أن انتقلت إلى العيش في هذا البيت الكبير في وسط الرّيف.

وبعد أن رنّ مرّتين، أجابت إيمكي.

«ما رأيك بدعوتي إلى شرب فنجان من الشاي معاً؟»

وها هي أمّها تتصل بها في الوقت المناسب. إنّها بالفعل الإنسانة

twitter @baghdad_library

التي تحتاج إلى رؤيتها والتحدّث إليها الآن. إنّها بمثابة الصخرة التي تسندها في الأزمات. صحيحٌ أنّها تقوم بكثير من التصرّفات المزعجة، ولكنّها تنجح في تسوية الأمور في حالات الخلل.

«هل يمكنك أن تأتي الآن؟»

«هل الأمر مستعجل إلى هذه الدرجة؟»

«سأبدأ في تحضير الشاي».

وقالت إيمكي في نفسها. «نعم فالأمر مستعجلٌ جدّاً. يجب أن أحدّثها عن أمورٍ كثيرة؛ إنّي أحتاج فعلاً إلى رأيها في عدد من الأمور. ألا يحقّ لي الاستعانة بأمّي؟»

وكالطفلة، تمسّكت بأمل أنّ التحدّث إلى أمها سيخفف عنها جميع الضغوط. وبهدوء، راحت تدندن لحناً موسيقيّاً محبّباً.

* * *

«تسألني إن كنت أكفل براءة عمّالي؟» استعاد آرنو كالمر السؤال وهو يضحك. وكان ضحكه ثقيلاً ومزعجاً. «انظر، أنا لا أعرفهم جيّداً. بالطبع، هناك مَن يعود للعمل هنا كلّ سنة، ولكن ليس لأكثر من بضعة أسابيع».

«إذاً فالجواب هو كلاّ». قال بيرت.

انحنى كالمر إلى الأمام وبدا متوتّراً. ثمّ رفع ذراعيه وقال: «نعم. الجواب هو كلاّ. هل تنظر إلى الأمور بهذه الطريقة دائماً؛ فإمّا أنّها بيضاء أو سوداء. ألا تؤمن بالحالة الوسطيّة؟».

«لا، ليس الأمر صعباً إلى هذه الدرجة. إنّما أودّ أن أكون دقيقاً».

ولكنّ الجواب لم يقنع المزارع الذي استرسل في هجومه. «وهل

تظنّ أنّه من العدل إرسال الشرطة إلى هنا كلّما وقعت جريمة في هذه المنطقة؟»

لم يُجِب بيرت؛ فذلك كان أسلوبه في دفع المزارع إلى الاستفاضة في الكلام.

«هؤلاء الناس الذين يعملون في مزرعتي يتمتّعون بمزايا حسنة غير موجودة لدى معظم سكّان هذه المنطقة. أمّا حياتهم الخاصّة فلا علاقة لي بها».

واستمرّ بيرت في سكوته.

«لا بدّ من وجود بعض المشاغبين بينهم بالطبع؛ ولكن، قد لا يكون أكثر ممّا هو موجود في كلّ بيت عادي في هذه البلدة؛ أتفهمني؟ عمّالي أناسٌ رحّل ولا تنطبق عليهم مواصفات الناس المستقرّين في مكانٍ واحد. وقد يفضّل واحدهم النوم على القشّ في القبو على النوم في السرير؛ ولكن هل يجعلهم ذلك بالضرورة مجرمين؟»

وفكّر بيرت لبرهة: «لماذا لا أحبّ هذا الرجل». وأجاب عن تساؤله: «لأنّه يقول ما أعتقده أنا بالضبط».

وأجاب: «بالطبع، ذلك لا يجعلهم بالضرورة مجرمين».

«إذاً ما سبب زيارتك؟ لقد استجوبتهم جميعاً المرّة الماضية. هل من شيء جديد وراء عودتك؟»

«تعلم بلا شكّ أنّي لا أتمكّن من إجابتك عن هذا السؤال».

تنبّه بيرت إلى صوته وأسلوبه اللطيف في الإجابة؛ وشعر أنّه يكره هذا القناع الذي يلتزم به لكونه ضابط مباحث، وتمنى لو يمكنه خلعه والتصرّف كما يحلو له في بعض الأحيان.

twitter @baghdad_library

ولكن، ما الذي سيظهر تحت قناع رجل المباحث يا تُرى؟ ما زال الجواب عن هذا السؤال أمراً مبهماً حتّى على صاحبه.

كتب بيرت أسماء العمّال الذين انصرفوا قبل انتهاء الدّوام تهرّباً من مقابلته.

ثمّ أكمَلَ شرب كوب الماء وانصرف.

سار معه آرنو كالمر إلى السيّارة، وفكّر بيرت متى كانت آخر مرّة فرح لرؤيته أحد، أيّ بصفته ضابط مباحث؟

وسرعان ما أتته الإجابة: عندما زار إيمكي ثالهايم.

تحسّن مزاجه فوراً عندما تذكّر تلك الزيارة. ثمّ ركب سيّارته وأدار زرّ الراديو، وتوجّه إلى برول لمقابلة الفتاتين. إصراره على مقابلتهما ليس تلبيةً لرغبة إيمكي ثالهايم فحسب، بل لأنّه يدرك أهميّة مراقبة الفتاتين باستمرار.

* * *

شعر ناثانيال بالارتياح ينزل عليه كموجة مياهٍ دافئة عندما لمح سيارة البيجو السوداء تغادر المكان.

ولكنّه وعد نفسه بالحذر الشديد بعد أن لمس مقدار الضعف الذي يصيبه عندما يترك لنفسه حريّة التأثر بالظروف الطارئة.

فهو لا يريد أن يكون ضعيفاً أبداً بعد الآن.

وهو ناثانيال قاتل - التنين.

ولكنّ يديه كانتا ترتجفان قليلاً.

فتنشّق نفساً عميقاً ثمّ زفره ببطء وأحسّ بالهدوء؛ وردّد الحركة ذاتها مرّات عديدة، حتّى أوشك على الصلاة.

(15)

كثيرون هم الذين عرفوا كارو وتعرّفوا إلى صورتها. ولكن لا أحد سوى آنيتا رآها برفقة صديق آخر غير جيل، أو أحد أصدقائها القدامى. وبعض الذين طرحنا عليهم السؤال شعروا بالارتباك وفضّلوا عدم التورّط بإعطاء أيّ إجابة.

ليتنا أخذنا بعض الصور في المأتم. فربّما كان بوسع الناس التعرّف إلى ذلك الرجل بين الحاضرين. لم أشكّ لحظةً أنّه كان مشاركاً في تشييع كارو إلى مثواها الأخير. هذا، لو كان بريئاً.

وأتمنّى أن يكون كذلك، لأنّه أحبّ كارو، مثلي ومثل ميرلي.

أهلاً بك أيّها الرجل الأسود
إنّك تنتمي إلى الظلمة
وليس إليّ.
تعالى يا حبيبي
تعالى واصعد معي إلى الضوء.

ما هو سرّه؟ لماذا يختبئ في الظلّ؟ لماذا سجن كارو في ذلك القفص من الصمت، كأنّها عصفور مُنع من الغناء؟

اقترب المساء وكنّا قد زرنا معظم الأماكن المدرجة على اللائحة،

twitter @baghdad_library

فقرّرنا، ميرلي وأنا العودة إلى شقّتنا لأخذ قسطٍ من الراحة وإطعام القطّتين، قبل أن ننطلق مجدّداً لاستكشاف بعض النوادي الليلية الباقية.

لم نحدّد بحثنا ضمن نطاق برول، فطالما أحسّت كارو بالضيق داخل أزقّتها وحاناتها المزدحمة بالناس ورغبت في الخروج إلى الضواحي. ولم تكن تلك المرّة الأولى التي أشكر الله على سيّارتي الرينو على الرغم من افتقارها إلى مكيّف.

وجدنا القطّتين متكوّمتين في المساحة الضيّقة بين المغسلة وحوض الحمام وكان صحن الطعام فارغاً. ملأت الصحن مجدّداً ونظّفت المكان ولكنّهما كانتا تجفلان كلّما اقتربت يداي منهما.

«إنّهما مضطربتان جدّاً». قالت ميرلي وهي تضع بعض شرائح البيتزا في الفرن. «ما رأيك لو نحتفظ بهما؟»

كنت أفكّر بذلك أيضاً. إذ إنّ ميرلي وأصدقاءها باتوا يلاقون صعوبةً في إيجاد بيوت للحيوانات العديدة التي ينقذونها.

فقلت: «لا بأس».

رنّ جرس الباب الخارجي عند أسفل الدرج، فضغطتُ على الزرّ لأفتحه. عرفت القادم من وقع أقدامه، فقد كان يتسلّق الدرج بسرعة ثمّ وصل أمام شقّتنا لاهثاً.

دعوته إلى المطبخ وسألته إن كان يرغب بشرب فنجان من القهوة.

«جئت للاطمئنان عليكما». قال ضابط المباحث.

«وليس لديك أيّ دوافع أخرى. هل أنت متأكّدٌ من ذلك؟» قالت له ميرلي.

«كما أرجو أن تكونا قد أقلعتما عن فكرة البحث عن قاتل كارو. هذا كلّ شيء».

«كلّا». قالت ميرلي. «لم نفعل».

«وهل من معلومات جديدة لم تطلعانا عليها؟» قال.

«لا شيء بعد». قلت، بعد أن فكّرت بأنّ ما عرفناه من آنيتا ليس كافياً ليكون على قدر كبير من الأهميّة بالنسبة إلى رجال الشرطة.

«وهل أنا بحاجة لأؤكّد لكما مجدّداً أنّكما تعرّضان نفسيكما للخطر إذا ما علم القاتل أنّكما قد أطلقتما تهديداً ضدّه وأخذ ذلك على محمل الجدّ؟»

هززنا رأسينا.

«بإمكاني أن أضعكما تحت المراقبة لكي أمنعكما من تحرّكات قد تعترض عمل الشرطة».

ففكّرت أنّ علينا من الآن وصاعداً الانتباه إلى وجود من يراقبنا. فقد ينفّذ بيرت ملزيغ ما قاله.

«أودّ أن أسألك إن كانت أمّي هي التي طلبت منك زيارتنا؟»

لم يُجب، بل حوّل نظره عنّي وكان ذلك كافياً لكي أعلم أنّ شكّي في موضعه. ولكن قبل أن يتسنى لي الكلام، كانت شرائح البيتزا قد أصبحت جاهزة، وسألته ميرلي: «هل تتناول معنا البيتزا؟»

«شكراً على دعوتك، ولكنّي غير جائع».

رافقته إلى الباب، وقبل هبوط الدرج استدار نحوي وقال مجدّداً: «أرجو منكما الانتباه إلى سلامتكما. لا تستخفّا بخطورة ذلك المجرم. لقد تركت بطاقتي على الطاولة، ويمكنكما الاتصال بي في أيّ وقت. هل سمعتِ؟»

twitter @baghdad_library

ثمّ سمعت وقع خطواته يتلاشى ثمّ يختفي. إنّه رجلٌ طيّب! ثمّ عدت إلى المطبخ.

هذه بطاقته.

«ارمها في الحال». صرخت ميرلي.

ولكنّي لم أرْمِها، بل احتفظت بها إلى جانب الهاتف.

* * *

فرحت إيمكي بزيارة والدتها، ولأوّل مرّة لم يكن هناك تبادل لأيّ عبارات جارحة بينهما. شعرت إيمكي بالتأثر لما قدّمته لها والدتها من مساعدة. «أشكرك يا أمّي».

«توقّفي عن شكري أرجوكِ، ألن تفعلي الشيء نفسه، وتخفّفي عنّي لو كنت في أزمة؟»

«آمل ذلك». فكّرت إيمكي. فهي لا ترى أنّ باستطاعتها التخفيف عن الآخرين. ولكن ما قامت به والدتها نحوها لم يكن تخفيفاً بالمعنى الصحيح للكلمة؛ بل تبسيطاً للمشكلة. وهي تقول باستمرار أنّه يكفي النظر إلى المشكلة بواقعيّة لكي تقطع نصف الطريق إلى حلّها.

«لماذا لا ترسلي الفتاتين إليّ لقضاء بعض الوقت معي؟»

«لقد تخطّت جنّا وميرلي العمر الذي يمكن فيه إرسالهما إلى مكانٍ ما».

«حاولي في الأقلّ؟»

«ليتني أستطيع إقناعهما بذلك». فكّرت إيمكي. «ففي الأقلّ، تكونان برفقة أحدٍ في البيت؛ وليس في شقّة داخل مبنى حيث تعوّد معظم السكّان ترك الأبواب غير مقفلة».

«أعدك أن أفكّر بذلك». أجابت إيمكي.

«وماذا عن نشاطك الكتابي في هذه الأيّام؟» سألتها أمّها محاولةً تغيير موضوع الحديث. ولكنّ أفكارهما حول المواضيع الأدبية متباعدة وتهدّد بخطر الاصطدام.

«لا بأس». قالت إيمكي من غير توضيح.

«ما هو موضوع كتابك الجديد؟»

همّت إيمكي إلى الإجابة وهي تتساءل إن كان الاهتمام الذي تظهره أمّها حقيقيّاً أو مجرّد كلامٍ لمتابعة الحديث فحسب.

«أكتب في هذا الكتاب قِصّةً تشبه ما جرى لكارو ولسيمونا ريدلف».

وضعت أمّها فنجان القهوة بعصبيّة وقالت: «أكاد لا أصدّق! ألم تفكّري يوماً أنّ ما تتخيّلينه وتكتبين عنه يجذب المصيبة فتصبح واقعاً»؟

«هل تعنين أنّه بمجرّد الكتابة. ؟»

«طبعاً!»

«إنّي لا أؤمن بهذه الأمور يا أمّي».

«أيّ أمور؟»

«الأفكار الماورائيّة المجنونة».

كان عليها أن لا تقول ذلك. ولكنّ الكلمات كانت قد خرجت من فمها ولا مجال لردّها الآن.

«أعتذر يا أمّي فأنا لا أقصد..»

«لا تأبهي. أعلم أنّك لا تؤمنين بهذه الأفكار».

«تساعدني الكتابة عن هذه المواضيع على التغلّب على القلق والخوف. فكأنّي أخرج تلك المشاعر من داخلي إلى الورق».

twitter @baghdad_library

«تقصدين. إلى الحاسوب».

«بالطبع، إلى الحاسوب».

ضحكت الاثنتان وصفت الأجواء؛ ثمّ مرّت طائرة شراعية فوقهما من غير أن تصدر صوتاً، وبعدها سربٌ من العصافير. وكلّ ما في الطبيعة يعبق برائحة الصيف.

«ابتعد عن ابنتي أيّها المجرم!» صرخت إيمكي في داخل رأسها.

«ابتعد عن ابنتي».

وتنبّهت أنّها كانت في تفكيرها تتوجّه إلى المجرم الحقيقي، وليس ذلك الذي تتخيّله وتكتب عنه. «تعالي يا أمّي،» قالت وهي تحفّ يديها على ذراعيها. «تعالي لننتقل إلى الداخل، فالطقس يميل إلى البرودة».

* * *

نظرت الأم إلى ابنتها باستغراب، فحرارة الجوّ في ذلك النهار كانت أعلى ممّا كانت عليه طيلة الأسابيع الفائتة.

ولكنّها قامت وتبعت ابنتها إلى داخل البيت. وتذكّرت أنّها في البداية أحبّت الهدوء التامّ الذي تعيش فيه إيمكي في هذا البيت الكبير بعيداً عن جلبة المدنيّة. أمّا الآن فتخشاه.

يجب أن لا تعيش إيمكي في هذا المكان وحدها. أين هو ذلك الرجل تايلو، صديقها؟ يجب أن ينتقل للسكن معها في هذه الفترة في الأقلّ، ريثما يتمّ القبض على ذلك المجرم الخطير.

لم تكن تحبّ صديق ابنتها. نظراته الحادّة تجعل المرء يشعر أنّها تخترقه وتنبش جميع أسراره. ولكن لم يتوفّر لإيمكي غيره في ذلك الوقت!

«ألا يتمكّن ذلك الرجل تايلو من البقاء معك في هذه الفترة؟»

«متى ستتخلّين عن عبارة **ذلك الرجل تايلو**، يا أمّي؟»

تفادي الاصطدامات بين الامرأتين كان على قدر من الصعوبة؛ فالاثنتين تتمتّعان بأذن حادّة وإحساس مرهف بكلّ ما تحمله الكلمات من معانٍ خفيّة.

وفكّرت الأمّ بحلّ آخر.

«ما رأيك باقتناء كلب؟ كلب كبير وقويّ؟»

«هل لديك اقتراحات أخرى يا أمّي؟»

وفكّرت الأم أنّ إيمكي لا تخاف من الوحدة وتخال نفسها محاطة بدرعٍ خفيّ لا يمكن اختراقه. وتأهّبت لتكلّمها عن وجوب الاحتياط لعلّها تقنعها.

ولكنّها عادت وقالت في نفسها، «وبالتأكيد سينتهي بنا الأمر إلى التشاجر. وسأشعر بعد ذلك بالندم؛ وسوف تشعر هي أيضاً بالندم. ثم نتهاتف بعد قليل، وننتهي إلى اتخاذ القرار بضرورة التعامل بلطف في ما بيننا في المرّات القادمة. وفي كلّ مرّة تُعاد 'الكرّة'».

ورنّ جرس الهاتف، فأجفلها صوته المفاجئ؛ وغضبت من نفسها. ماذا يحدث؟ هل استقرّ الخوف في داخلها هي أيضاً الآن؟

* * *

المطاردة بالسيّارة ليست سهلة كما قد تبدو في الأفلام البوليسيّة. الازدحام شديد على الطريق فكأنّ جميع الناس قد قرّروا الخروج دفعةً واحدة هذا المساء للاستمتاع بالجوّ الجميل. يجب ألاّ تضيع سيّارة الفتاتين من أمام ناظريه بأيّ ثمن.

كان مطمئناً لمظهر سيّارته. إنّها من نوع 'فيات'، وليست جديدة

twitter @baghdad_library

ولا قديمة جدّاً. كما أنّها ليست كبيرة ولا صغيرة جدّاً، ولونها كلون الطين وكلّ ذلك يعني أنّها غير ملفتة للأنظار قطعاً.

تحوّلت سيّارة الرينو عن الطريق العامّ، ودخلت إلى موقف نادٍ ليلي؛ وترجلت منها الفتاتان.

أمّا هو، فأوقف سيّارته في محاذاة الرصيف، وأطفأ المحرّك وراح يراقب. وبعد أن دخلت الفتاتان إلى الحانة، تحرّك ليتبعهما.

المكان قديمٌ بعض الشيء، فكأنّ الزمن قد توقّف عنده منذ عشر سنوات، وزبائنه خليط من الشباب ومن متوسّطي العمر. لم تكن الموسيقى صاخبة بحيث يتمكّن الزبائن من تبادل الأحاديث من غير اللجوء إلى الصّراخ، كما يحدث عادةً في الحانات العصريّة جدّاً.

طلب ناثانيال من النادل قنينة كوكا كولا بعد أن اختار طاولةً في عمق الحانة. من موقعه، رأى جنّا وميرلي تجلسان حول طاولة مع بعض الشبّان، وتعرضان عليهم صورة. وكان هؤلاء، كلّ بدوره، ينظر إلى الصورة ويهزّ رأسه آسفاً ثمّ يعطيها إلى غيره.

«هل تلك الصورة هي صورته!؟» شعر بالذعر فجأةً وشدّ أصابعه حول الكوب. ولكن لم تلتقط كارو أيّ صورٍ له قطّ. ولم تزوره في غرفته أبداً. وحتّى لو زارته في غرفته، فلا وجود لصورة له في أيّ مكان، سوى الصور التي قد لا تزال أمّه تحتفظ بها منذ طفولته.

إذاً الاحتمال الوحيد هو أنّ تلك هي صورة كارو، وتقوم الفتاتان بعرضها لعلّ أحد الزبائن في الحانة قد شاهدها برفقته.

ولكنّ ذلك هراء أيضاً. لا يعرف الفتاتان شيئاً عنه البتّة؛ فقد وعدته كارو بأنّ لا تتكلّم عنه أمام صديقتيها أبداً.

وقفت الفتاتان وانتقلتا إلى الطاولة المجاورة. ثمّ ذهبتا إلى غيرها وهكذا دواليك، وبات هو جالساً ومنتظراً حلول دوره ووصولهما إلى طاولته.

وكان قد استعاد كلّ هدوئه؛ لأنّه لم يأتِ إلى هذا النادي اللّيلي برفقة كارو أبداً. حتى إنّهما لم يزورا معاً هذه المنطقة إلاّ مرّات قليلة جدّاً. كانت كارو تفضّل الأماكن الهادئة والجميلة، وكانا يذهبان في معظم الأحيان إلى التنزّه في حضن الطبيعة.

وكان يدعوها في بعض الأحيان لتناول وجبة في أحد المطاعم الريفيّة، أو لشرب فنجان من القهوة وتناول قطعة من الحلوى في أحد المقاهي الهادئة. ولكنّه كان يحرص على عدم الذهاب إلى أماكن قد يلتقي أحدهما فيها بأناسٍ يعرفهم.

معظم قاطفي الفراولة الذين يعرفونه لا يملكون سيّارات، ولا يتنزهون في أماكن بعيدة عن المزرعة.

في المقابل، كانت كارو تعرف عدداً كبيراً من الناس؛ وكان يبذل أقصى الجهود للحؤول دون التقائها بأحدٍ منهم. ولكنّه نجح في ذلك إلاّ مرّات قليلة، حين لمحه أحدهم بشكلٍ خاطف لا يسمح باستبقاء صورته في الذاكرة مطلقاً.

توقّع أن تقترب الفتاتان من طاولته بعد قليل، وكان قد حمل كتاباً في جيبه تحسّباً للطوارئ، فأخرج الكتاب وراح يتظاهر بالقراءة.

«هل تسمح أن نأخذ من وقتك دقيقة؟»

قطّب حاجبيه وتظاهر كأنّه استغرب مقاطعتهما له. وبدا على وجهه كأنّه يعود إلى عالم الواقع فجأةً بعد أن كان مستغرقاً في القراءة.

twitter @baghdad_library

«نودّ أن نطرح عليك سؤالاً ولن نأخذ كثيراً من وقتك؟» قالت جنّا.

نظر إليها وأحبّ عينيها؛ فقد انعكست فيهما ابتسامة وجهها فبدت نظرتها ناعمة ومثيرة في آن. «بكلّ تأكيد». قال، وهزّ برأسه.

أعطته ميرلي الصورة وقالت: «هل تعرف هذه الفتاة؟»

فاجأه وجه كارو في الصورة. ومن أجل صرف انتباههما عن ردّة فعله وكسب الوقت، تظاهر كأنّه على وشك أن يعطس، وتناول فوطةً من جيبه ونظّف أنفه. وبعد أن انتهى، أجاب: «كلّا، أعتذر».

صعقه ذلك الوجه الجميل والقريب الذي ما برح جزءاً منه.

بعد ذلك، نجح برسم ابتسامةٍ على وجهه. «كنت أتمنى حقّاً لو كان بوسعي مساعدتكما».

«مساعدتنا؟ بماذا؟» إنّها ميرلي، كما تخيّلها بناءً على ما قالته كارو عنها: «بسيطة، صريحة، ومنطقيّة». وإنّما قلبها رقيقٌ جدّاً، بحسب وصف كارو.

وأجاب عن السؤال بسرعة: «مساعدتكما في البحث عنها. إنّكما تعرضان صورتها لكي تجداها. أليس كذلك؟»

«في الحقيقة، نحن نفتّش عن صديقها. طويل القامة، نحيل برونزيّ البشرة، وشعره غامق اللون». وأضافت وهي تبتسم، وقد ظهر عليها الخجل فجأةً: «يشبهك قليلاً».

وأحسّ بفوران الدم في رأسه. وقال: «لا مشكلة لديّ لكي أصبح صديقها. ولكن مع الأسف. .» ورفع يديه في حركة تعبّر عن الأسف، «صديقتكما فتاة جميلة».

كانت جنّا على وشك أن تقول شيئاً، ولكن ميرلي أسرعت إلى التعبير عن شكرها له؛ وشدّت جنّا من يدها وابتعدتا.

تنفس ناثانيال الصعداء فقد كان قد تعب من التمثيل. وما أن رآهما يغادران المكان، حتى استعدّ أيضاً للمغادرة.

وبقي منتظراً في سيّارته حتى رأى سيّارة الرينو تنطلق خارج الموقف.

* * *

كان بيرت قد عاد من عمله باكراً وأمضى فترة بعد الظهر في لعب كرة القدم مع أولاده في الحديقة. ثمّ أعدّ بمشاركتهم طعام الغداء، الذي تألّف من **الهوت دوغ** المشوية والبطاطا المقليّة والكثير من صلصة **الكاتشاب**. أكل الثلاثة بشهيّة وضحكوا كثيراً؛ ولكن مارغو استغلّت فرصة اهتمام زوجها بالأولاد لتعتني بنفسها. فبقيت في الداخل لتقرأ وتقوم ببعض المكالمات الهاتفيّة، وتصبغ شعرها. لاحظ بيرت أنّ مارغو باتت تميل إلى عدم المشاركة في مثل هذه الأوقات العائليّة الثمينة. وكأنّ ما تقوم به لنفسها أكثر أهميّة.

يتفهّم بيرت أنّ الاهتمام بالمنزل والأولاد عمل مرهق، ويحترم حاجة زوجته لاستعادة نشاطها والاهتمام بنفسها. ولكن ما يؤلمه هو التغيّر الذي طرأ على سلوك مارغو. فقد تعوّد الاثنان في ما مضى أن لا يفوّتا فرصة الاجتماع معاً بأيّ ثمن؛ وأن تكون فرصة الاستمتاع بحياتهما الزوجيّة السعيدة المحطّة المثلى لاستعادة نشاطهما.

وفي المساء، وبعد أن نام الأولاد، جلس الزوجان في الحديقة ليتسامرا ويشربا النبيذ. وكانت رائحة اللّحم المشوي تصل إليهم بكثافة من حديقة الجيران؛ وصوت التلفاز يتسرّب إليهم من بيت الجيران

twitter @baghdad_library

الآخرين، ففكّر في إيمكي ثالهايم التي لو جلست في فناء دارها في مثل هذا الوقت لما سمعت سوى صرير زيز الحقول. ولكنّه نظر نحو مارغو، وأحسّ بالذنب لمجرّد التفكير بإيمكي في ذلك الوقت.

«هلّا تخبرني قليلاً عن عملك؟» قالت مارغو؟

استرجع بيرت تركيزه بصعوبة، وفكّر أنّ عليه التحدّث كالعادة مع مارغو لأنّ صمت الزوج قد يشير إلى استعداده للمغامرة خارج العلاقة الزوجيّة. ولكنّه عاد وأحجم عن التكلّم في موضوع التحقيق. واكتفى بالقول: «لم أصل إلى نتيجة بعد. والوقت يسبقني».

ثمّ نهض ودخل إلى البيت. ولمّا عاد بعد قليل، وقصائد كارو ويوميّاتها في يده، وجد أنّ مارغو قد أخذت كأسها والمجلّة التي كانت تتصفحها واختفت داخل البيت. وفكّر في أن يكون صمته قد خدش مشاعرها.

وعاد ليقلّب أوراق يوميّات كارو؛ فقد أوشك على حفظ ما احتوته غيباً. لم تكتب كارو مطوّلاً عن الأمور التي شغلتها، بل اعتمدت الإيجاز، والتركيز على موضوع معيّن في كلّ صفحة.

أمضى بيرت حوالي ساعة من الوقت وهو يعيد قراءة اليوميّات. ثمّ استعرض لائحة أسماء قاطفي الفراولة من جديد. سيطلب من معاونيه استقصاء أمر كلّ من العمّال الذين تركوا المزرعة قبل انتهاء الدّوام في ذلك النهار.

لعلّ مجرّد ظهور سيّارة المباحث أمام المزرعة تجعلهم يشعرون بالخوف. كثيرون من قاطفي الفراولة لا يراعون قوانين العمل بحذافيرها؛ ولكنّ بيرت لم يكن بالطبع مهتمّاً بمثل تلك المخالفات، وكان من الأفضل لو جعل ذلك واضحاً لدى العمّال منذ البداية.

وأعاد قراءة بعض أشعار كارو، متيقّناً أنّ السرّ الذي يسعى إلى اكتشافه موجودٌ بين سطورها؛ ولكن كيف يجده؟ وأدخل بيرت أصابعه بين خصلات شعره وراح يفكّر.

وعندما أفاق من تفكيره، تنبّه إلى أنّ زجاجة النبيذ قد فرغت، وأنّ الأضواء قد أطفئت داخل البيت، فتوقّع أن تكون مارغو قد نامت. فقال في نفسه «حسناً»، وراح يجمع أغراضه ليذهب هو بدوره إلى السرير. ولكن، ألا يحقّ له ببعض الدفء العاطفي قبل الخلود إلى النوم؟

* * *

لا أحد سوى آنيتا شاهد كارو بصحبة صديقها. عدنا إلى الشقة متعبتين وغير راضيتين عن النتيجة التي حصدناها في ذلك النهار.

كانت القطّتان في انتظارنا، فما أن دخلنا حتى سمعنا مواءهما طلباً للطعام. وبعد أن ملأنا لهما صحن الطعام وجدنا أنّه بات بإمكاننا ترْكُ باب الحمام مفتوحاً أمامهما للتنزّه في أرجاء الشقة كما يحلو لهما.

ثمّ جلسنا في المطبخ لنتناول فنجاناً من الشاي، وشعرنا بالكآبة.

«أظنّ أن ضابط المباحث كان على حقّ؛ القضيّة تتعدّى قدراتنا». قالت ميرلي.

«هذا غير صحيح. القضيّة معقّدة، وهذا كلّ ما في الأمر. ولو لم تكن كذلك، لاستطاع رجال المباحث الوصول إلى نتيجة حتى الآن».

ولكن ماذا نملك من دلائل؟ أشعار كارو ويوميّاتها؛ والمنديل الأسود، والزهرة المجفّفة وبعض أوراقها، ووصف آنيتا للرجل الذي شاهدته مع كارو. كلّها أشياء واهية ومبهمة.

twitter @baghdad_library

«شعورٌ غريب ينتابني ولا أعرف السبب. إنّي أشعر بالخوف». قالت ميرلي وشفتاها ترتجفان وتتلوّكان.

«الخوف؟ من ماذا؟»

«لا أعرف بالتحديد؛ ولكنّه شعورٌ مبهم بالرّعب. ألا ينتابك ذلك الشعور مثلي؟»

«بل أشعر بالتعب الشديد. ومن الطبيعي أن يصبح المرء عرضة للهواجس عندما يكون مرهقاً. سأذهب للنّوم حالاً».

«فكرة جيّدة». قامت ميرلي وجمعت الفناجين ووضعتها في حوض الجلي. وقالت: «ستبدو الأمور أفضل في الصباح». غالباً ما ردّدت جدّتي هذا القول أمامي، ولكنّي لم أكن أدرك أنّ ميرلي تفكّر بالطريقة ذاتها.

ثمّ دخلت إلى غرفتي، وما أن ارتميت على سريري، حتّى غرقت في نومٍ عميق.

سمعت طقطقة خفيفة بضع مرّاتٍ في اللّيل، وتوقّعت أنّها صادرة عن القطّتين. تقلّبت في سريري، وفكّرت أنّه بات علينا التعوّد على أنّنا أصبحنا أربعة في الشقّة.

* * *

سمع خربشة القطط فأحسّ بالذعر؛ فكّر أوّلاً أنّ إحدى الفتاتين في المطبخ، ولكن ما لبثت القطّتان أن قفزتا فوق حذائه الواحدة بعد الأخرى.

«على الأقل، قطّتان وليس كلبان!» فكّر، ولا يزال مرتعداً.

لا يعرف حقّاً ما الذي حدا به إلى القدوم. كانت كارو قد أعطته

مفتاحاً للشقّة وأصرّت لكي يأخذه، قائلةً: «للحالات الطارئة فحسب»، لم يفهم ماذا قصدت بقولها؛ ولكنّه أخذ المفتاح.

وها قد عاد إلى هنا مجدّداً.

وقف في المطبخ يتأمّل حوله، كما فعل في المرّة الأولى، وكانت قناديل الشارع ترسل شعاعاً شاحباً، إنّما كافياً لاستكشاف جوانب المكان.

لماذا جاء إلى هنا؟ هذا ضربٌ من الجنون!

ومن غير أن يصدر أيّ صوت، قطع الممرّ ودخل إلى غرفة كارو.

ما زال كلّ شيءٍ في الغرفة على حاله.

جلس على السرير ومرّ بيده فوق الأغطية.

لعلّه جاء أخيراً ليقول وداعاً إلى كارو.

ولكنّه لم يختبر مرارة الوداع من قبل أبداً، كما اختبرها في تلك اللحظات.

twitter @baghdad_library

(16)

للمرّة الثانية عاد النجار من غير أن تسمح له الفتاتان بتغيير القفل. «لا حاجة لنا بتغيير القفل. لا بدّ أنّك مخطئٌ بالعنوان». من ناحيته، لا يجد في الأمر أيّ مشكلة طالما السيّدة ثالهايم ستحاسبه لقاء وقته الضائع.

كادت إيمكي أن تفقد عقلها. فإمّا أن تكون الفتاتان في منتهى الحماقة، أو تقصدان إغراء المجرم في العودة إلى الشقة. هل تريدانه حقّاً أن يدخل إلى الشقّة؟

لم تُطِق إيمكي المكوث في داخل البيت؛ إنّها بحاجةٍ إلى الخروج، أو إلى القيام بنشاط جسدي لكي لا تُجنّ.

وقفت في الحديقة تنظر حولها ولا تعلم من أين تبدأ. ثمّ رجعت أدراجها إلى البيت. كلّ ما حولها يبدو غير نظيف وغير مرتّب حتّى الحديقة. لقد مضى على غياب مدبّرة المنزل أكثر من أسبوعين، وفقد كلّ ما في البيت لمعانه. دخلت إلى المطبخ، وجمعت الصّحون التي استعملتها خلال وجبة الفطور ووضعتها في الجلاية. ثمّ مسحت الطاولة، ووضعت غطاءها مع بقيّة الغسيل المتّسخ في الغسّالة. وتنبّهت إلى نفسها بعد قليل أنّها كانت تتحرّك من غير وعيٍ تامّ لما كانت تقوم به.

وعندما رنّ جرس الهاتف، تسلّقت الدرج بسرعة من الطابق السفلي والتقطت السماعة لاهثةً. كان المتّصل بيرت ملزيغ.

«أودّ أن أخبرك حول زيارتي لجنّا وميرلي. لم أتمكّن من إقناعهما بالتراجع. ولكنّي حذّرتهما من التسرّع والاستخفاف بالقضيّة، وتركت لهما بطاقتي. هذا كلّ ما استطعت إنجازه».

«لقد بذلت جهدك، وأشكرك على ذلك». ثمّ أخبرته عمّا حدث مع النجّار، فأصغى إليها.

فشعرت بالراحة بعد أن تكلّمت إليه: إنّه يتقن فنّ الإصغاء. وأحسّت كأنّ الأمور باتت على ما يرام أو عادت إلى طبيعتها.

ولكن ليست الأمور في الحقيقة على ما يرام. ولا شيء سيعود إلى سابق عهده؛ لأنّ لا شيء يمكنه أن يعيد كارو والفتيات الأخريات إلى الحياة.

* * *

وأخيراً خرجت من المبنى، وبمفردها هذه المرّة، لكنّه انتظر إلى أن قطعت مسافة قصيرة حتّى نزل من سيارته، وتبعها. بات يميل إلى مراقبة هذه الفتاة في كل لحظة فراغ لديه، فكأنّ الأمر يتحوّل إلى نوعٍ من الهوس.

ما حدث مساء البارحة كان بكلّ بساطة مسلّياً. ولكن عليه أن يتعرّف أكثر على جنّا، وبعد ذلك يمكنه اتخاذ القرار حول ما سيفعله. لا بدّ من الانتظار قبل اتخاذ القرارات؛ وسوف ينتظر بصبر لكي تتوضّح أمامه معالم القرار الصحيح.

إنّها تسير بخطوات سريعة وخفيفة كأنّها عارضة أزياء، وشعرها

twitter @baghdad_library

يتأرجح وراءها. ها هي طريقتها في المشي، ولكن كيف هي رائحتها؛ وهل تضع عطراً؟

لقد خرجت من أجل النزهة كما يبدو؛ وهي تتوقّف لتنظر إلى البضائع المعروضة في نوافذ المحلّات، الأمر الذي يجعل تعقّبها صعباً. شعر بنفسه كأنّه رجل تحرٍّ في فيلمٍ أميركي، إلاّ أنّه بعيد عن اتقان هذا العمل كلّ البعد.

عندما وصلت جنّا إلى مركز المدينة القديم، دخلت إلى إحدى المكتبات؛ أما هو فبقي في الخارج متظاهراً بالنظر إلى الكتب المعروضة في النافذة. كان هناك كتبٌ كثيرة عن السفر؛ ففكّر أنّه موسم العطلة الصيفيّة والسفر؛ كلّ شيءٍ محكوم بالمواسم، حتّى الكتب!

باستطاعته أن يرى جنّا في الداخل. إنّها تنظر إلى الكتب؛ تأخذ كتاباً وتتصفحه، ثمّ تعيده إلى مكانه وتأخذ آخر. ولكنّها فتحت أحد الكتب وراحت تقرأ.

نظر حوله وشعر بالحرج. لا يمكنه أن يبقى واقفاً أمام تلك النافذة وقتاً طويلاً. فقرّر الدخول.

كانت جنّا واقفة في القسم المخصّص للكتب التي تتكلّم عن الحيوانات وكان بيدها دليلاً عن القطط. فتذكّر كيف فوجئ بالقطط الليلة الفائتة في الشقّة، ومقدار الذعر الذي أصابه.

تنبّه ناثانيال إلى أنّه بات يميل إلى جنّا وخاف من خطورة ذلك الأمر.

وفكّر في مغادرة المكتبة في الحال ولكنّه لم يفعل. وعرف السبب.

* * *

كانت ميرلي في مطعم كلوديو. إنّها تلبّي نداءه في أيّ وقت مع أنّها لا تأمن أن يبقى مخلصاً لها؛ فقد يتركها فجأةً ويعود إلى خطيبته.

خطيبته! قد تكون هذه الخطيبة مجرّد كذبة اخترعها كلوديو لكي يضع حدّاً لعلاقته بميرلي ساعة يشاء.

خرجت من الشقّة لأروّح قليلاً عن نفسي؛ فالسير على الأقدام، واستكشاف ما تعرضه محلاّت الأزياء والمكتبات من جديد يساعدني عادةً على تهدئة مزاجي. ولكنّي انطلقت من الشقّة قبل وقت الاغلاق بساعة تقريباً، ومن حسن حظّي كانت المكتبة لا تزال مفتوحة.

تصفحت بعض الكتب، واستوقفني كتابٌ عن القطط، فاسترسلت في القراءة. ولكنّي شعرت وكأنّ هناك عيناً تراقبني، فرفعت رأسي ونظرت إلى عمق المكان، فإذا برجلٍ ينظر إليّ من بعيد وما لبث أن أشاح عينيه عنّي بسرعة. تذكّرت وجهه. إنّه الرجل الذي تكلّمنا إليه البارحة في الحانة.

أبقيتُ الكتاب في يدي وتوجّهت إلى الصندوق لكي أدفع ثمنه.

«ثماني عشرة يورو ونصف». قالت الموظّفة.

فتحت حقيبتي فتنبّهت إلى أنّي نسيت محفظتي في البيت.

شعرت بالإحراج الشديد، وخصوصاً أنّ خطّاً طويلاً من الزبائن كان يقف ورائي وينتظر وصوله إلى الصندوق بفارغ الصبر.

«أعتذر. لقد نسيت محفظتي في البيت».

«لا يمكنني أن أفعل شيئاً الآن، فقد تسجّلت عمليّة البيع في الصندوق».

شعرت بالارتباك والخجل، ووصلت إلى أذني بعض الغمغمات من خلفي. ففكّرت «ماذا عساي أن أفعل؟»

twitter @baghdad_library

فإذا بصوت لطيف يقول: «كم تحتاجين؟»

التفتّ إلى الوراء ونظرت إلى عينيه للمرّة الثانية، أو الثالثة بالأحرى؛ لأنّي تأكّدت في تلك اللحظة أنّه الرجل نفسه ذو البشرة البرونزية الذي قابلناه الليلة الفائتة في الحانة، وكان يجلس إلى الطاولة بمفرده.

«ثماني عشرة يورو ونصف». قالت موظفّة الصندوق حالاً

تمنيت في تلك اللحظة لو كان تحت قدميّ حفرة لأختفي فيها مثل الفأرة.

وضع الرجل الدراهم على الطاولة ولم ينطق بكلمة. أخذت كتابي ثمّ دفع ثمن الكتاب الذي اختاره، وتسلّمه من الموظّفة في كيس؛ والتفت إليّ وهو يبتسم.

وعوضاً عن أن أشكره بحرارة تعبّر عن التقدير، لفظت كلمة «شكراً» بفتور.

«متى يمكنني إعادة الدراهم إليك؟» قلت.

«أرجو أن تعتبريه هديّة».

ساهمت بشرته السمراء في إظهار لمعان عينيه الزرقاوين. وأسنانه البيضاء اللامعة ذكّرتني بأسنان الممثّل الشابّ ترينس هيل؛ إلاّ أنّ هذا الأخير أشقر والشاب الذي أمامي ذو شعرٍ غامق ويبدو أكثر التصاقاً بالطبيعة وأكثر جاذبية.

«وما الذي يدفعك إلى تقديم مثل هذه الهديّة الغالية لي؟»

«ربّما السبب هو إعجابي بك؛ أو لأنّي لم أتمكّن من مساعدتك وصديقتك البارحة. هاكِ جوابان، اختاري الذي يعجبك».

«أوه، كلاّ. لا يمكنني الموافقة».

«بلى، يمكنك». وابتسم، وبعد أن أدار ظهره ليغادر، عاد ونظر نحوي ليقول: «ما رأيك بفنجان من القهوة؟»

لم أجب، بل مشيت إلى جانبه، ورحنا نفتّش عن المكان المناسب.

* * *

حاولت إيمكي مراراً الاتصال بالفتاتين على هاتف البيت أوّلاً، ولم تلقَ جواباً. ثمّ كرّرت المحاولة على الهاتف الجوّال لكليهما، ولكنّ الجواب كالمعتاد: «الهاتف الذي تحاول الاتصال به مغلق. كرّر المحاولة لاحقاً». كم من مرّة طلبت من الفتاتين أن تبقيا جوّاليهما مفتوحين؛ أو على الأقل، أن تشتريا آلة تسجيل خاصّة لتسجيل رسائل المتّصلين خلال غيابهما عن الشقّة.

«ولماذا نحتاج إلى آلة تسجيل يا ماما؟»

«لماذا؟ لكي يتمكّن الناس من التواصل معكم».

«وبعد ذلك، سنضطّر إلى الاتصال بجميع المتّصلين. لا يا أمّي، لا تسمح ميزانيتنا بجميع هذه المصاريف».

«وكأنّ المال هو المشكلة!»

«ليس مشكلة بالنسبة إليك يا أمّي؛ ولكنّه كذلك بالنسبة لي، وإلى ميرلي بالطبع».

«جنّا وكبرياؤها!» فكّرت إيمكي. إنّها لا تستقبل قرشاً إضافيّاً زيادة على حاجاتها الأساسية. فكم من مرّة حاولت الأمّ إقناع ابنتها بتغيير سيّارتها القديمة، ولكنّ هذه الأخيرة أصرّت على رفض الفكرة.

أعدّت إيمكي فنجاناً من الشاي وصعدت إلى غرفتها لكي تحاول

twitter @baghdad_library

متابعة الكتابة. ليتها اختارت موضوعاً آخر؛ فكلّما جلست لتكتب، تأتي صورة كارو أمام عينيها؛ وتتذكّر النهاية المرعبة التي آلت إليها تلك الفتاة المسكينة.

أمّا رجل المباحث في القصّة، فبات يشبه بيرت ملزيغ. لم تقصد إيمكي ولم تنجح في تفادي حدوثه. ولكنّها ستحاول إجراء بعض التغيير عندما يحين وقت المراجعة.

ولعلّ أكثر ما يشغل بالها هو قدرتها على فهم دوافع المجرم إلى درجة تجعلها تبدو كأنّها متعاطفة معه. عليها أن تجعل مسافة بينها وبين هذا الأخير حتى لا تختلط الأمور على القارئ.

كانت متعبة بسبب العمل المنزلي الذي قامت به على غير عادتها، وغاضبة من عدم توصّلها إلى إقناع الفتاتين بوجوب تغيير قفل الباب؛ بالإضافة إلى قلقها الشديد حول سلامتهما. وفكّرت أنّه لو كان لديها كلب لخرجَت للتنزّه في الحقول بمرافقته. ولكن، وبما أنّ الأمور كانت على ما هي عليه، قامت من مكانها والتقطت غطاء قطنيّاً ولفّته حول أكتافها وتمدّدت على الأريكة التي في المكتب، ونامت.

* * *

كرهت ميرلي عدم الاستقرار الذي يسيطر على علاقتها بكلوديو. إنّه يتعامل معها يوماً كأنّها أميرته؛ ويوماً آخر كأنّها خرقة بالية. أمّا اليوم فهو يتصرّف معها بفوقية، ويؤنّبها لأتفه الأسباب.

أمّا الموظفون الآخرون فتعلّموا عدم التدخل، لأنّهم باتوا يتحمّلون أطباع كلوديو المتقلّبة لمعرفتهم بطيبة قلبه.

أكثر من مرّة، عادت ميرلي إلى البيت وهي تبكي وتُقسم على قطع علاقتها به.

«لا يستحقّ أي رجلٍ البكاء من أجله». كانت تقول لها كارو. هذا بالفعل ما كانت تؤمن به هذه الأخيرة قبل لقائها بصديقها الأخير.

«تحرّكي من مكانك يا فتاة. أنا لا أدفع لك المال لكي تقفي في مكانك من غير عمل».

فكّت ميرلي ربطة المريول الأخضر القبيح، ووضعته في يد كلوديو. وبهدوء، نظرت في عينيه، وقالت بالإيطالية: «وداعاً يا جميل».

ثمّ خرجت من المكان.

«إن خرجتِ من هنا، فلن تعودي». قال منادياً.

لم تجب، وخرجت من غير أن تنظر وراءها. وبكلّ برود، رفعت ذراعها إلى أعلى، ووجّهت نحوه إصبعها الوسطى.

وانغلق الباب وراءها؛ وأصبحت حرّة. ووحيدة.

فانهمرت دموعها.

* * *

كلّ ما عرفه عن قاطفي الفراولة الذين تركوا المزرعة حال وصوله إليها في ذلك اليوم، لا يدلّ أبداً على احتمال تورّطهم بالجرائم التي يحقّق فيها. ولكن، ما الذي يجعل بيرت مصرّاً على استجواب عمّال المزرعة من جديد على الرغم من انعدام الدلائل؟

لا شيء سوى حدسه.

نادراً ما كانت بين يديه قضايا بهذا المستوى من الصعوبة. فبالنسبة إلى قضيّة سيمونا ريدلف، تكمن الصعوبة في ما كانت عليه من ميل إلى العزلة؛ حتّى أنّ رفاق صفّها لم يتعرفّوا إليها جيّداً.

أما الصعوبة في ما يتعلّق بكارو، فهي أنّ أفراد عائلتها لا يعرفون

twitter @baghdad_library

شيئاً عن حياتها. ميرلي وجنّا هما المصدر الوحيد لاستقاء بعض المعلومات عن حياتها وعلاقاتها.

قام عن كرسيّه وفتح النافذة. ولكنّ ضجيج الشارع وحرارة الجوّ بالإضافة إلى الأصوات الداخليّة في المركز من رنين الهاتف إلى صرير الأبواب، وإلى أحاديث بأصوات عالية تارةً، وقهقهة في الممرّ تارةً أخرى؛ كلّ ذلك سرعان ما أرهق أعصابه.

لقد جرى التحقيق بدقّة مع جميع رفاق كارو ومع أفراد عائلتها، ومع أصدقائها القدامى، من غير التوصّل إلى أيّ دلائل مفيدة.

وبات من الضروري جدّاً الآن العثور على عشيقها المجهول.

أغلق بيرت النافذة، وقرّر أن الوقت قد حان للذهاب إلى البيت وإرساء قواعد المصالحة مع مارغو.

فلديه زوجة وأولاد، وحياة تنتظره خارج جدران هذا المكتب!

* * *

مشى إلى جانب جنّا وهو يشعر بغرابة ما يحدث. ولاحظ أنّها ترمقه بنظراتٍ سريعة؛ ففسّر ذلك بأنّها قد لا تزال حائرة حول ضرورة إعادة المال إليه أو قبوله. وأحسّ ببهجة فارقته منذ فراق كارو، وكاد يغنّي من الفرح.

وتذكّر جدّته التي كانت تدندن خلال قيامها ببعض الأعمال. ولكنّ دندناتها لم تكن أغانٍ عاديّة، بل أناشيد قديمة؛ كما لم تكن تعبيراً عن فرحها، بل محاولات لتخفيف العبء الذي كانت تنوء تحته في كلّ يومٍ من حياتها؛ أو هذا في الأقلّ ما كان يراه من منظاره الطفولي. ولكن محاولات جدّته باءت بالفشل على كلّ الأحوال، فكلّ ما كان يتعلّق بها كان ثقيلاً حتى حركتها.

اصطحب ناثانيال جنّا إلى المقهى الكبير في قلب السوق؛ فشدّة الازدحام هناك تشغل الناس عن ملاحظة وجوه بعضهم. ولكنّ الأمر لا يخلو من الخطر؛ إنّه نوعٌ من المقامرة وهو يحبّ المقامرة، حتى بحريّته، وبحياته.

كانت الفتاة تلتزم الصمت، وتبدو مرتاحة في صمتها. في الأقلّ، ليست من الناس الذين يثرثرون طول الوقت.

وعندما نظر إليها بطرف عينيه، امتلأ فرحاً وحماسةً. لقد أعلنت تحدّيها له، ومرحى بالتحدّي! وها أنّ اللعبة بدأت. فأين هي الخطّة؟

سيتمكّن من رسم الخطّة بصورةٍ أسرع لو بقيت بعيدة عن قلبه. ولكن الواقع يشير إلى العكس. وشعر بالاضطراب وقبل أن تلاحظ ارتجافه أدخل يديه في جيبي بنطاله، وشدّ عضل جسمه.

* * *

رأت إيمكي في حلمها أنّها كانت تمشي في قناةٍ طويلة ومظلمة إلاّ من نورٍ شاحب في آخرها، وفي القناة ماء يرتفع حتّى مستوى كاحليها. وأذناها كانتا لا تسمعان سوى صوت تخبّط قدميها ولهاث أنفاسها.

وكانت في الحلم تعلم أنّها في حلم؛ وتشعر بألمٍ شديد في ذراعيها وساقيها وكلّ أجزاء جسدها. وفكّرت: «ماذا عسايَ أن أفعل لأخرج من هذا المكان؟»

كان سروالها ملطّخاً بالوحل، وشعرها مبلّلاً بالعرق. وعندما سعلت، تردّد صدى سعالها في كلّ مكان. وكانت تشعر بخوفٍ مميت لم تدرك سببه. حاولت الاستيقاظ، ولكنّها بقيت مقيّدة طويلاً بذلك الحلم الصّعب.

* * *

twitter @baghdad_library

عادت ميرلي إلى الشقّة علّها تحظى ببعض المواساة من قبل جنّا. ولكنّ جنّا كانت في الخارج. وما إن توجّهت إلى المطبخ، لعلّ فنجاناً من القهوة يهدّئ مزاجها، تبعتها القطّتان بالمواء. إنهما بحاجة إلى الأكل والمداعبة. ملأت ميرلي صحنهما بالحليب وببعض فتات اللحم وراحت تلاطفها وتلامسهما. ما ذنب هاتين القطّتين إن كانت هي تعاني من الإحباط في تلك الساعة.

ثمّ دخلت إلى غرفتها وأدارت التلفاز لتشغل نفسها عن التفكير بكلوديو أو عن الشعور بالحزن لفقدانه.

* * *

أعجبني هدوءه. إنّه يميل مثلي إلى التحفّظ والصّمت. لم يكن جوّ المقهى المزدحم مناسباً تماماً لمزاجي في تلك الساعة، ولكن لحسن الحظّ أنّ رفيقي لم يكن ثرثاراً لكي 'لا يزيد على الطين بلّة'، كما يُقال.

شعرت بالطمأنينة إلى جانبه؛ ذلك النوع من الطمأنينة الذي كنت أشعر به وأنا طفلة عندما كنت أجلس قبالة أمّي في المطبخ؛ أو عندما كان أبي يأخذني في سيّارته للنزهة في الظلام.

وكلانا طلب قهوة بالحليب. وفيما كنت أتسلّى بتحريك الرغوة العائمة على سطح الفنجان، قلت: «الناس الذين يمكنك الجلوس معهم بصمت قليلون هذه الأيّام».

«والناس الذين يمكنكِ الاستمتاع بالتحدّث إليهم أقلّ!» أجاب بابتسامة.

لامست ابتسامته حيّزاً غامضاً في خبايا نفسي؛ ولاحظت خطوطاً

دقيقة ترتسم حول عينيه عندما يضيئها الابتسام، فشعرت برغبةٍ في ملامسة تلك الخطوط بلطفٍ شديد. ولكنّي لم أفعل ذلك طبعاً، بل مزّقت الورقة التي تغلّف قرص البسكويت الذي قدّم لي مع القهوة.

إنّه في الثلاثين تقريباً. ما يعني إنّه يكبرني بسنوات عديدة. لماذا إذاً وافقت على مرافقته والجلوس معه في هذا المكان المملّ؟

«هل توصّلتما إلى نتيجة في ما يتعلّق بالبحث عن صديقتكما؟» سألني.

«كلاّ، مع الأسف».

«هل تودّين التكلّم عن هذا الموضوع؟»

هززت برأسي نفياً. كنت لا أريد التكلّم عن مسألة كارو في تلك الساعة، بل شعرت بميلي إلى الابتعاد قليلاً عن ذلك الحزن الثقيل. أردت الجلوس معه، والنظر إلى وجهه والإصغاء إليه. أو حتّى التمتّع بالتزام الصمت بصحبته.

«ما رأيك بالجلوس في الخارج؟» قلت وأنا أنظر إلى الطاولات البيضاء، والمظلاّت الشمسية الساطعة تحت نور الشمس في الفناء الخارجي للمقهى.

«لا، أعتذر عن ذلك. لقد قضيت نهاري تحت أشعّة الشمس، وأفضّل البقاء في الداخل الآن».

«لا بأس. لعلّه سيخبرني لاحقاً عن سبب تعرّضه الطويل لأشعّة الشمس؛ وقد لا يتطرّق إلى ذلك الحديث البتّة. على كلّ حال، ما يهمّني الآن هو الاستمتاع باللّحظة الحاضرة».

* * *

twitter @baghdad_library

كان يتمنى أن يقضي الوقت كلّه في النظر إليها.

إنّها بداية لمرحلة جديدة.

وحدوثها كان عفويّاً وليس بقصد منه.

فكّر بالانصراف حالاً

ولكنّه تابع النظر إليها، وعرف أنّ مثل هذه الفرصة لن تتكرّر بالنسبة إليه.

(17)

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل عندما وصلت جنّا إلى البيت. أطفأت ميرلي التلفاز للتوّ، ونهضت لملاقاة جنّا والنظر في أمر تحضير شيء معاً من أجل العشاء. إنّها تشعر بجوعٍ شديد، فمعدتها خاوية تماماً مثل رأسها، بعد قضاء ثلاث ساعات في مشاهدة عدد من الحلقات التلفزيونية العقيمة.

كانت جنّا لا تزال واقفة في المدخل، وظهرها إلى الباب. «سلام!» قالت وهي تبتسم بنشوة، وكأنها شربت ثلاث كؤوس من النبيذ. أو كأنّ الوقت كان مناسباً جدّاً للوقوع في الحبّ!

«من هو؟ كيف ومتى وأين؟» سألتها ميرلي وهي تمسك بيدها وتشدّها إلى المطبخ. أخبريني كلّ شيء، أريد أن أعرف كلّ شيء عن الموضوع.

«أنتِ في البيت!؟»

«تخاصمت مع كلوديو».

تمنّت ميرلي أن لا تطرح جنّا مزيداً من الأسئلة عليها. لقد فعلت كلّ ما بوسعها طيلة فترة بعد الظهر لكي لا تفكّر بالأمر. وكانت راضية عن مستوى السيطرة على النفس الذي أنجزته، ولا تريد أن تلفظ أيّ كلمة قد تعيد إليها مشاعر الغبن والأسى التي قرّرت التخلّص

twitter @baghdad_library

منها بسرعة وطيّ صفحة علاقتها بكلوديو إلى الأبد.

«أشعر بجوعٍ شديد، ما رأيك في أن نطلب طعاماً صينيّاً على الهاتف؟»

«لا بأس، ولكنّي مفلِسة، وعاطلة عن العمل».

«لا تأبهي لذلك، سأتكفّل بالأمر».

اتّصلت جنّا بالمطعم الصّيني. وبعد ذلك، جلست تخبر ميرلي القصّة.

* * *

استيقظت إيمكي في منتصف الليل والعتمة كثيفة. ومرّت لحظات قبل أن تستجمع وعيها لتعرف أين هي. وعندما جلست أحسّت كأنّها عاجزة عن الوقوف؛ فتمغّطت وأدخلت قدميها في الحذاء. لقد أمضت كلّ ساعات المساء في النوم.

عندما نزلت إلى الطابق الأوّل لتناول بعض الطعام أحسّت كأنّها امرأة عجوز. وأحسّت بألمٍ في رأسها، وبِمرارةٍ في فمها، وبعينها اليسرى تدمع.

وأزعجتها وحشة الوحدة في عتمة الليل. فجلست أمام التلفاز لتأكل؛ ولتقلّب كالعادة بين المحطّات، وتضجر أخيراً من الابتذال المسيطر على البرامج عامّةً، وتطفئ الجهاز.

ومن غير تردّد، التقطت الهاتف وتكلّمت إلى تايلو.

وردّ هذا الأخير بصوتٍ متأوّه.

«تايلو، هل يمكنك المجيء، ومتابعة النوم هنا؟»

تثاءب بقوّة، فتوقّعت منه عتاباً. ولكنّه قال: «حسناً، سأكون عندك بعد عشرين دقيقة».

وبسرعة، نزلت إلى القبو وأحضرت قنينة من النبيذ الأحمر ووضعت جبناً وخبزاً وبعض الفاكهة على طاولة المطبخ. في ذلك الوقت كانت قد استعادت نشاط اليقظة، وشعرت بحاجتها إلى تايلو، لكي تحدّثه، ويصغي إليها، ويحبّها. من هذا المنطلق، كانت تشعر بنفسها محظوظة. فالمحظوظات وحدهنّ يجدن رجالاً مثل تايلو.

* * *

لا حاجة لي لإغماض عينيّ لاستعادة صورة وجهه. أشعر بالسعادة لمجرّد التحدّث عنه!

«يا إلهي، حالتك تدعو للقلق!»

«على كلّ حال، أنتِ تعرفينه. عندما قابلناه سويّاً في الحانة».

ولكنّ ميرلي لم تتذكّر ملامحه جيّداً، وطلبت منّي أن أصف شكله. كانت تصرّ على معرفة جميع التفاصيل: اسمه، عمره، مهنته، وأين يعيش؟

هززت كتفي وقلت: «لم نتكلّم عن هذه الأمور فهي غير ذات أهميّة».

«عمّا تكلّمتما إذاً؟»

«أخبرني عن طفولته، فقد ترعرع في بيت جدّه. وكان جدّه يلجأ إلى العنف في تربيته. لقد لمست بإصبعي أثر جرحٍ قديم باقٍ على ذقنه. وآثار جروح كثيرة باقية على عنقه وعلى جبينه؛ بعضها غير ظاهر جدّاً لأنّه على مستوى خطّ شعره.

وشعرت أنّه انتفض قليلاً عندما لمست ذقنه، فقرّرت في نفسي عدم إزعاجه أو إيلامه أبداً. وأخبرته عن كارو. تكلّمت عنها أكثر ممّا

twitter @baghdad_library

تكلّمت عن أي أمرٍ آخر. فتأثّر ورأيت دموعاً في عينيه. هل شاهدتِ رجلاً يبكي من قبل، يا ميرلي؟»

هزّت ميرلي برأسها.

فقلت: «مع أنّه رجلٌ بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى».

«وقد تأكّدتِ من رجولته، أليس كذلك؟»

«توقّفي عن مزاحك السمج! ما أردتُ قوله إنّه مثل. أعني أنّه..»

علّقت ميرلي على تلعثمي وضحكت. ثمّ قالت: «هاكِ نستعيد أوصافه: اسمه نات، في الثلاثين أو أقلّ، عاش طفولة قاسية، وهو رجل بكلّ معنى الكلام ولكنّه لا يخجل من البكاء. واستطاع أن يسحرك بأقلّ من ثلاث ساعات. أليس كذلك؟»

«من يسمعك يخالك تتحدثين عن قصص الغرام التلفزيونيّة». قلت.

فأجابت: «لأنّ قصص الحبّ تشبه منظر غياب الشمس الجميل. تعرفين أنّه زائل، ولكنّه يسحرك في جميع الأحوال». ثمّ انفجرت بالبكاء.

لحسن الحظّ أنّ كلوديو كان قد أصبح بالنسبة إليها جزءاً من الماضي؛ ولكنّي أعطيتها فوطة من الورق لكي تمسح بها دموعها، وأعددت نفسي لليلة طويلة كالعادة.

* * *

الجو حارّ وضوء القمر يسطع إلى داخل الغرفة. لم يتمكّن ناثانيال من النوم فسطح الغرفة قد خزّن حرارة الأيّام الأخيرة، والنافذة

المفتوحة دعوة صريحة إلى جميع أنواع وأحجام البعوض والبرغش للدخول إلى الغرفة.

ما زال صوت جنّا يتردّد في رأسه. صوتها عميق ورقيق، يا له من صوتٍ جميل!

عندما كلّمته عن كارو، ظلّ مركّزاً على ملامحها ومراقباً طريقتها بالكلام والحركة ليشغل نفسه عن الانفجار بالبكاء. هناك شامة صغيرة على صدغها من الجهة اليمنى، ونقرة جميلة في ذقنها؛ ومن فوق جبينها تتدلّى خصلة شعرٍ بشكلٍ لولبي إلى أسفل خدّها.

ملامح جنّا ليست غاية في الجمال؛ ولكنّها فتاة جميلة. لديها جمال خاص بها، ومعظم النساء العظيمات في العالم يتمتّعن بمثله.

يأسرك هذا النوع من الجمال الحقيقي من النظرة الأولى؛ ثمّ يبقى معك ولا يفارق ذاكرتك.

كم كان صعباً عليه منع يده من الامتداد نحوها للمس خدّها وعنقها وأذنيها.

وفكّر أنّه من الأفضل التروّي. فالوقت أمامه.

لقد أخبرها حقائق، وأخبرها أيضاً أكاذيب، ولم يجد مفرّاً من ذلك. سيأتي يومٌ يتمكّن فيه من مصارحتها بكلّ شيء؛ وسوف تتفهّم ظروفه ولن تنفر منه.

هو قاتل صديقتها!

وأحسّ بقشعريرة برد تجتاح جسده فجأةً. فتكوّم حول نفسه، وشدّ الغطاء فوقه.

قال لها إنّه يُدعى 'نات'، وعليه ألا ينسى ذلك. على كلّ حال، 'نات' هو الاختصار لاسم ناثانيال.

twitter @baghdad_library

ولكن عليه أن يكون متنبّهاً وألا يقترف أيّ هفوة.
فقد خُلقت تلك الفتاة لتكون حبيبة عمره.

* * *

عندما غادر تايلو البيت في الصباح، اتصلت إيمكي بالفتاتين واقترحت تناول طعام الفطور معهما في الشقّة فيما كانت جنّا لا تزال نائمة. ولكنّ إيمكي اتّصلت في ذلك الوقت المبكر خوفاً من أن يتعذّر عليها كما في كلّ يوم الاتصال بهما في وقتٍ لاحق.

فرحت الفتاتان بزيارة إيمكي وبالمعجّنات الطازجة التي جلبتها معها؛ ولكنّهما لم تتكلّما أمامها عن سير خطّتهما ولا عن مدى نجاحها أو فشلها.

أمّا إيمكي فقد لاحظت أن ابنتها تطير في سحابة من الفرح، وتوقّعت أن تكون جنّا قد دخلت في علاقة حبّ جديدة.

«هل هو المصوّر الشاب؟»

أخبرت جنّا والدتها أنّها في صدد التعرّف إلى رجلٍ جديد وهو أكبر منها بعشر سنواتٍ تقريباً. ولا تعرف الكثير عنه بعد، ولكنّ علاقتهما تبدو واعدة ومفتوحة على جميع الاحتمالات.

لم تتقبّل إيمكي أن يكون صديق ابنتها الجديد ليس مراهقاً مثلها، بل رجلاً ناضجاً. ولكنّها تعلم مدى صعوبة إقناع ابنتها بالرّجوع عن أمرٍ معيّن اختارته لنفسها.

«ولكن»، قالت إيمكي بعدما نهضت لتغادر. «. عليك التريّث، وعدم الوثوق بالناس بطريقةٍ عمياء خصوصاً في هذه الأيّام. هل تعدينني بذلك؟»

هزّت جنّا رأسها. ولم تكن تعني بهزّة رأسها شيئاً معيّناً. أمّا

الابتسامة التي ارتسمت على وجهها، فكانت الإشارة إلى أمرٍ واحد وهو أنّها قد وقعت في حبّ ذلك الرجل، ولا شيء سيثنيها عن متابعة علاقتها به.

* * *

«لقد وقعت في حبّ جديد يا أمّي!»

«أين أنت يا بنيّ؟ أين أنت يا ناثانيال؟»

إنّها لا تصغي إلى ما أقوله.

«هل سمعتِ ما قلته يا أمّي؟»

وباشرت أمّه بالبكاء كعادتها.

«هل تصغين إليّ يا أمّي؟»

ولكنّها لم تصغِ إليه مرّةً في حياته، ليتوقّع منها تجاوباً مختلفاً هذه المرّة. على كلّ حال، ماذا سيفيده إصغاؤها؟

«لقد قلتَ لي ذلك مرّات عديدة يا ناثانيال».

لم يعد قادراً على تحمّل شكواها ولومها؛ ويتساءل كيف تتجرّأ على انتقاده؟

«ناثانيال! أرجوك، لا تقفل الخطّ!»

أقفل ناثانيال الخطّ للتّو وأعاد البطاقة إلى محفظته. وفكّر في اقتناء هاتف خليوي عندما لاحظ وجود فتاة تنتظر دورها في الخارج، وتوقّع أن تكون قد تنصّتت إلى كلامه مع أمّه.

بعد خروجه من غرفة الهاتف، حاول استعادة شكله الهادئ حتى لا يلاحظ المارّة انفعالاته. في كلّ مرّة يتكلّم مع أمّه يشعر بغيظٍ شديد. ماذا لو يضع حدّاً لهذا، ويقطع علاقته بها وبماضيه إلى الأبد؟

تابع سيره. لم يكن قد زار تلك القرية سابقاً، وكلّ ما رآه في

twitter @baghdad_library

أزقّتها من أناس ومنازل كان جديداً بالنسبة إليه، فشعر بالأمان.

وفكّر بكارو. وفوجئ بأنّه لم يشعر بالألم كما في كلّ مرّة. ها أنّ ذكرى كارو، على الرّغم من أنّه أحبّها، تتراجع عن ذهنه الواعي تدريجيّاً لتقبع بعد حين، مثل غيرها، في زوايا نفسه المظلمة.

القرية جميلة؛ وأجواء الصيف أضفت على أمكنتها وسكّانها دفئاً وفرحاً. لكنّ طول السير بدأ يؤلم قدميه، فقرّر الاستراحة في أحد المقاهي ليشرب القهوة ويستمتع بذلك النهار الذي لم يعمل خلاله سوى في الفترة الصباحية.

شعر بالاسترخاء؛ وراح يراقب المارّة من خلال نظّاراته الشمسية فرأى عدداً من الشابات الجميلات ولكنّه لم يشعر برغبة التعرّف إلى أيٍّ منهن.

ورأى المستقبل أمامه هادئاً وواعداً كما كان يحلم به. مستقبله مع جنّا، أجمل الفتيات!

* * *

أطعمت ميرلي الهرّتين، واستعدّت للذهاب إلى اجتماع أعضاء جمعيّة الرّفق بالحيوان. أما جنّا فقد انطلقت لملاقاة ذلك الرجل. إنّه اليوم الثالث على التوالي الذي تخرج فيه مع صديقها، لتعود إلى الشقّة في وقتٍ متأخّر بعد أن تذهب ميرلي إلى النوم.

ولكن كيف ستتابع الفتاتان البحث عن قاتل كارو إن استمرّت جنّا كذلك؟ إنّهما لا تلتقيان سوى قليل عند منتصف النهار. طرحت ميرلي هذا السؤال على جنّا ولم تلقَ منها جواباً واضحاً، فقرّرت أن تتركها تنعم في سعادتها ولن تفكّر بإزعاجها.

ولكن، ألا ترى جنّا أنّها تتصرّف كما فعلت كارو سابقاً؟ هل

نسيت ما جرى لكارو، أم إنّها تنظر إلى علاقتها الحاضرة من منظارٍ آخر. أوصدت ميرلي باب الشقّة وراءها، وشعرت بميلٍ مفاجئ إلى البكاء.

* * *

هل الشرطة نائمة؟

اختارت الجريدة هذا العنوان وأصابت الهدف في جعل رئيس قسم المباحث يفور غضباً وينفث براكينه على كلّ مَن كان حاضراً في الاجتماع الصّباحي في المركز.

هدر بصوته ولوّح بذراعيه وتصبّب عرقاً، وتحوّل لون بشرته من القرمزي إلى البنفسجي. وعندما انتهى من نفث لهيبه، ترك الغرفة كما الريح العاصفة في كلّ اتجاه.

لم يتأثّر بيرت بهذه المسرحيّة؛ فقد شاهدها مراراً من قبل، وقد تكون المحرّض المهني التقليدي لإعادة دفع عجلة العمل بالقوّة المطلوبة. على الرئيس إشعال نار الدّفع لكي يتحرّك الجميع بسرعةٍ أكبر.

أمّا بالنسبة إليه، فالحاجة باتت ملحّة للعودة إلى مزرعة آرنو كالمر. وقد حان الوقت أيضاً لاستجواب النساء بعد أن ركّز انتباهه في المرّات السابقة على الرجال.

ومع افتقاره حتى تلك الساعة لأيّ دليل حقيقي، يشعر أنّه يسير في الطريق الصحيح. وبما أنّ تطلّعات الرئيس لا تأبه للمشاعر، فقد بات على بيرت أن يجني بعض النتائج الملموسة.

كان بيرت قد أمضى ليلةً أخرى في قراءة دقيقة لأشعار كارو، واستشاط غضباً من إمكانيّته الأدبيّة المحدودة. كيف تتمكّن فتاة في

twitter @baghdad_library

عمر المراهقة أن تكتب معانٍ رمزية يعصى عليه فهمها؟ رسمت كارو في كلّ مقطعٍ شعريّ لغزاً يكشف حلّه عن حقيقة معيّنة؛ ولكن كيف السبيل إلى فكّ هذه الألغاز؟

يجري التحقيق في الجرائم عادةً وفق أساليب روتينيّة معيّنة؛ ولكن كلّ ما قام به فريق المباحث المتمرّس لم يجنِ أيّ ثمارٍ حتى الساعة. حتى المعلومات الوفيرة التي حصل عليها القسم المختصّ عبر الاتصالات الهاتفيّة، فهي أيضاً لم تتضمّن أيّ معلومة مفيدة. وقيام البوليس بطبع عشرات النسخ من صورة كارو، وطرح الأسئلة على سكّان المنطقة حول معلوماتهم عن صاحبة الصورة، فهذا أيضاً لم يُجْدِ نفعاً.

قد يكون هذا المجرم حادّ الذكاء، أو كبير الحظّ!

«ولكنّه . . » فكّر بيرت وهو يقود سيّارته في اتجاه المزرعة، « . لا بدّ من أن يقترف كغيره هفوةً ما، ويقع في يدي».

* * *

أكثر ما كان يهوى القيام به عندما نكون معاً، هو اصطحابي في نزهاتٍ طويلة بالسيّارة إلى مناطق ريفيّة يحبّها. لاحظت أنّه يتحسّس بعمق جمال الأمكنة وتنوّع البشر؛ ولكنّه يفضّل البقاء على مسافةٍ بعيدة من الناس.

كنّا نقطع الطّرقات ونراقب سير الحياة في القرى من بعيد؛ كأنّنا في رحلةٍ سياحيّة. وأخبرني مطوّلاً عن ماضيه، فأصبحت قادرة على استعراض طفولته أمام عينيّ كأنّها فيلم سينمائي.

أعجبت بميله إلى الانعتاق من القيود الاجتماعيّة. وتوقّعت منه ألا يمتهن عملاً تقليديّاً مستقرّاً.

ثمّ سحرتني فكرة عمله الذي لا يقيّده بمكانٍ محدود، ولا بمدّة معيّنة. كم حياتي مملّة بالنسبة إلى حياته! أنا مثال الفتاة المطيعة؛ أسير في حياتي بحسب الخطّة التي رسمها لي والديّ منذ طفولتي.

وعرفت أنّه أحد قاطفي الفراولة الذين أراهم من بعيد عندما أذهب لزيارة أمّي. وكان يعرف منزلنا، وسبق أن مرّ بقربه وأعجب بجماله خلال النزهات التي يقوم بها سيراً على الأقدام. حتّى إنّه كان قد قرأ إحدى الرّوايات التي كتبتها أمّي. كان يكلّمني عن كلّ ذلك بصوتٍ هادئ وعميق. وكلّما امتدّت يده لتلمس يدي، تتلاحق أنفاسي ويوشك قلبي على الهروب من قفصه.

أخبرته عن أمّي وعن أبي، وعن جدّتي، وعن تايلو وميرلي. حتى إنّي أخبرته عن آنجي وعن أخي الصغير. وفكّرت: «كيف لرجلٍ مثله أن يهتمّ بفتاةٍ عاديّة مثلي؟»

أخذ يدي وراح يقبّل كلّ إصبعٍ من أصابعي؛ فغمرتني موجات متتالية من الحرارة والبرودة؛ فمددت يدي الأخرى وأدخلتها في شعره.

«شش» قال لي في أذني. وكأنّه أبٌ يهدّئ طفلته. «لا حاجة إلى السرعة. الحياة كلّها أمامنا».

«الحياة كلّها معه. . » فكّرت في نفسي: «إنّه حلمي!»

* * *

ليس غريباً أن تفتر حماسة الصّحبة بين فتاتين عندما تدخل إحداهنّ في علاقة حبٍّ مع شابّ. لم تتمكّن ميرلي من تقبّل هذا الأمر، واستبعدت حدوثه مع كارو وجنّا ومعها.

حاولت ميرلي أن تتكلّم عن الموضوع مع جنّا ولكنّ هذه الأخيرة

twitter @baghdad_library

لم تفهم قصدها، وبادرت إلى الاتهام القاسي: «أراكِ، ميرلي، تحسدينني على سعادتي».

لم تتحمّل ميرلي سماع ذلك. «هل فقدتِ عقلك؟ هل تظنّين حقّاً أنّي أحسدك؟» وضربت بيدها صحن الفاكهة فوقع أرضاً وانكسر، وتدحرج التفاح منه في جميع الاتجاهات.

خرجت ميرلي من الشقّة غاضبة، وراحت تدور في الشوارع على غير هدىً، حتّى وجدت نفسها فجأةً أمام مطعم كلوديو. وقفت حائرة في ما تفعله، وقبل أن تتمكّن من اتخاذ القرار، رآها كلوديو وخرج لملاقاتها بحماسة.

أظهر كلوديو ندمه وأحاطها بذراعيه وقبّلها. ورأت ميرلي دموعه وهو يقسم لها بالمحافظة على حبّها إلى الأبد.

ثمّ دعاها إلى داخل المطعم، ودعاها إلى تناول الطعام معه على ضوء الشموع للاحتفال بالمصالحة.

«والآن يا حبيبتي الصغيرة، ماذا حدث؟»

في البداية، لم تكن راغبة في الكلام، ولكنّها عادت وأخبرت كلوديو عمّا حدث، فقد شعرت بحاجة إلى إخراج مشاعر الغضب والخيبة من صدرها.

أدار كلوديو عينيه، وقال: «لا تلومي جنّا على تصرّفها غير العقلاني. فهي تحبّه».

وتذكّرت ميرلي نفسها وتصرّفها غير العقلاني هي أيضاً. فكم من مرّةٍ حاولت قطع علاقتها بهذا الشيطان كلوديو ولم تنجح؟

لاحظت شعور الفرح في عينيه وتذكّرت مشاجرتهما الأخيرة،

فأكّدت لنفسها أنّها تحبّه على الرّغم من طبعه المتمرّد، أو ربّما بسببه. في تلك اللحظة، أحسّت بأن عتبها على جنّا قد تلاشى.

«هل ستبقين حتّى المساء؟» سألها كلوديو.

هزّت ميرلي رأسها. وتصوّرت نفسها ترتدي ذلك المريول الأخضر القبيح مرّةً ثانية. وفكّرت أنّها ستبقى في المطعم بقدر ما يريد بغضّ النظر عن معرفتها بعدم صوابيّة ذلك، ولكن بطريقةٍ ما، بدا لها الأمر مقبولاً

* * *

ها قد كشف أمام جنّا عن هويّته. فعل ذلك تأكيداً على ثقته بها، ولكنّها لا تعلم ذلك. لو تكلّمت جنّا عنه سيصبح معرّضاً للخطر؛ فضابط المباحث ليس رجلاً غبيّاً.

لا يمكنه أن يطلب من جنّا التكتّم على علاقتهما كما طلب من كارو. لقد احترمت هذه الأخيرة وعدها له بالصّمت. إذ لو كانت قد تكلّمت عنه أمام أحد الناس، أو أمام إحدى صديقتيها، لقامت جنّا بربط الخيوط ببعضها وبكشف حقيقته.

ولكن، سيأتي اليوم الذي سيخبر فيه جنّا عن كلّ أسراره. ولكنّه لن يفعل ذلك قبل أن يحين الوقت لابتكار اسمٍ جديدٍ لنفسه.

تُرى هل ستقف جنّا بجانبه؟

أقفل باب الغرفة على نفسه، وأخرج العلبة التي يحتفظ فيها بأشيائه الخاصّة جدّاً. وبحذرٍ شديد، فتح الغطاء.

كان قد ربط كلّ خصلة من خصلات الشعر بشريطٍ ذهبي. أخذها بلطف من العلبة ووضعها في كيس بلاستيكي.

لم يجمع القلادات لأنّه يعاني من شذوذٍ نفسي، بل احتفظ بها

twitter @baghdad_library

كتذكارات عزيزة. كما أنّه لم يقصد اختيار ضحاياه من بين الفتيات اللّواتي يرتدين القلادات، ولكن حدث ذلك بمحض الصدفة. ولحسن حظّه، ساهمت مسألة القلادات هذه في تضليل المباحث.

ونظر إلى القلادات للمرّة الأخيرة. لقد قرّر التخلّص من جميعها ومن خصلات الشعر أيضاً. فوجود هذه الأشياء يشكّل دليلاً قاطعاً ضدّه. فلمَ يعرّض نفسه إلى هذه الدرجة العالية من الخطر؟

ولكنّه يرفض فكرة إتلافها. سيكتفي بدفنها في منطقة ريفيّة بعيدة حيث لا يراه أحد، وحيث لا يعرفه أحد.

غادر الغرفة بعد أن وضع الكيس البلاستيكي في جيب سترته. سوف يقود سيّارته ويذهب إلى ذلك المكان البعيد. سيدفن الماضي إلى الأبد، ويصبح حرّاً. أخيراً، سوف يصبح حرّاً.

* * *

من بين الأمور التي غالباً ما استوقفت بيرت ملزيغ في حياته المهنيّة تفاوت درجات الملاحظة بين الناس. فبعضهم لا يرى شيئاً خارج عالمه الخاصّ، وآخرون يلتقطون كل تفاصيل الأمور التي تحدث حولهم. بعضهم ينسى ملاحظاته بسرعة، وآخرون يختزنونها لفترةٍ طويلة. ومن غير هؤلاء الذين يختزنون معلوماتهم، لا يمكن لرجال المباحث إنجاز مهمّاتهم.

والنساء، كما اكتشف بيرت، يتنبّهن إلى دقائق الأمور أكثر من الرجال. مع العلم أنّ المشكلة لديهنّ تكمن في طريقة السّرد. فتراهنّ يسترسلن في وصف التفاصيل الجانبيّة ويهملن جوهر الموضوع.

تتّهم مارغو زوجها بأنّ ملاحظته الأخيرة لا تخلو من التعنّت الذكوري، ولكنّها ترفض الاستماع إليه كلّما حاول توضيح الصورة.

وهو لا يرى أين يكمن الخطأ في قوله أنّ النساء أشدّ ملاحظة من الرجال!

وتعلو نبرة صوت مارغو، وتضيف: «لأنّك لا تصغي! لا يهمّك من أقوال الناس سوى ما يتصل بأخبار القتل والجرائم».

دعا صاحب المزرعة بيرت لإجراء المقابلات في مكتبه. وبدأت النساء العاملات تدخلن إلى المكتب، الواحدة بعد الأخرى. كنّ يلبسن ثياباً صيفيّة متشابهة. منهن من فرحت بتلك الاستراحة القصيرة، وأخريات كنّ يستعجلن انتهاء المقابلة والعودة إلى متابعة العمل. فالحساب في نهاية الأسبوع يقوم على كميّة العمل المنجز، وليس على عدد الساعات.

يرى بيرت أنّه من الأفضل القيام بعمليّة استجواب الأشخاص في أماكنهم المعتادة؛ على عكس ما يعتمده بعض زملائه، وهو استحضارهم إلى مكتب الشرطة، حيث يمكن للضغوط عليهم أن تلاقي نتائجها بشكلٍ أسرع.

كان بيرت يطرح سؤاله ثمّ يصغي إلى الإجابة؛ وكان يركّز اهتمامه على العاملات اللواتي أتين إلى المزرعة قبل حلول موسم الفراولة. أما السبب فهو أنّ جريمة قتل سيمونا ريدلف حدثت قبل بداية شهر حزيران.

وفي نيسان، وبحسب قائمة كالمر، لم يكن في المزرعة سوى أحد عشر عاملاً من الرجال، وعشرة من النساء.

لم يجد بيرت في أقوال العمّال الرجال الذين استجوبهم سابقاً ما يستدعي المتابعة.

أمّا الأسئلة التي باشر في طرحها هذه المرّة فكانت أكثر

twitter @baghdad_library

خصوصيّة: «هل أنتِ على علاقة طيّبة مع بقيّة العمّال؟»، «هل هناك من تنفرين منه؟»، «هل تلاحظين وجود توتّر بين بعض الأشخاص؟»، «هل هناك أمور في المزرعة قد تبدو بالنسبة إليك غريبة أو شاذّة؟».

لم يطرح مثل هذه الأسئلة في المرّة السابقة، فقد تحاشى الذهاب إلى حدّ الغوص في أمور العمّال الشخصيّة. ولكن بات عليه أن يفعل ذلك، وأن يثق في حدسه أكثر. وها أنّ حدسه يتلاقى مجدّداً مع الاعتقادات السائدة ويؤكّدها:

«أسرعوا إلى رفع الثياب عن حبل الغسيل، فقد وصل لاعبو السيرك إلى القرية!»

مالي كلستوف، وناثانيال تابان. ردّدت النساء هذين الاسمين مراراً. واصفةً الأوّل أنّه غريب الأطباع، والثاني، أنّه لطيف إلى درجة مزعجة في بعض الأحيان.

والرجلان ليسا صديقين حقيقيّين بالتأكيد، كما قالت النسوة مراراً، ولكنّهما غالباً ما يترافقان إلى الحانات لشرب البيرة، أو يذهبان إلى السينما معاً.

انتهى بيرت من هذه الجولة من الاستجوابات وفي قلبه شعورٌ بالغبطة. لا شكّ أنّه قد أنجز هذه المرّة خطوةً إلى الأمام. قد لا تكون واضحة وأكيدة، ولكنّها ستفتح له طريقاً ما في اتجاه الحلّ.

(18)

انتهت المهمّة. ومات الماضي وأصبح تحت التراب.

لا بدّ للرّجل الفذّ أن يفعل ما عليه. هذا ما قاله الممثّل الأميركي جون واين في أحد أفلام الكاوبوي الأميركيّة؛ تذكّر ناثانيال تلك الجملة التي تترجم حقّاً ما شعر به في تلك اللّحظة.

قام بما كان عليه القيام به في غابةٍ بعيدة في عمق الرّيف. ولو كانت جدّته حيّة، لقالت عن ذلك المكان أنّه «آخر الدنيا».

والآن فهو في طريقه إلى مساكن العمّال قرب المزرعة. ومن بعيد، شاهد مالي جالساً على الحائط الأمامي المنخفض. كان هذا الأخير يتصفح بدقّة جريدة الإعلانات المجانية التي توزّع أسبوعيّاً على جميع سكّان المنطقة.

يهتمّ مالي بقراءة هذه الجريدة لكونه يقوم بتجارة خفيفة «في الظلّ» إلى جانب عمله؛ فهو يشتري ويبيع ما يتيسّر له من الآلات الكهربائية المستعملة المعلن عنها. لا يعلم ناثانيال حقّاً تفاصيل ما يقوم به رفيقه ولا يرغب في معرفتها.

«أهلاً، ناثانيال. لم أرَكَ منذ وقت طويل خارج ساعات العمل!»

«كنت منشغلاً ببعض الأمور». أجاب ناثانيال باختصار. «ولكن، ما رأيك بكوب من البيرة الآن؟»

twitter @baghdad_library

قفز مالي للتوّ على قدميه. «إيه. ، لقد عاد ضابط المباحث مرّة أخرى. ؟» قال مالي والرجلان في طريقهما إلى الحانة. وتابع ضاحكاً، وهو يحكّ بطنه بإبهامه: «وطلب مقابلة النساء هذه المرّة. شيء جديد. . !»

«لا يمكن لأحد اكتشاف أيّ شيء». قال ناثانيال في نفسه محاولاً التغلّب على قشعريرة الرّعب التي أحسّ بها فجأةً. حتّى مالي «الذكي» لا يعرف شيئاً كثيراً عنّي. لا حاجة للخوف. استجواب عمّال المزرعة من جديد ليس سوى عمل روتيني تقوم به الشرطة.

وهنّأ نفسه على تخلّصه أخيراً من تلك الأشياء التي تشكّل خطراً عليه، وفكّر في مفتاح الشقّة. يجب أن يتخلّص منه أيضاً. ولكن، من الأفضل أن يضعه في مكان غير بعيد جدّاً عن متناول يده. فربّما يحتاجه في حالٍ من الأحوال.

شرب مالي كميّة كبيرة من البيرة في وقتٍ قصير، واسترسل في الثرثرة. أمّا ناثانيال فبقي واعياً إلى ضرورة أن يحافظ على صفاء ذهنه. ليس الوقت مناسباً للمغامرة، خصوصاً أنّ ضابط المباحث يحوم حول المزرعة. من المهمّ أن يحافظ على سلامته من أجل جنّا، ومن أجل أطفالهما في المستقبل.

ولكنّ شبح كارو ما لبث أن راود ذهنه من جديد. فتذكّر أنّه أحبّ كارو بإخلاص كما يحبّ جنّا الآن. ولكنّ كارو خيّبت أمله. وفكّر بمرارة أنّه لا يلاقي سوى الخيبة في حياته. في تلك اللحظة صعدت موجة عارمة من الغضب إلى دماغه، وأحسّ بضرورة أن يقوم بشيء ما لتسلية نفسه. فمشى في اتجاه طاولة البليارد.

* * *

وصلنا إلى حائطٍ مسدود ولم نعد نرى كيف يمكننا متابعة البحث عن قاتل كارو.

«لنفترض أنّه يمكننا طرح بعض الأسئلة على الناس الذين نلتقيهم في المخازن التجارية وفي الشارع. . ؟» قالت ميرلي وفي عينيها بريق أملٍ خافت.

«أتقترحين أن نستوقف الناس الغرباء في الشارع وفي المخازن ونعرض عليهم صورة كارو ونسألهم عنها!؟»

«ألم نفعل الشيء نفسه في المقاهي والمطاعم؟»

«كلّا يا ميرلي. هناك فرق».

«غير معقول! أنا لا أرى هذا الفرق».

«بلى. عندما ذهبنا إلى المقاهي والمطاعم، كان لدينا منطلق ثابت وهو أنّ كارو ارتادت تلك الأماكن». أجابت.

«أراكِ تفترضين أنّ كارو لم تمشِ في شوارع المدينة ولم تزر مخازنها قطّ. ؟»

بدأت أشعر بالانزعاج من أسلوب ميرلي الفوقي في الكلام. إضافةً إلى أنّها تتهمني بإهمال واجبي نحو كارو. ثمّ كيف يمكنها القول إنّي تراجعت عن الخطّة التي رسمناها معاً لمجرّد خروجي بضع مرّات برفقة نات؟ لم أنسَ بالطبع واجبي نحو كارو. وكلّ ما في الأمر هو إنّي أحتاج إلى استراحة قصيرة.

«من الأفضل أن نبتعد قليلاً عن بعضنا». قلت. «بهذه الطريقة، يعود التفاهم بيننا إلى عادته».

تنشّقت نفساً عميقاً، ورمتني بجوابٍ جارح. ولكنّها ما لبثت بعد قليل أن فكّرت بكلامي، وقامت عن كرسيّها وغادرت البيت.

twitter @baghdad_library

«لم أقصد إيلامها. ولكنّي لا أتمكن من الجري وراءها بشكلٍ مستديم». بعد ذهاب ميرلي للتّو، قمت إلى الحمّام وملأت المغطس بالماء الدافئ، واستغرقت في استراحة برفقة كتاب. وطارت أفكاري نحو نات.

تمدّدت تحت الماء، وتحسّست دغدغة الصابون العطرة فوق بشرتي. ثمّ أغمضت جفنيّ وتخيّلت وجه نات.

سأتحلّى بالصبر وأنتظر.

وسأحبّه. وأحبّه. وأحبّه.

إلى أن.

وفي ذاكرتي سمعت صوت كارو، ورأيت وجهها في مخيّلتي إلى جانب وجه نات. وجهها كما رأيته في مستودع الجثث.

في تلك اللحظة، سرت قشعريرة برد في جسدي على الرّغم من حرارة الماء.

* * *

لم تلجأ ميرلي إلى ذراعي كلوديو للتخفيف عن نفسها، بل آثرت الذهاب إلى شقّة صديقيها في جمعيّة الرّفق بالحيوان بوب ودوريت. يعيش الاثنان في هذه الشقّة الصغيرة معاً منذ ستّة أشهر. شعرت ميرلي بميلٍ إلى الانفراد بنفسها ولا يمكنها أن تفعل ذلك حقّاً سوى في شقّة بوب ودوريت.

«شاي؟» سألها بوب بعد أن حمل الإبريق ليملأه بالماء.

هزّت ميرلي برأسها، وهي تجلس على المقعد في المطبخ.

«وإن كنتِ تودّين التحدّث..». قالت دوريت، وقصدت أن تترك

جملتها مفتوحة. ثمّ فتحت الخزانة حيث يحتفظ الثنائي ببعض علب البسكويت وما شاكله.

أجابت ميرلي عن سؤال دوريت بالصمت. ونظرت إلى الثنائي وهما يتحرّكان بارتياح في المطبخ؛ وفكّرت في السبب الذي يدعو الناس إلى الشعور بالطمأنينة خلال جلوسهم في المطبخ. وتساءلت إن كان هذا هو السبب الذي يجعلها غير قادرة على الابتعاد عن كلوديو لفترةٍ طويلة. هل لأنّ كلوديو يمضي معظم أوقاته في المطبخ؟

وسألتها دوريت: «هل تفضّلين أن نتناول الشاي معاً، أو ترغبين في البقاء وحدك؟»

«أعذراني. أفضّل أن أبقى وحدي».

«بالطبع». قال بوب، ونفخ نحوها قبلةً في الهواء.

خرج الاثنان وتركا ميرلي. إنّها بحاجة للتفكير بهدوء، ولن تتمكّن من القيام بذلك في الوقت الحاضر سوى في هذا المكان.

* * *

تذكّر بيرت مالي كلستوف منذ لحظة دخوله إلى المكتب. زوجة كالمر، هي التي أذنت له باستخدام المكتب هذه المرّة، ولفتة فستانها الشفّاف وتحرّكاتها التي لا تخلو من ميلٍ إلى جذب الرجال. ولا بدّ أنّها أدارت رؤوس عددٍ من عمّال المزرعة حتّى الآن.

من ناحيته، لم يشعر بأيّ انجذابٍ نحوها؛ بل أحسّ بنوع من النفور من صوتها العريض الذي يخلو من التموّجات فتخاله صوت امرأةٍ آليّة.

أخذه التفكير في هذا الأمر إلى أن سمع نقرةً على الباب ودخل مالي.

twitter @baghdad_library

لم يلبث هذا الأخير أن فتح فاه ليتكلّم حتى تذكّر بيرت أنّه الرجل الذي تكلّمت عنه معظم العاملات، وقلن إنّه يعلم معظم الأسرار الخفيّة في المزرعة. ويعلم من يطارد من؛ ومن استدان مالاً مِن مَن؛ ومخاوف بعضهم وطموحات بعضهم الآخر.

ولكنّه لا يتبرّع بإعطاء هذه المعلومات، فقد ترتّب على الضابط استخراجها منه بصعوبة. إلاّ أنّه ما لبث أن استمتع بالحديث وبدا فخوراً لامتلاكه جميع تلك المعلومات التي هي كما يعتقد برهاناً أكيداً على جدارته وقوّته.

إنّه يتّسم بالإيجابية، بحسب ما استنتج بيرت، ويحبّ معاشرة الناس وقد يغيّر رأيه حول بعض المسائل بشكلٍ يومي.

وتبعاً لشهادة زوجة كالمر ورفيقه ناثانيال تابان، لا توجد معطيات ضدّه أبداً في ما يتعلّق بجريمتي قتل سيمونا وكارو. ففي اليومين المشؤومين، عمل مالي طيلة النهار في المزرعة. أمّا في المساء، فقد ذهب إلى برول وشرب البيرة في المقهى بصحبة ناثانيال تابان.

«ماذا عن ناثانيال تابان؟»

«نات؟» قال مالي رافعاً ذقنه إلى الأعلى. «ماذا عنه؟»

لاحظ بيرت تصغير الاسم. «أخبرني عنه».

«ماذا أخبرك؟ ليس لديّ ما أخبرك عنه».

«هناك ما يمكن قوله عن كلّ شخص».

«إنّه ذئب وحيد وشارد، تماماً مثلي. وهو صديقي».

«أنت ذئب؟» أجابه بيرت في فكره. «إنّك ثعلب».

وبعد مضي حوالي نصف ساعة، اكتشف بيرت أنّ مالي لا يعرف شيئاً كثيراً عن صديقه المزعوم نات. «أين هو صديقك الآن؟» سأله.

«إنّه اليوم في عطلة». أجاب مالي. وهو يجوب المناطق مثل الكاوبوي. ولكنّه لا يذهب على ظهر حصانه، بل يقود سيّارته.

«يجوب المناطق من غير هدف معيّن؟ هذا ما تقوله؟»

«هذا ما أقوله لك. لعلّه قطع منذ ابتدائه بالعمل في هذه المزرعة حتّى اليوم عدّة آلاف من الكيلومترات. لقد استرقت النظر إلى مقياس الكيلومترات في سيارته مرّة. بالطبع لم أدعه يراني؛ يكره نات أن يتدخّل الناس في شؤونه».

بعد نصف ساعة من الوقت، أنهى بيرت المقابلة؛ فيما تملّكت مالي الريبة وشعر أنّه تكلّم كثيراً. فقرّر الصمت؛ وبدا كأنّه أسدل فجأةً رداءً من الجمود فوق وجهه.

مدّ الضابط يده لمصافحته، وقال له: «إلى اللّقاء في المرّة القادمة».

«في المرّة القادمة؟ وماذا تريد أكثر. ؟»

«أريد حلاً لهذه القضيّة». أجاب بيرت. «لن أسمح قطّ بأن يبقى قاتل أربع فتيات خارج قبضة العدالة».

«وما علاقة هذا الأمر بي؟» قال مالي مستنكراً، ولكنّ صوته لا ينمّ عن الخوف. كان يعلم أنّه خارج دائرة الاتّهام.

«قد يكون من بين معارفك». قال ملزيغ. «وقد يكون أحد المقرّبين إليك. ربّما تعمل إلى جانبه يوميّاً في هذه المزرعة. من يعلم؟»

جحظ مالي عينيه وفغر فاه. وراحت الأفكار والصور تزدحم في رأسه. تنبّه بيرت إلى كلّ ذلك، وتأكّد أنّه أنجز خطوةً إلى الأمام.

twitter @baghdad_library

«وأخيراً. . » فكّر بيرت وهو عائدٌ إلى المكتب. «أخيراً وصلنا إلى مكانٍ ما».

* * *

«خذني إلى الغرفة التي تسكنها». كنت أحبّ أن أقول له. «أريد أن أعرف المكان الذي تسكنه لكي أتخيّلك عندما تكون من دوني. أودّ لو تعرّفني إلى أمّك، فمن المؤكّد أننا سننسجم، لأنّ كلينا يحبّك.

تعالَ معي إلى الشقّة التي أسكنها. ستجلس وتتبادل الحديث مع ميرلي قليلاً، ثمّ نذهب معاً إلى منزل الطاحونة. سترى المنزل الجميل من الداخل، وتتعرّف إلى والدتي وإلى إدغار ومولّلي، وإلى تايلو أيضاً لو سمحت الفرصة لذلك.

ولو كانت لديك الشجاعة الكافية، سأصطحبك للتعرّف إلى جدّتي. فهي تمتلك عينين ثاقبتين تخترقان المظهر الخارجي وتكتشفان شخصيّة الإنسان الحقيقيّة. ربّما ستحظى بموافقتها عليك. وفي حال العكس، لن أتخلّى عنك وسأحبّك أكثر».

ولكنّي طبعاً لم أقل له أيّ شيء ممّا كان يدور في رأسي. كنت أكتفي بالنظر إليه فيما كانت يداه على مقود السيّارة وعيناه تنظران إلى المرآة الخلفيّة بين الفينة والأخرى. لاحظت منذ البداية أنّه يقود سيّارته بدقّةٍ لم أعهدها في حياتي، وساهم ذلك في مضاعفة إدماني على حبّه.

كان يفضّل البقاء صامتاً عندما نكون معاً. ولذلك التزمت الصمت مع أنّ قلبي كان يشتعل حبّاً وشوقاً له. ولكنّي لم أقل شيئاً.

لماذا لم أقل شيئاً؟

ثمّ صوّب إليّ نظرةً جعلتني أشعر كأنّه سيوقف السيّارة للتّو ليدخل يده تحت قميصي أو ليقبّلني. ولكنّه مدّ يده إلى زرّ الراديو ورفع الصوت.

وتوقّفنا في قرية معظم منازلها قديمة وتراثيّة. كان يحبّ ذلك المكان كثيراً ويحلم بشراء منزلٍ قديم مشابه لتلك المنازل ليقوم بترميمه في يومٍ من الأيّام.

عرفت الكثير عنه ولكنّ ذلك الكثير لم يكن إلاّ قليلاً. أخبرني أنّ تجربته مع النساء لم تكن مشجّعة وقد ذهب سابقاً إلى جلسات علاجيّة؛ ولكنّه لا يزال بحاجة إلى بعض الوقت ليستعيد ثقته بنفسه.

في تلك الساعة، عرفت أنّي أوقعت نفسي في قصّة حبّ معقّدة مثلما فعلت كارو وميرلي من قبلي.

ألمسك
وبي خوف أن تتهاوى أمامي
وتندثر.

يا إلهي، كأنّ كارو تنبأت بما أشعر به بالذات. أخاف أن ألمسه وأكتشف فجأةً أنّه ليس سوى كذبةٍ من اختراع خيالي.

«بماذا تفكرين؟» قال.

«أفكّر بكارو، وبك، وبي». أجبته، وأنا أصرّ على التزام الصّدق معه.

لم يجب بكلمة، بل أخذ يدي وضغط عليها، وقاد السيارة بسرعةٍ أكبر.

* * *

twitter @baghdad_library

كانت إيمكي تسرع في الكتابة ولا تتوقّف عنها سوى لإنجاز بعض الأعمال المنزلية الخفيفة التي كان يتوجّب عليها القيام بها في انتظار عودة السيّدة برغرهاوسن.

ولكنّها، هي نفسها لم تفهم سبب إلحاحها على الإسراع في الوصول إلى نهاية القصّة، مع أنّها تشعر عادةً بألم الفراق كلّما حان الوقت لمغادرة تلك العوالم الصغيرة التي تتحكّم بأقدارها؛ وتشعر بالحزن لفراق الشخصيّات التي كانت هي سبب وجودها. إضافةً إلى أنّ الانتهاء من الكتابة يعني عودتها إلى مواجهة عالم الواقع المعقّد والصعب.

«أنا أضعف من مواجهة الحياة الحقيقية. أتعلم ذلك؟» صارحت إيمكي هرّها إدغار الذي كان ينظر إليها كأنّه صاغٍ بملء أذنيه، وما لبث أن أشبع أذنيها مواءً طلباً للطعام. أمّا مولّي فكانت لا تعتمد في طعامها على مؤونة البيت، بل تصطاد كلّ ما تجده مناسباً لذوقها حول البيت.

«إنّها قطّة حقيقيّة وليست نمراً من الكرتون مثلك أنت». قالت إيمكي.

حاولت الاتصال برقم جنّا وميرلي من غير أن تلاقي ردّاً. بعد ذلك، اتصلت بهاتف جنّا المحمول وكان الجواب كالعادة: **المشترك الذي تحاول الاتصال به غير متوفّر حالياً. وَ. وَ. إلخ.**

«إنّها العطلة الصيفيّة، ويجب أن لا أتوقّع أن تبقى الفتاتان في البيت في مثل هذا الطقس الجميل». قالت مخاطبةً نفسها. ولكنّ الجزء الآخر من ذاتها ظلّ مصرّاً على معرفة مكان وجودهما. ها أنّ المباحث الجنائيّة تشارف على إلقاء القبض على المجرم في الرواية، ولكنّ قاتل كارو لا يزال طليقاً!!

اتصلت إيمكي بمركز المباحث وسألت عن بيرت ملزيغ. «إنّه

خارج المكتب في هذه الساعة. هل تودّين، سيّدتي، أن تتركي له رسالة؟»

«كلّا، شكراً سأتصل به في وقتٍ لاحق». أجابت إيمكي.

ستحاول الاتصال بوالدتها هذه المرّة، لا بدّ أن تنجح ولو في اتصال واحد. أجابت الوالدة وكانت قد عادت للتّو من صالون التجميل، فأمضت خمس دقائق في الشكوى لعدم رضاها عن تصفيفة شعرها. ثمّ سألت: «حسناً، هل ستأتي الفتاتان لقضاء بضعة أيّام معي قبل انتهاء العطلة؟»

«لا يمكن دفع جنّا للقيام بأيّ أمر الآن، يا أمّي. لقد وقعت مجدّداً في الحبّ».

«في الحبّ؟ ومن هو؟»

هكذا هي أمّها. تذهب إلى جوهر الموضوع فوراً ومن غير مقدّمات ولا مواربة، ولو سبّبت أسئلتها المباشرة إحراجاً لمحدّثها في بعض الأحيان.

«لا أعلم عنه سوى كونه في الثلاثين تقريباً، وجذّاباً جدّاً بحسب قولها».

«وجّهي له دعوة لتناول القهوة في أقرب وقت، وادعني أيضاً. هل سمعتِ؟»

هناك حاجة إلى الإسراع بالطبع. تشعر الامرأتان بالقلق الشديد بشأن جنّا وميرلي ولكنّهما تضعان أقنعة الهدوء للاستمرار في الحياة اليوميّة، وذلك لمواجهة واقع الحياة والموت أيضاً. فكّرت إيمكي بهذا كلّه وانهمرت دموعها قبل انتهاء المكالمة.

* * *

twitter @baghdad_library

كلاّ. لن يخبر نات عمّا جرى. وقريباً سينتهي الموسم ويذهب كلّ منهما في طريقه. ولذلك، لمَ المجازفة بتعكير الجوّ بينهما؟

يبدو نات متوتّراً. وعندما تقترب منه تشعر أنّه شارد الذهن.

ولكن ليس من الضروري أن يكون للأمر علاقة بجرائم القتل.

هل من المعقول أن يكون هذا الرجل الذي عايشه طيلة هذه المدّة قاتلاً؟ «لو كان نات كذلك لاكتشفت أمره فوراً. !»

إنّهما يشتغلان معاً جنباً إلى جنب ويوماً بعد يوم. يزحفان على التراب والوحل في لهيب الحرّ وتحت المطر، ويتبلّل جسداهما بالعرق معاً. ويأكلان ويشربان ويتكلّمان، أو يصمتان أو يقهقهان معاً. إنّهما مثل وجهين لقطعة نقدية واحدة. من أين لضابط المباحث هذا أن يأتي ليفرّقهما؟

ولكن، أليس من الأفضل إخبار نات بشأن الأسئلة التي طرحها عليه الضابط خلال المقابلة؟ معظم العمّال عرفوا أنّ الضابط جاء إلى المزرعة خصّيصاً لمقابلته. ولو كتم الأمر عن نات، سيكون مثل الذي يجعل من 'الحبّة قبّة' فالأمر بسيط ولا لزوم لإحاطته بالأوهام التي قد تزيده أهميّة غير حقيقيّة.

إذاً لمَ التردّد؟ ثمّ أنّه ليس من الذين يخافون التكلّم إلى نات.

من المؤكّد أنّ نظرات نات في بعض الأحيان تزرع الرّعب في القلب، فتشعر من غير سبب أنّك ارتكبت ذنباً عظيماً، وصوته الجليدي الجارح يدفعك للهروب من أمامه.

ولكنّ ذلك لا يعني الخوف. لا، ليس من صديقه نات.

على كلّ حال، لا يشعر بالميل إلى التقاء نات هذا المساء. إنّه

يفضّل الذهاب إلى برول وحده. يريد شرب كوبين من البيرة بصمت بين مجموعة من الغرباء حيث لا أحد يطرح عليه أيّ أسئلة.

* * *

جلست جنّا بصمت وعيناها على الطريق. عرفت تلقائيّاً أنّ نات كان غير راغبٍ في الكلام. أليست المرأة الفاضلة هي التي تتحسّس رغبات رجلها تلقائيّاً. ؟

كانت أعصابه مشدودة إلى الدرجة القصوى. فهمومه باتت ثقيلة جدّاً والوقت لم يكن بالفعل مؤاتياً للوقوع في حبٍّ جديد.

ولكن الحبّ لا ينتظر إذناً ولا توقيتاً!

يشعر بالضغط الشديد لأنّه يفكّر في ما يمكن أن يفصح عنه إلى جنّا وما يجب أن يبقيه طيّ الكتمان. ولكن لا بدّ من الالتزام بالحذر، فهو لا يولي جنّا ثقته بشكلٍ كامل بعد.

وفكّر أنّه بحاجة إلى مزيد من الوقت. الوقت نعم.

الوقت هو محور المسألة. قريباً سينتهي موسم الفراولة ويحين موعد الانتقال إلى مكانٍ جديد. ولكنّ جنّا لا تزال طالبة ومرتبطة بالمدرسة. كيف سيتمكّن من فراقها. لن يستطيع زيارتها حتّى في نهاية الأسبوع؛ فالعمّال الموسميّون يعملون حتى في أيّام العطلة.

ولأوّل مرّةٍ في حياته، أحسّ بتوقٍ كبير إلى الاستقرار. ثمّ نظر إلى جنّا والتقت عيناه بعينيها فمدّت يدها لتلمس يده فوق المقود.

«يا إلهي كم أحبّ هذه الفتاة!» قال في صمته.

إنّها قادرة على تطهيري من جميع مساوئي وتحويلي إلى إنسان آخر. وأهمّ ما في الأمر، هو أنّها ستبقى معي طيلة العمر.

twitter @baghdad_library

(19)

سمعت ميرلي صوت فتح الباب. ها أنّ جنّا قد عادت. الساعة تقارب الواحدة بعد نصف الليل، وميرلي في فراشها ولكنّها لم تنم بعد.

دخل الضوء من تحت الباب فأحسّت ميرلي برغبة قويّة للقيام من سريرها والسهر مع جنّا في المطبخ، وربّما تناول وجبة خفيفة أو فنجان من الشاي. هذا ما كنّ يفعلنه قبل موت كارو.

ولكنّ جنّا على الأرجح غير جائعة. لعلّ أميرها العتيد قد دعاها إلى العشاء في أحد مطاعم الرّيف الفاخرة. كم يزعج ميرلي ندرة كلام جنّا عن صديقها؛ خصوصاً أنّها لا تميل بطبعها إلى الغموض.

وفكّرت ميرلي بطبعها الشخصي وكيف أنّها تضع 'ما في قلبها على رأس لسانها' كما يُقال في الكلام العامّي.

أمضت ميرلي ساعات المساء في قراءة أشعار كارو مجدّداً، وفي النظر بدقّة إلى جميع صورها مسجّلةً ملاحظاتها على دفترٍ خاصّ. ثمّ قرّرت أنّه لا بدّ من أن تكون الزهرة المضغوطة وأوراقها دليلاً هامّاً للعثور على صديق كارو. فهو الذي أعطاها هذه الزهرة ولو لم يكن كذلك، لما اهتمّت كارو بالاحتفاظ بها.

ولكنّها زهرة صغيرة وتبدو عاديّة جدّاً. لذلك فكّرت ميرلي أنّها

حملت معاني خاصّة بالنسبة إلى الشابّ؛ ولولا ذلك، لأهداها وردةً، أليست الورود هي التي يتبادلها العشّاق عادةً؟

وفكّرت ميرلي مليّاً في الوشاح الأسود. ليس وشاحاً نسائيّاً ولا تذكر أنّ كارو ارتدته قطّ. حتّى أنّه ليس حريريّاً وليس جميلاً، بل صنع من قماشٍ قطني عادي جدّاً.

وطرحت على نفسها السؤال: «من يرتدي عادةً مثل هذا الوشاح؟»

يرتدي المسنّون من الرجال وشاحاً مشابهاً فوق بزّةٍ فاتحة اللون في مكان ربطة العنق. ولكنّها ما لبثت أن نظرت إلى ما كتب على طرفه. لم يكن من الحرير الطبيعي، ولا الصناعي، بل من القطن العادي جدّاً.

وذهب خيالها إلى صور القراصنة. واستطردت في تفكيرها.

قد يرتديه بعض الشبّان انسجاماً مع موضة معيّنة؛ أو الطهاة لحماية شعرهم خلال العمل. واستطردت في التفكير لكي تجد فئة أخرى من الرجال الذين يستخدمون مثل هذا الوشاح.

قد يرتدي الرجل مثل هذا الوشاح ليحمي رأسه من الغبار، أو من الرطوبة، أو من حرارة الشمس.

عند هذه النقطة باتت ميرلي شبه متيقّنة أن صديق كارو كان يرتدي هذا الوشاح، خصوصاً بعد أن وضعته تحت نور المصباح الذي على مكتبها وتفحّصته بدقّة، واكتشفت وجود عدد من البقع الجافّة عليه. قرّبت الوشاح من أنفها ولكن لا وجود لأيّ رائحة؛ فمن الطبيعي أن تختفي الروائح بعد زمنٍ معيّن.

ما سبب احتفاظ كارو بالوشاح؟ الأرجح أنّ صديقها كان يرتدي هذا الوشاح الذي كان يشكّل بالنسبة إليها قطعةً منه.

twitter @baghdad_library

كانت تحبّ أن تتحدّث مع جنّا عن جميع هذه الأفكار الآن، ولكنّها لا تزال تشعر بالألم جرّاء ما قالته لها في ذلك اليوم. «اقترحت جنّا أن نجعل مسافةً بيننا. حسناً، ليكن ما تريد!»

وعندما فتحت جنّا باب الغرفة بلطف وأدخلت رأسها قليلاً، ثمّ لفظت اسم ميرلي بصوتٍ منخفض، ادّعت ميرلي أنّها نائمة ولم تجب.

* * *

أضاءت جنّا شمعةً ووضعتها على الطاولة وأطفأت النور الكهربائي في المطبخ؛ ثمّ وضعت كرسيّها قبالة الشباك وجلست. تحبّ جنّا أن تراقب البلدة في الظلام، وتحبّ الأشباح الرماديّة للأبنية، والمربّعات القليلة المضاءة فيها.

منذ أن تعرّفت إلى نات، ازداد ولعها بهذه المدينة الصغيرة برول. سوف أصطحبه إلى كلّ الأماكن التي أحبّها ولكن ليس الآن، بل عندما يصبح حاضراً لذلك.

كنت أريد أن أريه القصر والجنائن المحيطة به، والغابة وراءه. وكنت أحلم بالسير معه على الدروب الضيّقة المؤديّة إلى قلب البلدة القديم، وزيارة السوق المتخصّص باحتفالات عيد الميلاد.

لا أذهب إلى سوق عيد الميلاد مع أيّ كان. فهذا المكان هو شديد الخصوصيّة بالنسبة لي، وأصرّ على الاستمتاع بزيارته مع أشخاص مقرّبين جدّاً منّي ويمثّلون جزءاً من حياتي.

لن نرى أبداً
الأنوار القدسيّة معاً.

لماذا عادت تلك السطور إلى ذاكرتي في تلك الساعة؟

«لماذا وضعتِ لنا كلّ هذه الأحجيات يا كارو؟ من تقصدين بكلامك، وعن أيّ أنوارٍ تتكلّمين؟ ولماذا أشعارك حزينة إلى هذه الدرجة؟»

سيرحل نات عن هذه المنطقة قبل حلول عيد الميلاد بعدّة أشهر، ويذهب إلى مكانٍ آخر.

رأيت كارو في حلمي في تلك الليلة. كنّا نمشي معاً في سوق عيد الميلاد، ومررنا بمجموعة من الأولاد تتحلّق حول بابا نويل. وعندما اقتربنا منهم، طالعني وجه نات تحت اللّحية المصنوعة من القطن الأبيض.

لمست ذراعه، وقلت: «نات، هذه صديقتي كارو».

وعندما التفتّ، وجدت أنّ كارو اختفت ولم يبقَ منها سوى سترتها مرميّةً على الأرض. بدت السترة فارغة وضائعة وصغيرة كأنّها سترة دمية.

* * *

تذكّر بيرت ناثانيال منذ لحظة دخوله إلى المكتب واستعاد الانطباعات التي سجّلها عنه في المقابلة الأولى. رجلٌ طويل، ذو عينين ثاقبتين، ويميل إلى الصمت.

لم يتفوّه هذا الرجل بكلمة من غير تفكير. وبقيت عيناه مسمّرة على بيرت طيلة الوقت.

وهو أكثر تحفّظاً من مالي كلستوف، ويفوقه ذكاءً بالتأكيد. ولكنّ صوته العميق والهادئ كان مخادعاً، فقد أخفى تحته حالة عميقة من التوتّر، تيقّن الضابط من وجودها كأنّه يلمسها لمس اليد.

twitter @baghdad_library

ليس التوتّر دليلاً سيئاً بالضرورة. فمن غير الطبيعي أن يسترخي المرء إبّان مقابلة مع رجل مباحث يحقّق في جريمة قتل.

قال ناثانيال إنّ اسم كارو ستايغر لا يعني له شيئاً، ولم يسمع به قبل وقوع الجريمة.

ثمّ فوجئ بيرت بنظرة ناثانيال المطوّلة إلى صورة كارو، فيما كان قد ألقى صور الفتيات الأخريات الثلاثة من يده بسرعة، كأنّ بها قذارةً، أو ناراً تحرقه.

«سبق وطرحت عليّ هذه الأسئلة». قال ناثانيال.

وكان بيرت قد عرض عليه الصور أيضاً في المرّة الأولى. ولكنّه لم يتصرّف بأيّ أسلوبٍ يثير الشكّ في تلك المرّة. وبيرت متأكّدٌ من ذلك لأنّه كان يسجّل كلّ حركة بشكلٍ دقيق. لو أظهر ناثانيال أيّ إشارة تثير الشكّ في المرّة الماضية، لتوجّه التحقيق منذ تلك اللحظة في اتجاهه.

«لدينا معطيات جديدة في الوقت الحاضر». أكّد بيرت.

رجع ناثانيال إلى الوراء، وطوى ذراعيه فوق صدره. «ردّة فعله مرتاحة». فكّر بيرت ببعض الحيرة. «أو أنّ هذا الرجل يختبئ وراء قناعٍ صخري!» تعوّد بيرت ملاحظة وتحليل كلّ حركة وكلّ نبرة صوت يقوم بها الشخص الذي أمامه، إلى درجة أنّ هذه العادة تلاحقه حتى إلى بيته ومع أصدقائه كأنّها نوعٌ من اللّعنة.

فكم من مرّة صرخت مارغو في وجهه قائلة: «لا تنظر إليّ بهذه الطريقة، كأنّك تستجوبني». ولكنّه مهما حاول، فالعادة تأصّلت في داخله، وقد لا تفارقه حتى نهاية حياته.

ليس من السهل اكتشاف حقيقة القادرين على التزام الصمت

لوقتٍ طويل. فلا بدّ أن يتمتّع من يلتزم الصمت بثقة عالية بالنفس؛ وها أنّ هذا الرجل، لم يقل شيئاً، وبقي يتأمّل في وجه بيرت منتظراً.

لو تأثّر بيرت سلباً ببرود ناثانيال لخرج عن هدوئه وأكثر من الكلام هو نفسه؛ ومن شأن هذا، وبحسب تجربة بيرت الطويلة، أن يخفّف من قوّة الضغط الذي يريد أن يمارسه على الرجل الذي أمامه. «كلّا، لن يدعه يحظى بذلك. يريد التزام الصمت، حسناً. فلننتظر!»

ولكن فكرةً مفاجئة قفزت من رأس بيرت إلى لسانه فجأةً. وكم من الأفكار اللّامعة تأتي هكذا، من غير استئذان. وبدأ يتلو مقطعاً من قصائد كارو:

أميري
المتسوّل
دجّال
وحكيم
لم ألمسك قطّ
وترفض دوماً البقاء
إنّك تكره الأماكن المغلقة!

لم يرمش بيرت جفناً، وراقب وجه ناثانيال يجتاحه الشحوب بوضوحٍ ظاهر حتّى من خلال لونه الأسمر الحادّ. «هذا مقطع شعري كتبته كارو مباشرةً قبل مقتلها». قال بيرت. «أتساءل من يكون هذا الحبيب أمير قلبها، المتسوّل والدجّال والحكيم».

twitter @baghdad_library

لم يزح ناثاتيال نظره عن نظر بيرت، وقال: «أنا لا أعلم شيئاً عن الشعر». وكان شحوبه يتلاشى، إنّما ببطء.

«يؤسفني ذلك». قال بيرت. «كنت سأطلب منك أن تساعدني على فكّ رموز هذه السطور. هل تعرف أحداً يتقن فنّ الكتابة؟»

أجاب ناثانيال بحركة نفي من رأسه.

عدا عن كون ناثانيال غير محبوب من معظم الذين حوله، وعدا عن الشكّ المبهم الذي يشعر به بيرت بشأنه، لا تملك المباحث أيّ دليل محسوس ضدّه. إضافةً إلى عدم وجود الدافع الذي قد يدفعه إلى قتل كارو.

«هل من إشارات إلى أنّ ناثانيال تابان شخص مضطرب نفسيّاً؟» سأل بيرت نفسه.

ثمّ حاول أن يتصوّر كارو بصحبة هذا الرجل. لكنّه لم يتمكّن من ذلك. وأسف لكونه لم يتعرّف عليها قبل موتها.

«هل قتلت الفتيات؟» خرج السؤال من فمه كضرب الرّصاص، ومن غير حساب مسبق.

واستعدّ بيرت لرؤية ردّة فعل ناثانيال التي قد تكون استنكاراً، أو تلعثماً، أو نوبة من الضحك أو سحابة من الكلام الساخر. كان من الممكن أن يرفع حاجبيه ويقول: «أنا؟ هل أنت جدّي في ما تقول؟»

لم يفعل ناثانيال تابان أيّ من ردّات الفعل تلك. إنّما تسمّر نظره على بيرت وغاب في بؤرةٍ من الحزن العميق. وبقي كذلك طيلة لحظات.

فراقبه بيرت بتعجّب.

ثمّ استيقظ ناثانيال من الصدمة فجأةً. ونظر إلى بيرت بعينين

زجاجيّتين، وقال: «أنا لست بقاتلٍ أيّها الضابط». ثمّ ردّد جملته، وكلّ كلمة منها، بنبرةٍ قاطعة ومقتضبة: «أنا، لست، بقاتل!»

ومع ذلك، ولسبب ما، لم يتخلَّ بيرت عن الاعتقاد بأنّ ناثانيال كان كاذباً.

* * *

«كيف كانت المقابلة؟» قال مالي.

«كيف تتوقّعها أن تكون؟» أجاب ناثانيال بضحكةٍ مضلّلة. «كان يطرح أسئلة لا معنى لها، ويحاول إيهامي بأنّه يعرف شيئاً عنّي».

«تماماً!» قال مالي. وضحك ضحكته السّمجة والتي أحسّها ناثانيال مصطنعة هذه المرّة. كما أنّ هذا الأخير لم يقترب ليربتّ على كتفه كما تعوّد أن يفعل؛ فتولّد شعورٌ مبهم لدى ناثانيال بأنّ مالي بات يخشى الاقتراب منه.

إضافةً إلى أنّ مالي لم يكلّمه قطّ عن مقابلته الثانية مع الضابط، وهو الذي يحبّ الثرثرة ولا يبقي كلمة 'في بطنه' ، «إذاً ما الذي تغيّر؟» فكّر ناثانيال. «هناك احتمال واحد لا غير، وهو أنّ مالي بات يشكّ فيه».

«اللّعين الجبان!» قال في نفسه. ثمّ أدار ظهره ومضى ليلتقط صندوقاً فارغاً ويتابع العمل. كان قد نسي وشاح رأسه في الحمّام، فأحس بالانزعاج الشديد عندما بدأت خصلات شعره تلتصق بجلده المتعرّق.

انكبّ ناثانيال على قطف الفراولة، وانفصل وعيه عن المحيط الخارجي. وفي رأسه أخذ يقيس جميع الاحتمالات. ليس في يد المباحث أيّ دليل حسّي ضدّه. ثمّ أنّه كان يستخدم اسماً مستعاراً

twitter @baghdad_library

وأوراقاً مزوّرة في الشمال، إذاً لا سبيل للإمساك بأيّ دليلٍ ضدّه هناك.

«ولكن ماذا سيحدث لو أجرت الشرطة فحص لعاب؟ عندئذٍ سيكتشفونه. وهل سترضى جنّا بالهروب معه؟»

«ولكن. . ، لا لزوم لكلّ هذا». استدرك في تفكيره. «ها أنّ الضابط قد غادر المزرعة من غير الحصول على أيّ معلومة».

«حبّه لجنّا سوف يحميه. لن يحدث له أيّ مكروه طالما هو في حالة حبّ». قال ذلك لنفسه، وابتسم.

* * *

إنّه قاطف فراولة!

اكتشفت ميرلي هذه الحقيقة وباتت في عجلة قصوى لتعود إلى البيت وتفكّر في هذا الأمر بهدوء. ولأوّل مرّة شعرت ميرلي بالامتنان من كلوديو على قسوته؛ فقد طلب منها الذهاب إلى أحد حقول الفراولة، حيث يقطف الناس بأيديهم ما يريدونه من الثمار، لكي تقطف بنفسها ما يحتاجه لزبائن المطعم؛ وها إنّها استنتجت للتوّ أنّ الزهرة المضغوطة والأوراق التي كانت بين أغراض كارو هي زهرة فراولة.

وتذكّرت ميرلي أنّ قاطفي الفراولة يلبسون غطاءً من القماش على رؤوسهم لحمايتها من حرارة الشمس القويّة. وعاد إليها في تلك اللّحظة مشهد الرؤوس المغطّاة والمنحنية فوق الشتول الخضراء والحمراء التي غالباً ما رأتها وهي في السيّارة مع جنّا في طريقهما إلى بيت الطاحونة.

وها هي تفهم فجأةً ما قصدت كارو عندما كتبت:

على شفتيك
تلك الابتسامة
الحمراء المريعة وحلوة المذاق.

كانت شفاه صديقها تصطبغ بالاحمرار لشدّة ما يأكله من الفراولة. ولم تلجأ إلى عبارة 'مريعة' عن عبث، إذ كانت علاقتها به تزداد غموضاً يلامس حدّ الريبة والرّعب.

ولعلّ هذا الذي دفعها للعودة إلى إيذاء نفسها مجدّداً. تلك العادة التي طالما أنذرت بحالة نفسية عصيبة تعيشها كارو.

«اللعنة! كيف لم نتنبّه لذلك؟» صرخت ميرلي بصوتٍ مخنوق. «اللعنة، اللعنة، اللعنة!»

ولكنّ كارو لم تشجعها، ولم تشجّع جنّا على مساعدتها لأنّها انجرفت معه في اللّعبة إلى النهاية. كانت ترفض أن تتلفّظ بكلمة عنه. حتّى أنّها لم تقل شيئاً واضحاً عندما تكلّمت إلى جنّا ذلك المساء.

من أنت؟
كلّ تلك الأسئلة التي لم أطرحها
وكلّ تلك الأغنيات التي لم أغنّها
تسع حيواتٍ لم أحيَها

كلماتها تبدو وكأنّها استشراف لما سيحدث لها. كأنّها تنبّأت بمصيرها. عرفت كارو أنّ أسئلتها ستبقى من دون أجوبة، وأنّها لن تتمكّن من الغناء والفرح، وستتوقّف حياتها وهي لا تزال في بدايتها.

* * *

twitter @baghdad_library

لم يتصل بيرت بإيمكي فور معرفته باتصالها عندما عاد إلى المكتب. إذ كان قد قرّر الاحتفاظ ببعض المسافة بينهما. ولكنّه ما إن سمع صوتها حتى عادت إليه كلّ تلك المشاعر الإيجابية نحوها. إنّه يريد أن يسمعها ويجلس بقربها، وينظر إليها وهي تتكلّم.

«هل من جديد؟» قالت.

«أظن أنّنا في الطريق إلى الحلّ. ولكنّي لا أتمكّن من الإفصاح بأكثر من ذلك كما تعرفين».

«كنت أتوقّع أنّك ستتعامل معي. بطريقة خاصّة». قالت.

دقّ قلب بيرت لدى سماعه تلك الجملة. «معاملة خاصّة! هل هي تفكّر بما أفكّر به؟» وأجاب: «ولكنّ ذلك لن يكون مقبولاً وصحيحاً».

«أنت على حقّ». قالت بعد لحظاتٍ من الصمت لدى الطرفين.

«أرجو أن تعذرني. ينتابني قلقٌ مضنٍ بشأن الفتاتين. ولديّ شعور. .»

تعوّد عدم الاستخفاف بالمشاعر الغامضة التي تنتاب الناس في بعض الأحيان. فكثيراً ما تكون مبرّرة وتنبئ بخطرٍ قادم.

«أيّ نوع من الشعور؟»

«أشعر أنّ جنّا في خطر».

«هل من شيء جديد لا أعرفه؟»

«إنّها تعيش علاقة حبّ».

«ولكنّه خبرٌ سارّ!»

«هل أنت متأكّد من ذلك؟ ألم تكن كارو في علاقة حبٍّ. ؟»

«حان الوقت لتوقيف ذلك المجرم عن متابعة نشاطه المشؤوم».

فكّر بيرت. «حان الوقت ليتمكّن كل من لذعته الجرائم الثلاثة أن يتطلّع إلى المستقبل بعينٍ جديدة لا يعتريها الخوف».

«يجب أن لا تربكي حياتك بالمخاوف!» هذه نصيحة جيّدة بالطّبع، ولكنّها لن تأخذ بها. ولن تتمكّن من الأخذ بها على كلّ حال، لأنّها باتت سجينة المخاوف.

«إنّه أكبر منها سنّاً. وأرى غرابةً في أمر هذه العلاقة. من طبع ابنتي أن تبدي فرحاً شديداً وتتكلّم كثيراً عمّن تحبّ. ولكنّها لم تخبرنا شيئاً عن هذه العلاقة حتّى الآن».

وفكّر بيرت أنّ كارو أيضاً التزمت الصمت حول علاقتها. ولكنّه ما لبث أن نبّه نفسه إلى خطورة المبالغة في الاستسلام إلى الأوهام.

ولكنّ أوجه التشابه كانت ظاهرة؛ وإحساسه بوجود رابط بين هاتين الحالتين كان ضاغطاً.

«حاولي التحدّث بهدوء إلى ابنتك». اقترح عليها بيرت. «حاولي أن تتعرّفي إلى بعض التفاصيل. واسأليها عن اسمه».

«سوف أحاول». قالت له. «على الرّغم من كونها خارج البيت في معظم الأوقات».

بعد انتهاء المكالمة، جلس بيرت أمام مكتبه قليلاً. كان يشعر وكأنّه يحمل بين يده كتلةً من الخيطان المتشابكة، ويوشك على فكّ عقدها ما أن ينجح في العثور على رأس الخيط الصحيح.

* * *

كان في سيّارته ينتظر جنّا. سوف يذهب معها إلى بلدة بلاكنو مجدّداً حيث المنازل القديمة والجميلة التي يحبّها ويستوحي منها القوّة والشجاعة.

twitter @baghdad_library

غالباً ما يشعر أنّه ينتمي إلى زمنٍ قديم. لعلّ ما يُحكى عن ظاهرة تقمّص الأرواح حقيقة، ولعلّه وجنّا تقابلا في حياةٍ سابقة!

هل كانا متحابّين في تلك الحياة السابقة؟ وهل عاشا معاً؟

سيسأل جنّا إن كانت تؤمن بالتقمّص.

سوف يسألها إن كانت تحبّه حقّاً، وهل أحبّت أحداً قبله بقدر ما تحبّه؟

وسيسألها إن كانت على استعداد للانتقال معه بعد انتهاء موسم الفراولة.

ولكنّه سيلتزم الروّية ولن يطرح كلّ هذه الأسئلة معاً خوفاً من إثارة مخاوفها.

لقد غادر المزرعة ظهر اليوم لكي يقضي بقيّة النهار مع جنّا. قال لزوجة صاحب المزرعة إنّه سيذهب لزيارة الطبيب، وكذلك أخبر مالي.

* * *

وجدت ميرلي رسالة على الطاولة.

عزيزتي ميرلي،

أعتذر لأنّي كنت قاسية جدّاً معك. أرجو أن لا تغضبي منّي بعد الآن. لم أقصد إخفاء الأمور عنكِ. تحدّثنا، نات وأنا، عن أمورٍ كثيرة ولكنّنا ما زلنا نجهل الكثير عن بعضنا.

ربّما ستجدين كلامي مضحكاً. أشعر كأنّي عرفته منذ زمنٍ طويل. ما الفرق إن كان طبيباً أو محاسباً، أو قاطف فراولة. ؟ إنّي أحبّه!

ما رأيك لو نجلس غداً ونتحدّث مطوّلاً، وننسى كلّ ما جرى من أمورٍ مزعجة بيننا؟ أنتظر ذلك بفارغ الصبر.

إليك حبّي وقبلاتي

جنّا

ملاحظة: سنذهب اليوم إلى واحدة من تلك القرى التاريخية لنزور الأبنية الباقية منذ القرون الوسطى. تصوّري ما كنت سأشعر به من الضجر أمام تلك الجدران العتيقة لولا وجودي مع من أحبّ. كم نتصرّف بغرابة نحن الفتيات عندما نقع في الحبّ. أعرف ذلك!

قرأت ميرلي الرسالة أكثر من مرّة وفي كلّ مرّة كانت تتوقّف عند الجملة «ما الفرق إن كان طبيباً. أو قاطف فراولة؟»

ما هو الاحتمال أن تقع جنّا أيضاً، تماماً مثل كارو، في حبّ قاطف فراولة؟ لا شكّ أنّ هذا الاحتمال ضئيل جدّاً. الأرجح، كما فكّرت ميرلي، أن يكون هو نفسه؛ فبعد أن انتهى من القضاء على كارو، وجد الطريق إلى قلب صديقتها.

حملت ميرلي بطاقة ضابط المباحث واتصلت برقم هاتفه. ولكنّ بيرت لم يكن في مكتبه، ويبدو أنّ هاتفه المحمول مقفلاً.

twitter @baghdad_library

(20)

تأخرت قليلاً على موعدنا، وأعلم أنّه لا يطيق عدم الدقّة في المواعيد. رأيت الغضب ظاهراً على وجهه فارتجف قلبي خوفاً. وقلت في نفسي: «.   تأخير بسيط أغضبه، فما عساه يفعل إزاء الأمور التي تستحقّ الغضب حقّاً؟»

«لوّثت إحدى القطّتين أرض الشقة، فكان عليّ التنظيف في آخر لحظة». ارتاحت تعابير وجهه تدريجيّاً، ورأيت ابتسامة متردّدة تزور شفتيه.

«لا بأس». قال، ثمّ شدّني نحوه وقبّلني.

ثمّ أطرق في التفكير، ومن عادته أن يعقد حاجبيه عندما يفكّر ولا عجب أنّ تجاعيد خفيفة باتت ترتسم على جبينه. ولكنّ وجودي بقربه كان بالنسبة إليّ كافياً لكي أشعر بالسعادة.

مررنا في الطريق بمناظر طبيعيّة خلاّبة من غاباتٍ ومروج وحقول مزروعة، ففكّرت بحسنات السكن في بلدة صغيرة محاطة بمناطق ريفيّة خضراء. فقلت: «هل تتحمّل السكن في مدينة كبيرة؟»

أجاب نات من غير أن يلتفت نحوي ولو للحظة: «أتحمّل السكن في أيّ مكان شرط أن نكون معاً. وكل ما عدا وجودنا معاً لا يهمّني».

فقلت: «يهمّني أيضاً أن أبقى غير بعيدة عن أمّي وعن جدّتي

وعن ميرلي. إذا انفصلت عنهنّ، سأشعر كأنّي فقدت أعضاء من جسمي».

لم يعلّق على كلامي هذا؛ ولاحظت أنّه شدّ قبضته فجأةً على مقود السيّارة.

أسندتّ رأسي إلى ظهر المقعد وأغمضت عينيّ، وفكّرت بحقيبتي وبالواقي الذكري الذي ما زلت أحتفظ به في داخلها منذ أن تعرّفت إلى نات. «تُرى هل سأستخدمه اللّيلة؟» قلت في نفسي.

* * *

وضع مالي صندوقه المملوء في العربة، وعاد ليأخذ صندوقاً جديداً ويتابع العمل. كان العرق يتصبّب منه والأفكار تتقاذفه عن سبب غياب نات في تلك الساعة عن المزرعة. «لا لا أصدّق أنّه ذهب ليزور الطبيب». قال لنفسه.

لا حاجة لقاطفي الفراولة إلى تصنّع الأعذار الصحيّة لتبرير غيابهم عن دوام العمل كما قد يفعل الموظّفون الذين يتقاضون معاشاً شهريّاً ثابتاً؛ فعملهم يقاس بعدد الصناديق التي يملأونها فحسب. «إذاً ما هو السبب الحقيقي لغيابه؟»

«ربّما يقوم نات سرّاً ببعض الصفقات التجاريّة إلى جانب عمله في المزرعة». فكّر مالي في نات وميله الواضح إلى الصمت والتكتّم عن أمور حياته الخاصّة؛ كما فكّر في أهميّة أن يعرف الواحد منهما ما يفعله الآخر، لكي يتمكّن من التستّر عليه وحمايته إذا دعت الحاجة، وفي هذا الوقت بالتحديد حيث يزداد تدخّل رجال المباحث والشرطة في كلّ ما يجري في المزرعة، وفي حياة العمّال.

كلّ من يعرف مالي ونات ينظر باستغراب إلى علاقتهما. حتى

twitter @baghdad_library

مالي نفسه يستغرب سبب تقرّب نات منه؛ فباستثناء ميل الاثنين إلى تناول البيرة في المساء، لا وجود لقواسم شخصيّة مشتركة تبرّر صحبتهما. حتّى خلال وجودهما معاً في المساء، يلاحظ مالي أنّ نات يبقى متحفّظاً، حتّى أنّه لم يُصَب بالسُّكر ولا لمرّةٍ واحدة؛ كأنّه يخاف من خسارة سيطرته على نفسه، ومن انهيار 'بنيانه' فجأةً. ثمّ أنّه لا يعرف بالفعل شيئاً كثيراً عن حياة نات الشخصيّة فيما يعرف هذا الأخير كلّ شيءٍ عنه.

* * *

وأخيراً رنّ جرس الهاتف! ضحكت إيمكي وتنفّست الصعداء. «أهلاً ميرلي! أين أنتما، ولما لا تتصلا بي؟»

انفجرت ميرلي بالبكاء. «ماذا حدث؟ لماذا تبكين». وراحت إيمكي ترجو الله في قلبها أن لا يكون قد حدث مكروهٌ لجنّا.

وبين الزفرات، أخبرت ميرلي إيمكي عن خوفها من أن يكون صديق جنّا الحالي هو صديق كارو الأخير نفسه. وفسّرت لها أيضاً وباقتضاب كيف توصّلت إلى هذا الاستنتاج.

«ولكن هذا لا يعني..» أحسّت إيمكي فجأةً بجفافٍ في فمها. فبلعت ريقها بصعوبة، وقالت: «أين جنّا الآن؟»

وبصوتٍ لا يكاد يُسمع، أجابت ميرلي: «خرجت معه».

«انتظريني. سأكون عندك بعد عشر دقائق!» قالت إيمكي، وطرحت السمّاعة من يدها، والتقطت حقيبتها وخرجت إلى السيّارة. لم تأبه بإغلاق باب المرآب، بل انطلقت بسرعة جعلت الحصى في الممر يتطاير وراءها.

* * *

لم يطل غضبه من جنّا بسبب تأخّرها. كيف يمكنه أن يغضب من جنّا بالذات لوقتٍ طويل؟ ثمّ أنّها لم تتأخر عمداً.

كانت جنّا تواكب موسيقى الراديو مدندنةً. لم تكن تعلم بالعاصفة الهوجاء القادمة نحوه.

«لا يمكن الاستخفاف برجال الشرطة والمباحث. وخصوصاً ذلك الرجل الذي يدعى ملزيغ». فكّر نات، وانتابه إحساسٌ مفاجئ بأنّ النهاية اقتربت، وملزيغ يتعقبه. وبات عليه أن يفعل شيئاً.

داعبت جنّا ذراعه بأحد أصابعها، وقالت: «أنا سعيدة!»

شدّ على يدها، وفكّر في أنّه لن يسمح للحزن من أن يمسّها ما دام حيّاً.

* * *

نعم. سوف تنتظر وصول إيمكي، وتنتظر أيضاً اتصال ضابط المباحث. فقد تركت له رسالةً صوتيّة تقول فيها إنّ الأمر مستعجل.

ليس من عادتها الوثوق برجال الشرطة، ولكنّها لا تملك خياراً آخر في هذا الوقت.

أمّا القطّتان فابتعدتا عنها كأنّهما أحسّتا بتوتّرها.

كانت ميرلي قد وضعت الأوراق التي طبعت عليها أشعار كارو والزهرة الصغيرة الجافّة وأوراقها؛ إضافةً إلى الوشاح القطني الأسود ورسالة جنّا. وكانت تعيد التفكير مراراً وتكراراً بكلّ هذه الأشياء وبالرابط بينها.

ثمّ قالت لنفسها بصوتٍ عالٍ: «ولنقل أنّ صديق كارو قاطف فراولة، هل يعني ذلك أنّه القاتل؟»

ولكنّها كانت متيقّنة من أنّه القاتل. فلو لم يكن كذلك، لحاول

twitter @baghdad_library

الاتصال بها وبجنّا بعد موت كارو. وبالتأكيد إنّه علم بموتها بعد أن نشرت جميع الجرائد الخبر. ولنفترض أنّه لم يقرأ الخبر، أليس من الطبيعي أن يفتقدها ويسأل عنها؟

ولم تتمالك ميرلي نفسها، فانطلق لسانها: «أيّها الرديء الزائف. لقد أحبّتك!»

* * *

عاد بيرت مجدّداً إلى مزرعة الفراولة ليتكلّم إلى ناثانيال تابان، وليستجوبه ويشدّ الخناق حول عنقه هذه المرّة. لم يعد لديه شكٌّ من أنّه يسير في الطريق الصحيح وسيلقي القبض على المجرم في وقتٍ قريب.

«ناثانيال ليس في المزرعة فقد ذهب إلى زيارة الطبيب». قالت زوجة المزارع وهي تتظاهر بالهدوء. فسألها بيرت على الفور إن بدا لها أنّ قاطف الفراولة مريضاً بالفعل.

«كلّا»، قالت زوجة المزارع. «كعادته، يبدو قويّاً كجذع سنديانة قديمة».

تساءل بيرت في نفسه: «لعلّ هناك علاقة بينهما!؟»

«إذاً، أودّ التكلّم إلى مالي كليستوف. هل يمكنك إحضاره؟» قال بيرت.

على مضض، خرجت المرأة من المكتب لكي ترسل بطلب مالي.

وتمنّى بيرت في نفسه ألا يصدُق حدسه هذه المرّة وأن يكون ناثانيال قد ذهب لزيارة الطبيب حقّاً.

* * *

بعد لحظات الرّعب التي عاشتها إيمكي خلال إجابتها على مكالمة ميرلي، قادت السيّارة بطريقتها المعتادة، واحترمت إشارات المرور الضوئية، وكانت تراقب جميع المشاة والسيّارات والدرّاجات. فتساءلت فجأةً إن كانت تعيش حالة ما بعد الصدمة؛ تماماً كالحالة التي مرّت بها عقب حادث اصطدام سيّارتها بسيّارة أخرى في المرّة الماضية. سبّبت لها الصدمة في تلك المرّة ردّة فعلٍ قويّة، ولكنّ تأثيراتها لم تظهر على إيمكي مباشرةً، بل بعد حين.

عندما اقتربت من برول، راحت تفكّر كيف ستتصرّف إن اتّضح لها أنّ شكوك ميرلي في موضعها. لن تتمكّن من فعل أيّ شيء سوى إعلام بيرت ملزيغ بالأمر، والأمل والصلاة.

لم تجد موقفاً لسيّارتها، فركنتها بمحاذاة الرصيف. وبعد دقيقة، كانت تتسلّق الدرج بسرعة إلى الشقّة.

وجدت ميرلي في انتظارها عند الباب والدموع في عينيها. فأخذتها بين ذراعيها بحنان، ثمّ مشت معها نحو المطبخ.

«أترين؟» قالت ميرلي وهي تشير إلى الطاولة. زهرة الفراولة وأوراقها؛ وهذا الوشاح الأسود الذي لا شكّ أنّه يستخدمه لحماية رأسه وتجفيف عرقه. تتخيّلين كيف يتعرقّون تحت حرارة الشمس.

تذكّرت إيمكي مشهد قاطفي الفراولة الذي تراه كلّما اخترقت القرية في طريقها إلى البيت. نعم، معظمهم يستخدم مثل هذا الوشاح، أو يعتمر قبّعة لحماية رأسه.

«لا أصدّق كم كان قريباً منّا كلّ ذلك الوقت. !؟» قالت إيمكي. «نعم كل هذه الدلائل التي جمعتها ميرلي تشير إلى أنّ صديق كارو قاطف فراولة. ولكن هل يعني ذلك بالضرورة أنّه القاتل؟»

twitter @baghdad_library

«ولماذا لم يسأل عنها قطّ بعد اختفائها؟» أجابت ميرلي وكأنها تقرأ أفكار إيمكي. وتابعت: «. لو لم يكن هو القاتل!؟»

«إنّها على حقّ». قالت إيمكي في نفسها. «والاستنتاج الذي توصّلت إليه منطقيّ وغير معقّد».

ثمّ التقطت ميرلي إحدى الأوراق ووضعتها في يد إيمكي.

أهلاً بك أيّها الرجل الأسود
أنت تنتمي إلى الظلمة وليس إليّ
أهلاً بك أيّها الحبيب
تعال معي واخرج إلى النور.

«بعد انتهاء عمله، يتوارى هذا الرجل عن أعين الناس، كما تفعل الفئران. لم يخبرها أيّ شيء عن حياته؛ ومنعها من التكلّم عنه إلى أيٍّ كان». قالت ميرلي باشمئزاز.

وفكّرت إيمكي أنّه يفعل الآن الشيء نفسه مع جنّا. وتذكّرت المقطع الشعري الذي يقول:

وعدتني بأن تعيش معي حياتك
ولكنّك لا تصارحني بشيء عنها
فيما أنت تعلم كلّ شيءٍ عنّي.

كان تايلو قد رفض مساعدتها في فهم هذه الأشعار؛ قائلاً أوّلاً، إنّها تعابير أدبيّة لا ترتبط ضروريّاً بالواقع. وثانياً، لا يمكنه الحكم على أشخاص لم يلتقِ بهم قطّ. وثالثاً: «ليس من حقّي التدخّل في عمل المباحث الجنائيّة».

ولكنّ هذا المقطع الشعري يدلّ بشكلٍ صريح على أن كارو كانت تعاني من اليأس بسبب غموض هذا الرجل؛ هذا اليأس الذي دفعها إلى إيذاء جسدها من جديد.

ثمّ مدّت ميرلي يدها إلى الأوراق وأخذت من بينها واحدة، وطلبت من إيمكي قراءة السطور الثلاثة الأخيرة.

على شفتيك
تلك الابتسامة
الحمراء المريعة وحلوة المذاق.

«ابتسامته حمراء بلون الفراولة وحلوة المذاق أيضاً، ومع ذلك كانت مريعة بالنسبة إليها». قالت ميرلي.

«مهلاً!» قالت إيمكي، ورفعت يدها لتدلّك جبينها فقد شعرت فجأةً بصداعٍ شديد. «تمهّلي يا ميرلي في الكلام قليلاً لكي أتمكّن من استيعاب كلِّ شيء».

وتساءلت إيمكي: «هل باستطاعة القاتل التسلسلي الوقوع في الحبّ؟ هل استمرّت علاقة هذا الرجل بجميع ضحاياه فترة من الزمن؟ وهل لجأ إلى قتل حبيباته ردّاً على فتور العلاقة بينهما؟»

تمنّت إيمكي لو كانت تطرح هذه الأسئلة على نفسها تمهيداً للكتابة.

وفجأةً شعرت برعب شديد. لقد ذهب عنها مفعول الصدمة.

«علينا الاتصال بضابط المباحث فوراً». قالت، وهي تشعر بانقباضٍ مؤلم في معدتها من شدّة الخوف.

twitter @baghdad_library

«ليس في مكتبه. ولم يُجِب على هاتفه المحمول أيضاً». قالت ميرلي.

«إذا، فلنترك له رسالة». أجابت إيمكي.

«تركتُ له رسالة، وليس أمامنا الآن سوى الانتظار».

جلست إيمكي أمام الطاولة، وحدّقت في الأشياء التي وضعتها ميرلي على الطاولة.

«هل تعلمين إلى أين ذهبا؟» قالت إيمكي ولم يكن ذكر اسم ابنتها مع ذلك الرجل في جملةٍ واحدة أمراً سهلاً عليها.

هزّت ميرلي رأسها قائلة: «قالت جنّا إنّهما سيقصدان قرية تاريخيّة فيها آثار من القرون الوسطى، ولكنّها لم تذكر اسم القرية». وأعطتها رسالة جنّا.

عندما رأت إيمكي خطّ يد ابنتها، انفجرت باكية. فأخذتها ميرلي هذه المرّة بين ذراعيها بلطف وراحت تهدّئ من روعها. «سنجدهما». تمتمت ميرلي. «سنفكّر بطريقة ما لكي نجدهما».

* * *

الجوّ جميل في هذه القرية الصغيرة الهادئة. أعجبتني البيوت القديمة ذات التصميم الخاص والساحة المرصوفة بالحصى في وسطها. ولكنّي أعلم أنّ أهل ذلك الزمن، كانوا يتّهمون النساء ظلماً بأنّهن ساحرات ويقومون بإحراقهن في مثل هذه الساحة.

فقلت: «يجب أن لا ننسى الوحشيّة التي كانت تسود ذلك العصر».

وضع نات ذراعه حولي وأجاب: «لا فرق بين ذلك العصر وعصرنا سوى أنّ الإنسان الحالي طوّر أساليبه. هذا كلّ شيء».

كنت أجد نات مزيجاً عجيباً من المتناقضات. فمرّةً، تراه يفرح كالطفل أمام كلّ شيءٍ جميل. وأخرى، يتكلّم بمثل هذا التجهّم. وفكّرت ربّما يعود السبب إلى كونه أكبر منّي سنّاً وأكثر تجربةً.

جلسنا في أحد المقاهي وتناولنا فنجاناً من القهوة. وتأمّلت في وجه نات ووجدته هادئاً ومطمئناً، فانحنيت نحوه وقبّلته على خدّه. وقلت في نفسي: «سأتحلّى بالصبر دوماً، وأعدك بأن أفعل كلّ ما في وسعي لإسعادك».

* * *

رنّ جرس الهاتف فيما كانت إيمكي وميرلي تتفحّصان الخريطة. هنالك عدد كبير من القرى التاريخيّة في هذه المنطقة فكيف السبيل إلى معرفة إلى أيٍّ منها ذهبت جنّا مع ذلك الرجل؟

أخبرت ميرلي إيمكي بأنّ الرجل يدعى نات. لم تسمع هذه الأخيرة بمثل هذا الاسم من قبل، ووجدت نفسها أنّها تمقته، وتمقت كلّ ما يتّصل بذلك الرجل الذي، حتى لو لم يكن هو قاتل كارو، يكفيه سوءاً العذاب الذي تسبب لها به خلال حياتها.

«سوف أكون معكما في الحال». قال بيرت. ولم تمضِ نصف ساعة حتى كان يجلس مع الامرأتين في الشقّة مصغياً إلى التحليل المنطقي الذي أوصل ميرلي إلى استنتاجها.

«اسمه نات». قالت ميرلي. «وهو تقريباً في الثلاثين، و..»

قاطعها بيرت على الفور، وسألها بإلحاح: «ماذا تقولين؟ ما هو اسمه؟»

«اسمه نات. وهو..»

twitter @baghdad_library

«هناك بين قاطفي الفراولة من يدعى ناثانيال تابان، وصديقه يدعوه نات».

تجمّدت تعابير وجه إيمكي. أمّا ميرلي فأثبتت عينيها على بيرت، كأنّها أصيبت بصعقة كهربائية.

«ذهبت بعد الغداء مباشرةً إلى المزرعة لأقابله. ولكنّه كان قد ترك المزرعة من أجل زيارة الطبيب، كما ادّعى».

لم تعد إيمكي قادرة على التحمّل. فألحّت على ميرلي أن تتذكّر إذا ما كانت جنّا قد ذكرت أمامها اسم القرية حيث ذهبت برفقة ذلك الرجل.

وضعت ميرلي يديها فوق جبينها وحاولت استجماع ذهنها لتتذكّر. ولكنّ احتمال أن تكون جنّا قد ذكرت ذلك الاسم أمامها كان ضئيلاً. فقد تحوّلت جنّا في الفترة الأخيرة إلى السرّية والتزام الصمت مثل كارو.

* * *

أضفى جمال تلك الأبنية البسيطة هدوءً نسبيّاً على نفسه. ولكنّ عقله لا يزال يتخبّط في تقدير جميع الاحتمالات. يشعر أنّهم سيلقون القبض عليه عاجلاً أم آجلاً، وعلى الرّغم من عدم حدوث أيّ شيء بعد، إلاّ أنّه يخال يد ضابط المباحث تضغط على كتفه من الآن.

لا تبدو جنّا كأنّها تشعر بما يدور في داخله من قلق. وعندما التقت عيناهما، ابتسمت له.

أحسّ بنفسه كأنّه وحش مسجون في زاوية. كان قد تنبّه من قبل إلى ما يصاب به من شلل فكري عندما تجتاحه موجات المشاعر الصعبة.

«ما زالت الشرطة تفتقر إلى دلائل محسوسة ضدّي». فكّر محاولاً تشجيع نفسه. «ما زال لديّ الوقت لكي أتصرّف».

«ما رأيك لو نتمشّى قليلاً؟» كان وجهها الشابّ صافياً وخالياً من آثار الهموم التي لم تزرها بعد.

أشار نات عندئذٍ إلى النادل لكي يأتي بالفاتورة.

* * *

في طريق عودته إلى المكتب، اتّصل بيرت بآرنو كالمر وسأله إن كان ناثانيال يملك سيّارة.

أجاب كالمر باقتضاب: «نعم. ونوعها 'فيات بونتو' ولونها أسود».

«هل لديك رقمها؟» سأل بيرت.

«أعطني لحظة من فضلك». وسمع بيرت طقطقة كثيرة، ووقع أقدام، وخشخشة أوراق. ثمّ أجاب كالمر: «كلّا، لم أسجّله، أعتذر. هل أسأل العمّال لعلّهم يعرفونه؟»

«لا، شكراً». قال بيرت.

بالطبع ليس من الصعب على بيرت الحصول على هذا الرقم. ولكن أيّ دلائل يملكها ضدّ ناثانيال تابان عدا عن تلك الزهرة الهزيلة وأوراقها، والوشاح الأسود وبعض المقاطع الشعرية التي كتبتها فتاة هي الآن ميتة، ودفتر مذكّرات لا ذكر لاسم نات، أو ناثانيال فيه قطّ.

بين كلّ هذه الأشياء، لا شيء يشير حقّاً إلى أنّ ناثانيال هو القاتل.

وليس هناك دليلٌ أكيد أيضاً إلى أنّه ذهب برفقة جنّا الآن!

twitter @baghdad_library

وها أنّه لا يزال يستند إلى حدسه الغريزي، وإلى مجرّد احتمالات لا غير.

أفادت الشرطة في شمال البلاد أنّ اسم ناثانيال موجود في سجّل سكّان إحدى قرى المنطقة. والسيّدة التي تملك البيت حيث عاش ناثانيال في تلك القرية، أدلت إلى الشرطة بشهادة تؤكّد فيها إنّه رجلٌ هادئ ولم يصدر عنه أيّ تصرّف مؤذٍ خلال مدّة سكنه في بيتها.

على الرّغم من عدم وجود دلائل قويّة ضد هذا الرجل، وعلى الرّغم من كونه هادئاً وبعيداً عن المشاكل ومثالاً للمواطن الصالح بشهادة تلك السيّدة، سيدفع بيرت عجلة الملاحقة في اتجاهه. فقد سبق له في تاريخه المهني أن انطلق من دلائل أقلّ أهميّة ونجح. خصوصاً أنّه لن يسمح لنفسه قطعاً المغامرة بسلامة جنّا. وسيصدر في الحال أمراً بالتفتيش عن ناثانيال تابان وعن الفتاة.

وشعر بيرت بالتوتّر عندما تذكّر أنّ ميرلي حاولت الاتصال به خلال ساعة الغداء ولم تجده في المكتب، وحتّى هاتفه المحمول كان مقفلاً. ووعد نفسه عدم إقفال هاتفه المحمول بعد الآن في أيّ ظرف.

ثمّ اتصل برقم المركز وعاد إلى سيّارته، وشرع بإعطاء التعليمات لمطاردة ناثانيال.

(21)

«تعالي!» قال لها. «لنعد إلى برول». وفكّر في حزم أغراضه لحظة وصوله والانطلاق معها إلى مكانٍ مجهول. ولكنّ الشكوك ملأت رأسه. «لا بدّ من وجود حلٍّ آخر». قال في نفسه.

«سنعود الآن؟» قالت جنّا. «ولكن لم يمضِ طويلاً على وصولنا».

«أرجوك يا جنّا!»

«حسناً. إن كنت تصرّ على ذلك». ونظرت جنّا حولها كأنّها تودّع الأمكنة التي لم تكتفِ من مشاهدتها بعد.

أحسّ ناثانيال أنّ أمراً معيّناً كان يدور في رأسها. ميلها إلى التحفّظ كان يعجبه ويغضبه في آنٍ معاً. ففي رأسها زوايا عديدة قد تذهب إليها وتكون فيها وحيدةً وبعيدةً عنه.

وفي الطريق إلى السيّارة، أمسك بيدها لكي تبقى معه ولا تهرب إلى أفكارها مجدّداً. يجب أن لا تبتعد عنه قطّ!

* * *

بقيت المرأتان في الشقّة لكي يسهل الاتصال بهما من طريق الهاتف. كانت إيمكي تجلس بقرب الشبّاك وتنظر إلى الشارع، فيما قرّرت ميرلي صنع قالبٍ من الحلوى لكي تفاجئ جنّا به لدى عودتها.

twitter @baghdad_library

ارتاحت ميرلي لأنّ الهرّتين كانتا تلعبان وتقفزان وتصدران بعض الأصوات؛ إذ إنّ إيمكي لم تنبس بكلمة واحدة منذ ذهاب الضابط. والصمت التامّ قد يكون مخيفاً ومرتعاً للأوهام.

أعدّت ميرلي الطحين والبيض والعسل؛ وقامت بسحق بعض حبّات اللوز، وتحضير نصف كوبٍ من الزبيب. وما لبثت حتّى شعرت ببعض الارتياح فالعمل اليدوي مفيد لتخفيف الضغط النفسي.

ولكنّها لم تتمكّن من إسكات عقلها عن التفكير. فكّرت بكارو وبضحكاتها، وبوجهها وهي ميتة. ثمّ فكّرت بجنّا وبالمشاجرة التي حدثت بينهما وتحسّست الرسالة في جيبها، وأكّدت لنفسها أنّه من الأفضل أن تبقى الرسالة في متناول يدها لكي تتمكّن من إعادة قراءتها إذا لزم الأمر.

ثمّ فكّرت بذلك الرجل نات، وارتجف قلبها؛ فقرّرت إشغال نفسها والعزوف عن التفكير به.

* * *

قد يكون من الضروري أن يكلّمها الآن وحالاً لا يمكنه الاستمرار بالعيش بالطريقة ذاتها وانتظار ما سيحدث له ببرود أعصاب.

ولكن، من أين سيبدأ وإلى أيّ حدٍّ يمكنه مصارحتها؟ لا يعتقد أنّها ستتقبّل الحقيقة؛ فهي غير حاضرة لذلك بعد.

يمكنه أن يُقنعها بالذهاب معه لسبب غير السبب الحقيقي؛ الذهاب في رحلة مغامرة على سبيل المثال.

ولكنّ جنّا لن توافق على الذهاب معه من غير إخطار أمّها وصديقتها التي تدعى ميرلي بالأمر.

ولكنّ الوقت يجري بسرعة. ماذا عساه أن يفعل؟

* * *

ما هي المشكلة مع نات؟ كانت يداه ترتجفان على المقود، وسرعة السيّارة تزداد باضطراد. لم أجد الشجاعة لكي أسأله عن السبب؛ فقد بدا لي مختلفاً ومتجهّماً بطريقة غير عاديّة.

لم أتجرّأ أن أدير زرّ الراديو، وصوّبت نظري نحو الطريق. وكان يلتفت إليّ بين الفينة والأخرى من غير أدنى ابتسامة؛ فتساءلت أين ذهب ذلك الحنان من عينيه فجأةً؟

في حياتي، لم أشعر بالحيرة حول ما يجب أن أقوم به، وأفكّر به مثلما شعرت خلال تلك اللحظات. أردت لو أقترب منه وأضع يدي على كتفه ولكنّي تراجعت خوفاً من أن يصدّني. كنت أودّ أن أقول له: «أرجوك، كن لطيفاً معي ولا تمنع حبّك عني!»

انتابتني مشاعر اليأس والحيرة التي كنت أحسّ بها في طفولتي، عندما كان أبي يحرمني من حبّه فجأةً لكي يؤكّد لي على عدم رضاه عنّي؛ وغالباً ما كنت أجهل نوع الخطأ الذي اقترفته والذي تسبّب في غضبه منّي.

ولكنّي، وبعد دقائق، تنفّست بعمق واستقمت في جلوسي جيّداً، وقلت: «نات، هل لديك مشكلة؟»

* * *

كان البحث عن ناثانيال قد انطلق، وسيّارة شرطة متخفّية تنتظر أمام النزل الذي ينام فيه في برول، وفيها رجلا مباحث ينتظران رجوع هذا الأخير لإلقاء القبض عليه.

twitter @baghdad_library

وأمام المبنى الذي تسكنه جنّا وصديقتها، وقفت سيّارة شرطة ثانية تنتظر.

كان بيرت قد أرسل إلى زملائه في الشمال وصف ناثانيال الشخصي إضافةً إلى وصف سيّارته ورقم تسجيلها. ولكن جاء الجواب أنّ لا وجود لهذا الاسم بين سجلّات العمّال الموسميّين؛ ولا وجود لرقم السيّارة المذكور تحت اسم أيٍّ منهم. أمّا الوصف الشخصي فوعد الضابط أنّه سيتقصى ذلك الأمر بنفسه.

وهذا بالضبط ما كان بيرت يتوقّعه: لا وجود لاسم ناثانيال تابان في سجلّات العمّال الموسميّين في منطقتي جيفر وأوريخ ولا ذكر لسيّارته. والسبب قد يعود، بحسب ما فكّر بيرت، إمّا لعدم ذهاب ناثانيال إلى ذلك المكان أبداً، أو لأنّه استخدم اسماً وأوراقاً مزوّرة وسيّارة مختلفة خلال وجوده وعمله هناك.

* * *

كانت مشاعر الاحباط تتسلّل إلى إيمكي مع مرور كل دقيقة خلال ذلك الانتظار الطويل؛ غير أنّها راقبت تعامل ميرلي مع الموقف باعجاب شديد. صنعت ميرلي قالب الحلوى ثمّ نظّفت المطبخ، وأطعمت الهرّتين، وسقت الشتول، ووضعت جميع نفايات الشقّة في كيس واحد ورمتها في المستوعب عند أسفل الدرج. كما أنّها لم تتوقّف عن تحضير القهوة بين الفينة والأخرى.

ثمّ انتقلت ميرلي إلى طرح السؤال على إيمكي: «هل أنتِ جائعة الآن؟»

هزّت إيمكي رأسها نفياً، واعتذرت من ميرلي: «أعتذر لأنّي مجرّد وجود مملّ في الوقت الحاضر».

«إنّها الحيرة الصعبة». قالت ميرلي وجلست، ثمّ مسحت بقعة تكاد تكون غير منظورة عن الطاولة، ثمّ وقفت مجدّداً. «هذه الحيرة كافية لكي تفقدنا عقلنا».

«هل تظنّين. أنّها بخير؟» قالت إيمكي، وغصّاتها تخنق الكلمات في حنجرتها.

حضنتها ميرلي بين ذراعيها مطمئنةً: «إنّي متأكدّة من أنّها بخير. جنّا قويّة وتعلم كيف تدافع عن نفسها. وقد أكون مخطئة، ونظريتي لا أساس لها من الصحّة؛ وجنّا تتنزّه الآن مع صديقها، وسوف 'تموت من الضحك' وتسخر من قلقنا عليها عندما تعود».

«تموت من الضحك. يا إلهي!»

«أعني أنّها ستضحك كثيراً وتسخر منّا. يا ربّ. أرجوك أن تعيد جنّا إلينا بسرعة!»

تنبّهت إيمكي إلى أنّها أكبر سنّاً من ميرلي وأوسع خبرةً، ولذلك يترتّب عليها هي مواساة الفتاة وليس العكس. وبحركة متردّدة راحت تربتّ بيدها على ظهر ميرلي فتمسّكت هذه الأخيرة بها.

* * *

«هل من الضروري أن نعود إلى برول مباشرةً؟» سألتُ نات.

نظر نات إلى ساعته أوّلاً، ثمّ إليّ. ولم تزل تعابير وجهه غريبة.

«ليتنا نتمشّى قليلاً في الغابة، ألا ترغب في ذلك أنت أيضاً؟» قلت له وأنا أداعب ذراعه.

لم يجب عن سؤالي على الفور، فكأنّه لم يسمعني.

«سوف أتحوّل عن الطريق الرئيس عند وصولنا إلى المخرج التالي». قال أخيراً.

twitter @baghdad_library

فشعرت عندئذٍ بنبضات قلبي تتسارع.

* * *

بعد قرابة الساعة جاءه اتصال آخر من زميله في الشمال. تتطابق المواصفات الشخصيّة التي أعطاها بيرت مع عاملٍ يُدعى كيرت والز، كان يعمل في مزرعة للفراولة في منطقة جيفر خلال الفترة الزمنيّة المذكورة. يقول الذين عرفوا العامل كيرت والز إنّه كان يميل إلى العزلة، وكان لديه سيّارة، إنّما لا يذكر أحدٌ نوعها، ولا رقم تسجيلها طبعاً.

لم يسكن في البيوت المخصّصة لعمّال المزرعة، بل استأجر شقّة مفروشة صغيرة من شخصٍ يعيش خارج المنطقة؛ وهكذا لم يتعرّف به صاحب الشقّة سوى عبر الرسائل الخطيّة.

اجتمعت عاملات المزرعة على وصفه بالغرابة. لم يكن يتبادل الكلام مع الآخرين سوى عند اللّزوم؛ ولكنّه كان يذهب لشرب البيرة مع أحد العمّال في حانات البلدة من وقتٍ إلى آخر.

كان يقوم بعمله بشكلٍ صحيح وبقي في منأى عن الشكاوى. وعندما استجوبت الشرطة عمّال المزرعة بعد وقوع الجريمتين كان والز بعيداً عن دائرة الشكّ، خصوصاً أنّه كان في وقت وقوع كلٍّ من الجريمتين مع رفيقه يشربان البيرة في أحد حانات البلدة. لقد أعطى كلّ من الرفيقين في ذلك الوقت شهادته لتبرئة الآخر.

«تماماً كما فعل ناثانيال ومالي! وقد يكون مالي أكثر خبثاً ممّا تصوّرت». فكّر بيرت، واتّصل فوراً بصاحب المزرعة لتبليغ مالي الأمر بالمجيء إلى مكتبه في المركز. «حان وقت الحقيقة، ولا مجال للحوارات العقيمة بعد الآن».

ثمّ وقف بيرت أمام النافذة من حيث دخلت أشعّة الشمس، وراح يراقب المارّة من النساء والرجال، أفراداً وأزواجاً في ذهابهم وإيابهم. وفكّر في المجرم الذي ما زال يمشي طليقاً في مكانٍ ما بعيداً من هنا، ويده ممسكة بيد جنّا.

* * *

قامت ميرلي بكلّ ما يمكنها القيام به لتخفيف وطأة الانتظار. المطبخ يسطع نظافةً، وقالب الحلوى ينتظر من يأكله، والهرّتان تستلقيان باطمئنان بعد التهام طعامهما. أمّا جرس الهاتف فلم يتوقّف عن الرنين. والمتّصلون هم من رفاق ميرلي في جمعيّة أصدقاء الحيوان.

كلّ شيءٍ كان يحدث في آنٍ معاً. لقد داهمت الشرطة اثنين من الجمعيّة وألقت القبض عليهما فيما كانا يقومان بإحدى العمليّات.

أنهت ميرلي كلّ من تلك المكالمات بسرعة، إذ يجب أن يبقى خطّ الهاتف شاغراً أمام اتصالٍ محتمل من الشرطة أو من جنّا. كانت ميرلي تصلّي في قلبها إلى الله ليجعل جنّا تتصل؛ لعلّها كانت قد نسيت شيئاً وتحاول السؤال عنه. «أرجوك يا إلهي. اجعلها تتصل!»

كان خطّ هاتف إيمكي المحمول مفتوحاً. «ولكنّها قد تحاول الاتصال بي على هاتف البيت!» صرخت إيمكي فجأةً. «كيف لم يخطر في بالي هذا الأمر من قبل؟» وحالما رأتها ميرلي تطلب رقماً وتتكلّم: «تايلو! اسمعني، أحتاج إلى مساعدتك».

خرجت ميرلي من المطبخ لتتيح لإيمكي حريّة الكلام. وفي غرفتها جلست أمام المنضدة، ووضعت رأسها بين يديها. عندئذٍ خطر

twitter @baghdad_library

في بالها أنّها لو ركّزت تفكيرها على جنّا فقد تنجح في التواصل معها روحيّاً، أيّ بطريقة توارد الأفكار التي يؤكّد الكثيرون ومنذ زمنٍ بعيد صحّتها.

«هل تسمعينني يا جنّا؟ جنّا! جنّا. !!» نادتها بصمت.

* * *

كانت الغابة التي توقّفنا عند مشارفها جميلة كأنّها صورة من الخيال. تركت يد نات وركضت على الدرب المتفيّء بظل الأشجار الغضّة والمفروش ببساطٍ طري من الطحلب الأخضر وقشّ الصنوبر الكثيف؛ ورفعت ذراعيّ إلى السماء بنشوة، فانطلقت من حنجرتي صرخة تسبيحٍ عظيمة تلقفتها الأغصان الكبيرة وامتصّتها.

«جميل!» قال نات. وضمّني من الخلف وطبع قبلةً على عنقي. «ولكن لا تصرخي مجدّداً. فالغابات لا تحبّ الصراخ».

«هل هذا صحيح؟ ولكن عندما تكون في حالة حبّ، يمكنك القيام بأيّ شيء. لك الحقّ بأن تفعل كلّ ما تريد!»

أخذ رأسي بين يديه وقبّلني بحرارة وعشق كما لم يفعل أبداً من قبل. ولكنّه ما لبث أن تركني وحفّ وجهه بيديه كأنّه يريد محو جميع التعابير العاطفية عنه. ثمّ قال: «ألم ترغبي في نزهة على الأقدام؟»

لم أحبّ وقع صوته في تلك اللحظة؛ لم يكن يشبه صوت نات، بل صوت شخصٍ غريب.

* * *

ألغى تايلو جميع مواعيده لكي يلبّي طلب إيمكي ويذهب إلى بيت الطاحونة وينتظر بقرب الهاتف. فقد أحسّ من خلال صوتها على الهاتف بأنّها في حالة من القلق الرهيب.

أعطته إيمكي مفتاح البيت منذ زمنٍ بعيد، ولكنّه لم يكن هناك حاجة إلى استخدامه بعد، إذ لا يأتي إلى بيت الطاحونة إلاّ بناءً على تخطيطٍ مسبق معها.

كانت إيمكي قد أهدت كتاباً من كتبها إليه، وقدّمته إلى أصدقائها، واعتبرته فرداً من عائلتها؛ بيد أنّ إعطاءه مفتاح بيتها كان أهمّ الهدايا بالنسبة إليه. إعطاؤه المفتاح يعني السماح له بدخول حياتها في الصميم؛ ولذلك فهو يحترم قرارها هذا، ولا يسمح لنفسه قطّ بسوء استغلاله.

دخل إلى البيت وأحسّ كالعادة بجوّ السلام في داخله. ثمّ تخيّل نفسه منتقلاً إلى العيش تحت سقفٍ واحد مع إيمكي؛ ولكنّه عاد وفكّر بأنّ زمن الأحلام الرومنطيقيّة قد غاب منذ زمنٍ بعيد.

وكان يشعر بالقلق الشديد على جنّا؛ ويشكّ في قدرته على التركيز على بعض الأعمال المكتبيّة التي فكّر في إنجازها خلال جلوسه وانتظاره.

* * *

هل هو على حقّ أم أنّ ما يشعر به ليس سوى أوهام. «إنّها تبدو متحفّظة على غير عادتها، كأنّنا نلتقي لأوّل مرّة».

شدّها إليه وقبّلها من جديد. ولكنّه التزم السيطرة على مشاعره هذه المرّة، وبقيت عيناه مفتوحتان تراقبانها. أمّا جنّا فأغمضت عينيها وهي تبادله القبلة. «لا بأس. ما زالت كما هي، وأفكاره ليست سوى أوهام».

«لو كنت جاسوساً..» قال لها نات، وهو يلفّ ذراعه حول

twitter @baghdad_library

كتفيها، «لو كنت جاسوساً وكان عليّ مغادرة البلاد، ماذا تفعلين؟ هل تغادرين معي؟»

«بوند! جايمس بوند. مرخّص له بالقتل!» قالت بنبرةٍ مسرحيّة ضاحكة. «كنت دائماً أحلم بالسفر إلى بحار الجنوب وبلاد 'تنبوكتو' لا مانع لديّ».

شدّ على كتفها، وقال: «أتذهبين معي أم لا؟»

هذه لعبة غالباً ما كنّا نلعبها: «لو كنتُ شجرة. فأيّ شجرة سأكون؟ لو كنت زهرة. لو كنت، لو كنت..». ثمّ قبّلت أرنبة أنفه وهي تقول: «أنت لست جايمس بوند. ولست جاسوساً».

وقف في مكانه ونظر إلى عينيها: «هل تذهبين؟»

عندئذٍ، قرّرت أن تجاريه في اللعبة. وقالت: «حسناً، سأذهب. ولكن شرط أن نعيش في بيت صغير على الشاطئ. أستيقظ في الصباح وأسبح في البحر. وفي طريقي إلى البيت أشتري خبزاً طازجاً، وأوقظك من نومك بقبلةٍ طويلة. ثمّ لا أعود أبداً، أبداً إلى المدرسة». وضحكت ثمّ تابعت: «وأنت ستؤلّف كتباً أو ترسم لوحات فنيّة وتوقّعها باسم مستعار. لن تكون جاسوساً بعدئذٍ؛ لأنّك لو كنت كذلك فسأقلق كثيراً بشأنك».

«وسوف ننجب أطفالاً ولدان وبنتان». قال لها. لأنّ ما كانت جنّا تسرده في تلك اللّحظات، يتطابق إلى حدٍّ كبير مع حلمه عن حياتهما معاً في المستقبل.

«سيرث الصبيّان أنفكَ وعينيك».

«وسترث الفتاتان شفتيكِ وشعركِ وابتسامتك».

«سيكون لدينا كلباً صغيراً بالطّبع. كلبٌ ذو وبرٍ مفتول، ولكنّه

غير شرس. كما سيكون لدينا قططاً تتمدّد على المقاعد، وتتكوّم على مصاطب النوافذ».

«وستكونين زوجتي إلى الأبد».

«وسأحبّك وأحبّك وأحبّك».

ثمّ تخلّصت من ذراعه، وركضت إلى الأمام ضاحكة وسعيدة.

لم تأخذ سؤاله على محمل الجدّ. وكان الأمر مجرّد لعبة بالنسبة إليها.

* * *

أجاب مالي عن سؤال بيرت بتردّد وحذر: «لا لم أدلِ في حياتي بأيّ شهادة لتبرئة أيّ من الناس ولا لتبرئة نات. كنّا نشرب البيرة معاً. هذا ما أقوله لك بكلّ تأكيد».

«وكأن لقولك عندي أيّ مصداقيّة!» قال له بيرت في نفسه. وتابع بنبرةٍ مرتفعة: «هل من شهود؟»

«لست متأكّداً. كنّا ننتقل من حانةٍ إلى أخرى، ونلتقي بأناسٍ كثيرين. ولكنّي لا أعتقد أنّهم سيذكرون وجوهنا بعد ذلك؛ فمعظمهم كان قد أصابه السكر مثلنا».

«وهل كان السيّد تابان برفقتك طيلة الوقت؟»

هزّ مالي رأسه إيجاباً، وعصر قبعته بأصابعه الخشنة.

«طيلة المساء؟ وطيلة الليل؟»

هزّ مالي برأسه مجدّداً. «لم نعد إلى البيت قبل ساعات الفجر».

«سكارى؟»

ضحك مالي، وقال: «طبعاً. كنّا نشرب الكحول».

«إلى أيّ درجة من السكر؟»

twitter @baghdad_library

«إلى درجة عالية. كلانا، نات وأنا، كنّا نترنّح من السكر».
«كيف عدتم إلى البيت؟»
«في سيّارة نات».
«وفي حالة السكر الشديد التي كنتم فيها!؟»
لم يجب مالي.
«ومَن قاد السيّارة؟»
«نات بالطّبع. لا يسمح نات لأحد أن يقود سيّارته، فهي مقدّسة بالنسبة إليه». أجلس مالي القبّعة بين يديه، وأضاف: «يمكن لنات أن يقود سيّارته ولو كان تحت تأثير الكحول. يتحمّل جسمه الكحول إلى درجة كبيرة».
«شكراً. هذا كلّ شيء اليوم».
«اليوم؟» سأل مالي ممتعضاً. «هل تريد القول. . ؟»
«نعم. أريد القول إنّي قد أدعوك للإجابة عن أسئلة جديدة».
وقف مالي وارتدى قبّعته ومشى إلى الباب متعثّراً، فقد لا يُحسن من تعوّد الحياة في الهواء الطّلق التحرّك براحة داخل جدرانٍ أربعة.
«إيه! سيّد كليستوف؟»
استدار هذا الأخير نحو بيرت، وقد أعدّ نفسه لتلقّي المزيد من الأسئلة البغيضة.
«إنّك بالتأكيد لا تعرف أين هو رفيقك الآن؟»
«كلّا. لا يصارحني نات عن أموره الخاصّة. لو كنت أعرف ذلك، لأخبرتك».
ثمّ فتح مالي الباب وشقّ طريقه إلى الخارج بسرعة.
لاحظ بيرت الرائحة التي تركها مالي كليستوف بعد خروجه،

وكانت مزيجاً من رائحة العرق والصابون والكولونيا الرخيصة، فذهب نحو النافذة فوراً وفتحها واستنشق نفساً عميقاً.

كان مالي كليستوف شديد السكر كما اعترف هو نفسه. وهذا يعني أنّه كان في حالة شلل ذهني كامل. ويعني أيضاً أنّ شهادته عن مكان وجود ناثانيال في وقت وقوع الجريمة أصبحت غير مقبولة، إذ كان بإمكان هذا الأخير إقناع مالي عمّا جرى في اليوم السّابق بالطريقة التي يستسيغها.

«أنت حاذق يا نات، ولكن جاءك من هو أحذق منك». فكّر بيرت وأحسّ بالنشوة وبقرب الانتصار. ولكنّ أعصابه ستبقى مشدودة إلى أن تعود جنّا إلى بيتها سالمة.

twitter @baghdad_library

(22)

لم تستهوني تلك اللّعبة، خصوصاً أنّه أراد أن يذهب بعيداً فيها حتى كاد اللّعب يتحوّل إلى جدّ فجأةً. ورحت أصطنع الضحك لكي أغطّي شعوري بالحرج. تعوّدت أن أفعل ذلك بصحبة نات، إذ لا أطيق أن أشعر بالحرج أمامه لوقتٍ طويل.

لم أكن قادرة لكي أتوقّف عند تلك النقطة، وأطلب من نات توضيحاً حول سلوكه الغريب في ذلك اليوم. علاقتنا لا تزال حديثة العهد، وما زلت أجهل كثيراً من الأمور بشأنه.

كما كان يجهل هو أيضاً الكثير عنّي. يجهل نات مثلاً إنّي أعشق السلام والانسجام وأكره المشاجرة والنزاع. وأنّ دموعي تنهمر بسرعة؛ وثقتي بنفسي قد تكون ضعيفة في بعض الأحيان.

سوف يكتشف كلّ هذا في يومٍ من الأيّام، وسيكون عليه تقبّله. كما إنّي سأتعلّم كيف أتقبّل طبعه الذي يبدو غريباً أحياناً.

«أنا جادٌّ في هذا الأمر يا جنّا. أجيبي: هل. ؟» قال وهو يقود السيّارة مجدّداً إلى طرف الطريق استعداداً للوقوف؛ فلاحظت النور والظلّ يتراقصان فوق وجهه.

قبّلته وأدخلت يدي تحت قميصه. وقلت له في نفسي: «لا تقل شيئاً، بل تحسّسني».

كان الهدوء سائداً، وحتى غناء الطيور كان مكتوماً إلى حدٍّ بعيد. إنّه المكان المثالي والوقت المثالي؛ وقد طال انتظارنا.

«دعني أظهر لك حبّي». قلت له هامسة.

تجمّد لحظةً. ثمّ عاد وشدّ جسده إلى جسدي.

* * *

عادت إيمكي في ذاكرتها إلى طفولة جنّا. وتذكّرت تلك المرحلة كما البارحة. حتى إنّها تذكّرت رائحة مستحضرات الأطفال من شامبو وكريم وبودرة كما لو لم تزل في أنفها.

في المساء، غالباً ما كانت تجلس بقرب سرير جنّا وتبكي لشدّة سعادتها بها.

وكانت تشعر بما تحتاجه جنّا تلقائيّاً بفضل غرائزها الطبيعيّة القويّة. فتلبّي كلّ حاجات ابنتها بأكمل صورة ممكنة؛ أمّا لو تعرّضت جنّا لخطر في ذلك الزمن لاستطاعت إيمكي الدفاع عنها بشراسة اللبؤة.

ولكن، ما الخطب الآن؟ هل هرمت اللبؤة وفقدت أسنانها؟ ما الذي يمكنها القيام به الآن عوضاً عن الجلوس بهذه الطريقة؟

ماذا يمكنها أن تفعل بعد أن كبرت طفلتها ومشت في طريقها؟ وخصوصاً أنّها تجهل كلّيّاً تلك الطريق؟

وأحسّت بدافعٍ قوي للاتصال بزوجها الذي لم يعد زوجها ولكنّه الإنسان الوحيد الذي يشاركها حقيقةً خوفها الشديد على جنّا.

اتّصلت برقم مكتبه. وعندما سمعت صوته أحسّت بميلٍ شديد إلى البكاء، ولكنّها أمسكت نفسها وسردت له ما يحدث باقتضاب شديد. ثمّ طلبت منه مراقبة الهاتف لعلّ جنّا تتصل به.

twitter @baghdad_library

أمسك والد جنّا أنفاسه قليلاً ثمّ انفجر لاهثاً: «يا إلهي! يا إلهي!».

بعد انتهاء المكالمة راحت إيمكي تقطع أرض المطبخ ذهاباً وإياباً وهي تفكّر «لو أنّها نجحت بالمحافظة على زواجها، هل كانت جنّا ستتعرّض إلى ما تتعرّض إليه الآن؟» علت الأصوات في رأسها وتشابكت، فرفعت يديها إلى أذنيها لتصمّها.

* * *

لم يكن يريد ذلك ليحدث. وليس بهذه الطريقة. لم يكن يريده ليحدث قطّ. لم يحن الأوان بعد. ولم يكن جاهزاً بعد.

إنّها مثل غيرها. مثل غيرها. مثل.

كان الدمع جارياً فوق خدّيه، ولم يمسحه.

ومع الحزن، كان الغضب عنيفاً وقانياً.

غرست الفتاة أصابعها في شعره، وكانت تتمتم كلمات رقيقة لم يسمعها. لقد أحبّها؛ فكيف تطعنه في ظهره بهذه الطريقة؟ وتخيّب آماله وتلوّث مشاعره وجسده وأفكاره.

وسمع صراخاً من بعيد. صراخ عذاب وغضب.

وقال بهمس: «لماذا يا جنّا؟»

* * *

نامت القطّتان على المقعد الطويل في المطبخ. وبقيت إيمكي واقفة أمام النافذة تراقب الشارع؛ حتى كادت ميرلي أن تنسى أنّها موجودة معها في الشقّة.

رفعت ميرلي الأدّلة التي كانت قد وضعتها على الطاولة. لا

خوف عليها من أن تنساها ما بقيت حيّة! ومكانها، وضعت بعض الصحون والشوك والسكاكين، وفي الوسط وضعت قالب الحلوى وزيّنته بالشموع حتّى أصبح كلّ شيء حاضراً لاستقبال جنّا.

«كنت دائماً أخاف على جنّا». قالت إيمكي. وأضافت وهي تضحك بمرارة: «وأكثر ما كنت أخاف منه هو أن تذهب مع رجلٍ غريب».

«وها أنّ الكابوس بات حقيقة». فكّرت ميرلي. «لقد ذهبت بالفعل مع رجلٍ غريب من غير أن تخبر أحداً إلى أين ذهبت».

«مرّت السنون ولم يحدث شيء. وعندما بردت حدّة هواجسي، وأقنعت نفسي بأنّ طفلتي أصبحت امرأة ناضجة حدث الذي طالما كنت أخشاه، وذهبت مع رجلٍ غريب».

«إنّه ليس غريباً بالنسبة إليها». قالت ميرلي.

استدارت إيمكي نحوها، وقالت: «إنّها لا تعرفه سوى منذ مدّة قصيرة، وتجهل بالطّبع أموراً كثيرة عنه. ثمّ أنّ لا أحد منّا يعرف شيئاً عنه».

«لا تخافي. الشرطة تبحث عنهما وسوف تجدهما قريباً. لن تُصب جنّا بأي مكروه. لا تخافي!» وقامت ميرلي ووقفت إلى جانب إيمكي عند النافذة.

الناس في الخارج يستمتعون بفصل الصيف وكلّهم سعداء بالطقس الجميل ويرتدون الثياب الرقيقة والمزركشة. ولكن لا أحد منهم يُدرك أنّه يمشي على رمالٍ متحرّكة قد تنشقّ وتبتلع جميع آماله في أيّ لحظة!

* * *

twitter @baghdad_library

أطلق صرخة فجّرت السكون وأفزعت العصافير فطارت بعيداً عن الأغصان. لم تكن صرخة نشوة، بل صرخة غضب ويأس.

لم أتحرّك.

لماذا الغضب؟ لما؟ لما؟ لما؟

بقيتُ في مكاني والتزمت الجمود التامّ لكي لا أستفزّه أكثر.

وهبط الخوف من رأسي إلى قدميّ وبتّ أشعر بصعوبة في التنفس والحركة.

ماذا جرى؟

أجهش نات في البكاء ووجهه فوق عنقي. وباتت دموعه تتدحرج فوق كتفي وصدري كما لو كانت دموعي. ثمّ مضى يطلق عليّ أسوأ النعوت ويستمرّ في البكاء.

لم أتمكّن من دفعه بعيداً عنّي. ولم أنظر إلى وجهه. ولم أصل بأفكاري المتسارعة إلى أي نتيجة منطقيّة.

راح يهزّني، ثمّ يدفعني بعيداً عنه، ثمّ يشدّني إليه ويعانقني من جديد.

وبعد ذلك، غامرت بالنظر إلى وجهه وتمنيت لو لم أفعل. كان يريد قتلي. لم أدرك السبب، ولكنّه كان يريد قتلي.

* * *

«ما هذا الصوت؟» سأل هاينز كالباش زوجته.

كان الزوجان المتقاعدان يعيشان في منزلٍ منفرد، وغالباً ما يسمعان الأصوات القادمة من جهة الغابة.

«كأنّه صراخ. جماعة أخرى من الشباب على الأرجح».

لم ينسَ الزوجان بعد الضجيج الذي صدر عن مجموعة من

الشبّان والفتيات الذين أمضوا فرصة نهاية الأسبوع الفائت في الغابة. «إنّه أسلوب الجيل الجديد في المرح!»

«أظنّ أنّكِ على حقّ». قال هاينز، وتابع قراءة الجريدة.

بعد الانتهاء من الجريدة، سيتابع هاينز قراءة القصّة البوليسيّة التي بدأها منذ يومين. بعد تقاعدهما أصبح لدى الزوجين متّسعاً كبيراً من الوقت للقراءة. وقبل موعد وجبة العشاء سيذهبان بنزهة على الأقدام في اتجاه الغابة.

نظر هاينز إلى كلبه الاسبنيلي الهرم، لا شكّ أنّه سمع الصراخ ولكنّه بات كسولاً عن الحركة تماماً مثلهما.

نظرت ريتا كالباش إلى زوجها وابتسمت، فبادلها الابتسام.

* * *

«تصيبني الحيرة من عدم اكتراثكما واستخفافكما بأدنى شروط الأمن، أنتِ وجنّا. لماذا تقفلان هواتفكما عندما تخرجان من البيت؟»

«لا يخطر في بالنا أنّنا قد نتعرّض للأذى».

«حتى بعد المصيبة التي حدثت لكارو. ما زلتما تشعران بالأمان!؟» كانت هذه هي المرّة الأولى التي تتحاشى فيها إيمكي لفظ كلمة 'الموت'، خوفاً من طالع النحس الذي قد تجلبه.

«كلّا». قالت ميرلي وهي تهز برأسها أسفاً. «ولكنّنا توهّمنا أنّ حزننا الشديد وغضبنا كافيان لحمايتنا».

أوشكت إيمكي أن تتلفّظ بكلامٍ قاسٍ، ولكنّها تنبّهت وأمسكت نفسها عن مضايقة الفتاة المسكينة ميرلي التي ترزح تحت حمل المخاوف والشعور بالذنب. «لا تأبهي لما أقوله، أرجوكِ. من عادتي أن أكثر الكلام تحت وطأة القلق».

twitter @baghdad_library

ثمّ اتّصلت برقم هاتف ابنتها مجدّداً ولم تلقَ سوى الإجابة المسجلة التي تدعوها لترك رسالة. ولكنّها تركت أكثر من رسالة حتّى الآن من دون أن تلقَ جواباً.

عرفت إيمكي خطورة أن تستفزّ باتصالاتها العديدة الرجل. وحرصت برسائلها المسجّلة على أن لا تبدو شديدة القلق، فأيّ أمر مهما كان بسيطاً قد يثير شكّ المريض النفسي ويدفعه إلى السلوك الجنوني.

وقفت ميرلي أمام النافذة تنظر إلى المارّة، وتركّز على أمنيتها في أن ترى جنّا سائرة بينهم بين اللّحظة والأخرى. لعلّ الأمنية القويّة قد تتحوّل بإرادةٍ كونيّة فجأةً إلى حقيقة.

* * *

تحسّست العشب الرّطب حولي فلم أعثر على أي قضيب أو حجر كبير، ثمّ وقعت يدي اليمنى على هاتفي المحمول الذي كان قد وقع من حقيبتي.

كان صامتاً في تلك اللحظة؛ وراعني صمته أكثر من غضبه. ومن غير أن أفكّر مرّتين حملت الهاتف وصوّبته إلى جبينه بأقصى ما أوتيت به من قوّة.

صرخ ووضع يده على جبينه. استدرت إلى جهة الشمال ودفعته بعيداً عنّي. ثمّ قفزت على قدميّ ولذت بالفرار.

لم أكن قد خلعت تنورتي عندما تضاجعنا. حدث الأمر بسرعة وتنورتي لم تشكّل عائقاً لأنّها طويلة وقماشها خفيف. أمّا قميصي فمزّقه نات عند الصدر بقوّة لأنّه كان في عجلة شديدة لم تسمح له بفكّ الأزرار.

وركضت حافية القدمين فوق جذور الأشجار والأحجار، غير آبهة بالألم الذي كان يصيبني إلى أن وصلت إلى الدّرب الترابي. لم أتوقّف لكي أتذكّر الاتجاه الصحيح نحو الطريق الرئيس فاتخذت وجهة الشمال.

تنبّهت إلى الهاتف الذي ما زال في يدي، وقد بات مكسوراً وغير صالح للاستعمال، فآثرت رميه.

«لم أكن أسمع سوى رجع لهاثي ووقع أقدامي؛ ولمَ الصراخ طلباً للنجدة؟ فذلك سيفقدني جزءاً من قوّتي وقدرتي على الجري في حين أنّ أحداً لن يسمعني في هذا المكان المقفر».

ولكنّي فكّرت أنّه سيراني لو بقيت على الدّرب المكشوف، فدخلت مجدّداً إلى ما بين الأشجار في الجهة الأخرى من الغابة.

لم أجرؤ على النظر إلى ورائي سوى بعد أن قطعت حوالي عشرين متراً إلى الداخل. لم ألمحه، فتأمّلت أن يكون قد فقد وعيه على أثر الضربة.

تباطأت قليلاً في الجري بفعل كثرة النباتات الشوكية التي كانت تمسك بأطراف تنورتي. ورحتُ أنظر حولي وأمامي باستمرار خوفاً من أن ألتقي به على حين غرّة.

«كارو!» همست. «كارو، يا حبيبتي!»

بتّ أعلم من قتلها الآن. وها أنا بدوري أركض هرباً منه.

إذاً، هذا ما شعرت به كارو قبيل موتها. إنّه الرّعب. الرّعب الصّرف العاري من الأقنعة.

* * *

twitter @baghdad_library

رفع الكلب رأسه وقام من مكانه ومشى بخطواتٍ متثاقلة نحو الباب.

«عد إلى مكانك أيّها العجوز». قال له هاينز كالباش مداعباً. «إنّهم شباب يمرحون ويهزجون».

لم يصغِ الكلب إلى صاحبه، بل مال برأسه وعوى.

«ربّما عليك أن تخرج وترى ما الأمر، فالكلب يتصرف بطريقة غريبة».

وضع هاينز السلسلة حول عنق الكلب وخرج برفقته مقرّراً الأخذ بنصيحة زوجته والانصياع إلى مزاج كلبه الهرم والمدلّع، والنبيه في بعض الأحيان.

* * *

يشعر بألمٍ في رأسه. وضع يده على جبينه فرأى دماً على أصابعه. «أين ذهبت؟ مهما حدث لها الآن، إنّها السبب وراءه».

وصل إلى الدّرب الترابية ونظر في كلّ الاتجاهات. لم يرَ أحداً وقدّر أنّها لن تصل إلى الطريق الرئيسة قبل نصف ساعة في جميع الأحوال.

ثمّ لمح شيئاً أسود اللون عند نقطة غير بعيدة عنه، فسار نحوه واكتشف أنّه هاتفها. «على الأقلّ، لن تتمكّن من الاتصال بأحدٍ الآن».

وتيقّن من أنّه سيجدها عن قريب، فلم يسرع بجريه. إنّه قويّ، وقادر وغضبه جنوني.

ونظره حادّ أيضاً. لقد لاحظ قطعة قماشٍ صغيرة عالقة على

الأشواك. نزعها وتفحّصها واكتشف أنّها نتفة من قماش تنورتها. فقرّر أنّ النهاية باتت قريبة.

* * *

كان سلوك الكلب غريباً بالفعل وهو يشدّ على السلسلة ليتخلّص منها، يهدر حيناً ويئنّ حيناً آخر. لعلّه يشعر بوجود سنورٍ بريٍّ في الجوار. بدا الكلب كأنّه لم يتعلّم من تجاربه فقد تعارك مرّتين مع السنور ولم يخرج رابحاً، وها إنّه متحمّسٌ لمطاردته من جديد.

«هيّا يا رودي. انتهِ من قضاء حاجتك لكي نعود إلى البيت». قال هاينز كالباش.

رفع الكلب رجله؛ ووقف كالباش يتأمّل منظر بيته الجميل المختبئ وسط مجموعة من أشجار الزان الطويلة حتى يخاله الناظر بيتاً مسحوراً كما في الأساطير. تذكّر كالباش جدوى السرعة التي اعتمداها، هو وزوجته، في اتخاذ القرار لشراء هذا البيت الذي كان يسكنه حارس الغابة السّابق ما إن عُرض للبيع في الجريدة. طالما حلم الزوجان بالسكن في هذا المكان القريب من الغابة والبعيد نوعاً ما عن قرى المنطقة.

يحبّ هاينز كالباش الغابة ويشعر بالاطمئنان بقربها؛ وغالباً ما عبّر عن شعوره أمام أصدقائه بأنّ الخطر الأكبر يأتي من الإنسان وليس من غيره.

«هل انتهيت يا رودي؟»

لم يصغِ الكلب إلى صاحبه، وراح يصدر هديراً محموماً من عمق حنجرته ويشد على سلسلته وينبح.

* * *

twitter @baghdad_library

ما زلت أركض بين الأشواك والحجارة والأغصان المتكسّرة وأوشكت قدماي على الاحتراق من شدّة الألم، أما ساقاي فكانتا تهدّدانني بالالتواء والعجز عن المتابعة في كلّ لحظة. تلاحقت أنفاسي بشدّة وعلت جلبة لهاثي فتساءلت: «ماذا لو سمع لهاثي وعرف مكاني؟» ولكنّي لم أجرؤ على التوقف للراحة، ولا حتى لثانية واحدة، فربّما كان ورائي.

استحوذ الخوف عليّ، فتلاشت ساقاي وتعثّرت خطواتي ووقعت أرضاً.

«كارو، أرجوك أن تساعديني!» ناديتها همساً.

فكّرت بها، ولم أعد أرى أمام عينيّ سوى وجهها.

فقمت من عثرتي وجريت بسرعة.

* * *

ما أمر هذا الكلب اليوم؟ إنّه يصرّ على الإفلات من السلسلة والجري. لماذا يصرّ على مطاردة السنور طالما أنّ هذا الأخير يهرب حالما يشمّ روائحنا؟

«رودي! توقّف في مكانك. لا تتحرّك!»

ولكنّ رودي رفض الانصياع، وهدر في وجه صاحبه هذه المرّة. ثمّ أطلق نباحاً عالياً.

* * *

يكاد رأسه ينفجر من الألم والدماء ما زالت تتساقط من جبينه المجروح وتسيل فوق عينيه. ومع ازدياد الألم يتضاعف حنقه.

لم يعد غضبه حارّاً قانياً، بل بات بارداً وأسود.

ركض وراء الفتاة عبر الغابة، وعلى الرّغم من غضبه وألمه، ما زال يفكّر بوضوح.

سيركّز على التقاطها أوّلاً، وبعد ذلك سيؤدّبها.

* * *

كانت ريتا كالباش قد تركت البيت أيضاً وتبعت زوجها. وقفت إلى جانبه ونظرت نحو الغابة، ومثله، لم تلاحظ شيئاً. وبأسلوبها المفكّر والهادئ قالت لزوجها: «الكلب يتصرّف بغرابة ملفتة، أقترح أن تفكّ سلسلته. أطلقه!»

لم يتأخر هاينز عن التنفيذ فقد كان يفكّر بذلك هو نفسه.

شبكت ريتا ذراعها بذراع زوجها ووقف الاثنان ينتظران النتيجة.

* * *

وفجأةً سمعتُ صوتاً. إنّه عواء كلب. لم أتوقّف، ولكنّي كنت أنصت على الرّغم من صوت لهاثي لأسمع أكثر.

«نعم إنّه عواء، وهو يقترب منّي». ورحت أعدو في اتجاه مصدر الصوت. وقلت في نفسي إنّ وجود الكلب يدلّ على وجود أناسٍ في مكان غير بعيد. وانهمرت دموعي.

يا له من كلب صيد جميل! إنّه من نوع سبنيلي الأنيق المرقّط بالأبيض والأسود. قفز نحوي ونبح مجدّداً ثمّ تراجع وركض إلى الأمام؛ ثمّ استدار نحوي وتوقّف في انتظاري. كان يريدني أن أتبعه ففعلت. لعلّ كارو هي التي أرسلته لإنقاذي.

* * *

وصل الكلب أوّلاً، ثمّ الفتاة حافية القدمين وفي ثياب ممزّقة. بدت مرهقة جدّاً، ووجهها مغطّى بالغبار والدموع.

twitter @baghdad_library

«لندخل إلى البيت أولاً!» قالت لاهثة وهي تبكي وتنظر إلى الخلف في اتجاه الغابة.

فهم العجوزان فوراً قصدها، وأخذا بذراعيها، كلّ من جهته، وسارا معها حيناً، وحملاها حيناً آخر حتى البيت.

أقفل هاينز كالباش باب البيت من الداخل، وأحكم إغلاق جميع النوافذ؛ ثم توجّه إلى الهاتف واستدعى الشرطة.

وفي تلك الأثناء كانت زوجته قد ساعدت الفتاة لتستلقي على الأريكة وغطّتها بشالها الكبير. ثمّ أحضرت خرقةً قطنيّة مبلّلة وراحت تمسح وجهها برفق، وتنظر إلى قدميها بشفقة.

أجهشت الفتاة بالبكاء، وكلّ ما استطاعت ريتا فعله هو البقاء بقربها والإمساك بيدها.

عندما عاد الكلب الذي بقي حارساً بقرب الباب إلى الهرير، فزعت الفتاة واستقامت في جلستها، وتسمّرت عيناها على الباب.

* * *

إنّها في الداخل، لقد شعر بوجودها.

تنبّه إلى وجود الكلب من خلال نباحه. ولكنّه لم يتراجع، واقترب من المنزل ودار حوله لعلّه يجد نافذةً مفتوحة.

لقد أغلقوا جميع النوافذ والأبواب وجعلوا من هذا المنزل قلعة حصينة. ماذا يمكنه أن يفعل؟ هل يكسر زجاج الباب الرئيس؟

حاول أن يقدّر حجم الكلب من خلال قوّة نباحه، وعندما لم يتوصّل إلى نتيجة راح يفتّش عن شيءٍ في الحديقة يمكن استعماله كسلاح.

ثمّ لاحظ وجود بعض الحجارة في بركة الماء بين سور البيت

والكاراج، فالتقط أكبرها وعاد إلى باله قول جدّته: «**عندما يبدو الأفق مظلماً جدّاً، انتظر نوراً في مكانٍ ما**». كانت محقّة في هذا الأمر، إنّما مخطئة في أمورٍ كثيرة.

كان عليه أن يغلق فمها وفم جدّه مرّةً واحدة، بعدما كبر وأصبح أقوى من كليهما. سيهجر الخوف عينيه إلى الأبد ولن يتجرأ أحدٌ في العالم على ضربه من جديد.

وخصوصاً تلك الفتاة التي تختبئ هنا.

ومشى نحو المصطبة الأماميّة واقترب من الباب وأرداه بالحجر فانكسر.

لكنّه ضحك عندما اكتشف أنّ الكلب هرم وصغير الحجم!

واستعدّ للمعركة.

twitter @baghdad_library

(23)

إلقاء القبض على القاتل الذي يهوى جمع القلادات

ألقت الشرطة عصر أمس القبض على القاتل التسلسلي المعروف بهاوي القلادات.

اعترف ناثانيال تابان العامل الموسمي بأنّه قاتل كارو ستايغر من بلدة برول، وسيمونا ريدلف من هوهنكرشن، كما اعترف بأنّه أيضاً قاتل ماريلاّ نوبر من منطقة جيفر، ونيكول برغمان من أوريش.

صرّح ضابط المباحث بيرت ملزيغ بأنّ الدوافع التي حدت بالمجرم لارتكاب جرائمه لم تزل مجهولة؛ وهناك احتمال أن يكون ناثانيال تابان نفسه مسؤولاً عن جرائم أخرى.

كما صرّح ملزيغ أنّ المعلومات التي أدّت إلى إلقاء القبض على المجرم وصلت إلى الشرطة من طريق صديقة الضحيّة كارول ستايغر والفضل يعود لها في منع وقوع جريمة أخرى مماثلة.

* * *

وضع بيرت الجريدة من يده وتوجّه إلى ماكينة القهوة. ثمّ عاد إلى مكتبه ومدّ ساقيه وترك لنفسه حريّة الاستمتاع بلذّة الراحة بعد العناء.

حاول ملزيغ الاتصال بمنزل إيمكي ثالهايم بعد أن تمّ القبض على المجرم مباشرةً ولكنّ صوت رجلٍ مهذّب وواثق أجاب على المكالمة. ثمّ اتّصل بهاتف ثالهايم المحمول، فأجابت عليه إيمكي بمزيجٍ من البكاء والضحك.

وهكذا انتهت قضيّة جنّا قبل أن تبدأ، «أليس المطلوب هو هذا وليس سواه!؟»

بعد أن أغدق رئيس القسم على بيرت وفريقه قسطاً وافراً من المديح، تمنى لو أنّ بيرت، في حديثه إلى الإعلام، احتفظ بفضل حلّ القضيّة لمباحث الشرطة وحدها دون غيرها.

«وهذا بالطّبع هو المطلوب عادةً، وليس سواه».

وما إن انتهى بيرت من شرب فنجان القهوة، حتى أخذ سماعة الهاتف وطلب رقم منزله. «هلا حبيبتي! كيف حالك؟»

* * *

جنّا لا تزال نائمة. «يجب أن ترتاح جيّداً هذا الصباح، وسيكون لدينا كلّ الوقت لاحقاً لنتحدّث». فكّرت ميرلي بذلك، فيما كانت تتنقّل في أرجاء الشقّة على رؤوس أصابعها.

وصلت جنّا إلى الشقّة في اللّيل وهي لا تزال مذعورة. رفضت أن تأكل من الحلوى التي أعدّتها ميرلي، أو أن تشرب الشاي من يد أمّها. وكلّ ما استطاعت ميرلي وإيمكي القيام به كان تنظيف جروحها وتغيير ثيابها وحملها إلى الفراش.

فتحت ميرلي غرفة كارو بهدوء ودخلت. كلّ شيءٍ لا يزال على ما هو عليه وإحساسها بوجود كارو في الغرفة لا يزال قويّاً.

twitter @baghdad_library

«ارتاحي يا حبيبتي كارو الآن حيث أنتِ. لقد تمّ القبض على المجرم ولن يتسنّى له إيذاء أيّ كان بعد الآن».

ربّما ستفكّر الفتاتان لاحقاً بتأجير غرفة كارو إلى فتاةٍ أخرى. ستبقى كارو في قلبهما إلى الأبد بالطّبع، ولكن ما زال الوقت مبكراً لذلك.

تنصّتت مجدّداً إلى غرفة جنّا ولم تسمع صوتاً. يبدو أنّ صديقتها ما زالت بحاجة إلى المزيد من النوم.

وسيكون أمامهما كثير من الوقت من الآن وصاعداً.

* * *

لم يكن من السهل على إيمكي أن تترك ابنتها في تلك الليلة وتعود إلى بيتها، ولكنّها فضّلت الابتعاد قليلاً، لعلّ ذلك يولّد لدى جنّا رغبةً أكبر في الاقتراب من أمّها، وربّما العودة إلى العيش معها.

استقبلها تايلو في البيت بحرارة وشعرت أنّ الوقت قد حان لكي يعيشا معاً تحت سقفٍ واحد.

وبعد أن انتهيا من تناول وجبة المعكرونة التي كان قد أعدّها تايلو بعناية وأعاد تسخينها، ذهبا إلى السرير وسرعان ما غطّ هذا الأخير في نومٍ عميق. أما إيمكي، فداعبت شعره وهمست في أذنه بحرارة: «الآن بتّ أعلم إنّي أحبّك حقّاً».

* * *

كان هاينز كالباش يغطّ في النوم أيضاً فيما جلست ريتا قبالة النافذة تراقب الظلال المتراقصة في الظلام. الكلب أيضاً لم ينم وكان قد أصيب بجرحٍ فوق عينه. وحتى هاينز لم ينجُ من الأذى إبّان هجوم المجرم الخطير على بيته.

المهمّ أنّ الفتاة نجت منه.

ولم تقاوم ريتا كالباش الابتسام عندما تذكّرت وجه زوجها عندما علم أنّ الفتاة التي لجأت إلى بيته كانت ابنة إيمكي ثالهايم الكاتبة المشهورة التي يهوى قراءة كتبها.

«لعلّنا سنكون من بين شخصيّات كتابها الجديد!؟»

ولكنّها عادت وهزّت برأسها متمتمة: «لا أظنّ أنّ كاتبة مثل ثالهايم قد تسمح لنفسها استغلال قصّة تعرّض ابنتها للموت في الكتب»

وبهدوء، قامت من مكانها وخرجت من غرفة النوم، فتبعها الكلب. «ما رأيك بقطعة حلوى إضافية يا رودي؟»

هزّ الكلب بذيله. كلبٌ عجوز وشجاع، ويستحقّ مكافأة إضافيّة.

* * *

جثا ناثانيال على الأرض بعد أن تمّ عصب عينيه من قبل رجال الشرطة وأحكم تكبيل يديه وراء ظهره.

لقد هجموا عليه من جميع الاتجاهات.

وكانوا يصرخون في وجهه.

ولذلك ترك الرجل المسن من يده، واستدار نحوهم ليلقّنهم درساً. لن يصرخ أحداً في وجهه بعد الآن. لا أحد!

والكلب الهرم عضّه في ساقه وكان لا يزال ممسكاً بها، لولا تلك الرفسة القويّة التي أرسلته إلى آخر الغرفة.

كانت الفتاة تنظر بعينين مذعورتين من مكانها على الأريكة وقد غطّت جسدها بشال أو بطانيّة، أو شيءٍ من هذا القبيل.

twitter @baghdad_library

تغلّب رجال الشرطة عليه وأمسكوا به وقيّدوا يديه خلف ظهره بحزم، وما زالوا ممسكين بذراعيه على الرّغم من ذلك.

وتكلّم مخاطباً جنّا: «جنّا لا تخافي منّي!»

وجرّوه جرّاً إلى الخارج. أمّا الكلب اللّعين فتبعه ليتمكّن من الإمساك به مجدّداً. حتى حمله أحد رجال الشرطة وأعاده إلى الداخل.

وفي الطريق إلى سيّارة الشرطة لم يتوقّف عن مناداة جنّا. فامتصّت الغابة صوته وأخرسته.

* * *

فتحت عينيّ وشعرت بالألم يعصر قلبي وجسدي. وكان حزني شديداً.

ما زال صوته منادياً اسمي يتردّد في أذنيّ.

وأحسست بأنّ ميرلي تنتظر قرب الباب. لفظت اسمها فدخلت وجلست على ذيل السرير، وسألتني بابتهاج: «ألستِ جائعة؟»

هززت رأسي نفياً.

«حتى لو عرضت عليكِ قطعة كبيرة من كعكة الكرز مع الكريما المخفوقة التي صنعتها؟»

ولكنّي انفجرت بالبكاء من جديد.

صعدت ميرلي إلى جانبي في السرير ووضعَت ذراعها حول كتفيّ، ولم تطرح عليّ أيّ سؤال؛ وكنت شاكرة لها ذلك. فجراح نفسي لا تزال طريّة.

طارت أفكاري نحو نات. تُرى أين هو الآن؟ وكيف هو شعوره؟ لقد قتل كارو.

وأوشك أن يقتلني.

كيف لا أكرهه بعد؟

انتابني رعبٌ مخيف وأنا بقربه. فكيف، بعد أن شعرت بالأمان عدتُ إلى حبّه؟

«قريباً ستبدو الأمور أسهل عليك. اصبري قليلاً». تمتمت ميرلي.

كانت ميرلي تتحدّث عن شيءٍ آخر. ولكنّها على حقّ. يوماً ما سأشعر بتحسّن.

ربّما. سأرتاح من ثقل هذه التجربة يوماً ما!

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

مونيكا فيث

قاطف الفراولة

«كانت ممدّدة هناك مثل الفتيات الأخريات، وجسدها مثلهن، مطعوناً سبع طعنات. شعرها قصير، ويبدو أنّه كان قصيراً من قبل، ولا وجود لخصلاتٍ منه منثورة هنا وهناك. وعيناها الواسعتان موجّهتان إلى السماء. نظرة تنمّ عن الشعور بالمفاجأة. هذه النظرة التي رآها بيرت ملزيغ في الجرائم الأربع، وكانت الأشدّ إيلاماً بالنسبة إليه.

«الضحايا!» كلمة طالما تردّدت على الألسن وردّدها بيرت نفسه آلاف المرّات بطريقة طبيعيّة، ولكن هل بتنا نقدّم ضحايا آدميين إلى الآلهة في هذه الأيّام!؟

«نحن بحاجة لاختيار تعبير آخر، تعبير دقيق لا يحتمل الخطأ»؛ فكّر بيرت قبل أن يتوجّه عائداً إلى سيّارته. عليهم الآن انتظار نتائج التشريح الشرعي. وفي هذه الأثناء، هناك أمور كثيرة يجب القيام بها، وأجهزة الأمن الجنائي بدأت في عمليّات البحث من جديد».

❖ ❖ ❖

إنها القصة المشوّقة التي تدخلك إلى نفس كل من الضحية والقاتل والشرطي معاً... الكاتبة الألمانية مونيكا فيث اعتمدت أسلوب الجذب والإثارة في روايتها **قاطف الفراولة**.

❖ ❖ ❖

ولدت مونيكا فيث في مدينة هاغن الألمانية سنة 1951. وفور إنهاء دراستها في الآداب، بدأت حياتها المهنية في الصحافة، وهي الآن تكرس كامل وقتها للكتابة. رُشّحت أعمالها لكثير من الجوائز الأدبية الألمانية، وكتبت ما يزيد عن 15 رواية. وقد تُرجمت أعمالها إلى عدة لغات، أربعة منها أُنتجت أفلاماً سينمائية.

تُعد الرواية التي بين يديكم الأكثر نجاحاً من بين أعمالها.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

سما للنشر

ISBN 978-9953-68-652-3
9 789953 686523